وقفات مع

ثمرات الجهاد

بين الجهل في الشرع والجهل بالواقع

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

الطبعة الثانية

نسخة مزيدة ومنقحة

Yamanevler Mah. Küçüksu Cad. No: 9 Dükkan: 1 Ümraniye / İSTANBUL
Tel: +90 5368789603
Telgram: @daralmehbra

دار المحبرة للنشر والتوزيع

وقفات مع

ثمرات الجهاد

بين الجهل في الشرع والجهل بالواقع

لفضيلة الشيخ

عاصم بن محمد العتيبي

حفظه الله

الطبعة الثانية

نسخة مزيدة ومنقحة

دار المحجة للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

فهذه هي الطبعة الثانية لكتابي (**وقفات مع ثمرات الجهاد**) أعدت قراءتها من جديد فراجعتها وصححت ما مر بي من أخطاء مطبعية وعدلت في بعض السياقات كعادة كل كاتب حين يقرأ كتابا قديما له .. كما زدت عليها عددا من الوقفات والزيادات النافعة إن شاء الله تعالىٰ؛ والتي حتّمتها نوازل وأحداث استجدت في الساحات؛ فاحتاجت إلىٰ تنبيه علىٰ أخطاء؛ واستخلاص للعبر؛ فقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾.

فتدبّر التجارب واستخلاص العبر منها والاتعاظ بها وعدم تكرار أخطائها من صفات أولي الألباب.

وهذه عناوين ما زدته مبثوثا في هذه الطبعة الجديدة:

- وقفة مهمة في الرد علىٰ شبهة أن قتال الدفع لا يُشترط له أي شرط وبيان أن شرط التوحيد لا يتخلىٰ عنه موحد.

- زيادة حول ترشيد العمليات الاستشهادية.

- وقفة بعنوان: الجهاديون واجترار الأخطاء والمسرحيات المكررة (تشخيص المرض والعلاج)

- وقفة حول: التزكيات بين الجهاديين والتساهل فيها

- وقفة حول: طاعة المتغلب عند أهل السنة والرشاد وأنها خضوع للشريعة ومصلحة للعباد وليس رضا بالظلم ولا خضوع للاستبداد.

- وقفة في: التحذير من أخطار الاستعانة علىٰ المسلمين بالكفار وبيان أن ما يجري في كثير من الأقطار ليس استعانة بل مظاهرة للكفار.

- وقفة حول: توحيد الكلمة علىٰ كلمة التوحيد

وتخرج هذه الطبعة الجديدة بعدما عصفت بالتيار الجهادي تجربتان قاسيتان صادمتان:

- تجربة غلاة التكفير.

- وتجربة المميعة.

اللتان استنزفتا موارد التيار ومقدراته؛ واستعملتا شبابه في مشاريع انحرفت عمّا منّتهم به؛ واستقطبتهم له؛ ودعتهم إليه؛ فصار التيار علىٰ إثرهما شذر مذر وصار شبابه كالأيتام علىٰ مائدة اللئام؛ ووقعوا في فتن واستقطابات وتشرذمات استغلهما أعداء الإسلام وإعلام طواغيت الحكام للصد عن التيار الجهادي وتشويهه.

فصارت طوائف من الناس يرون من تجربة الغلاة أن تحكيم الشريعة لا يعني سوىٰ التكفير؛ والذبح والتفجير؛ والتفنن في طرق القتل؛ ومحاربة العالم كله؛ وبث التفجيرات في كل مكان حيثما تطاله اليد دون فقه أو تعقّل أو تمييز؛ مما جمع العالم كله عليهم وعلىٰ أتباعهم فأوسعوا فيهم القتل والتشريد والاعتقال وحرقوهم فلم يميزوا بين شيخ أو شاب او طفل أو امرأة؛ ولم يَسأل بهم أو يُشفق عليهم أحد لِما رأوه من إصداراتهم السابقة من أعمال صادمة بررت لقمعهم وإبادة خضرائهم وزجّ من تبقىٰ من

أتباعهم نساء وأطفالا وغيرهم بالألوف في المعتقلات!وصار كل ما يمارس ضد أتباعهم نساء وأطفالا وغيرهم في هذه المعتقلات من ظلم وإجرام لا يهتم به العالم؛ بل مبررًا عند أغلب الناس بإجرام قيادتهم السابقة.

وببركات! تجربة المميعة أو سمِّهم الجهادقراطية الذين استغلوا التيار الجهادي وامتطوه ليصلوا علىٰ ظهره إلىٰ كرسي الحكم فيقيموا دولتهم الديمقراطية المسخ؛ والتي رأىٰ الناس بأعينهم أنها لا تختلف شيئا عن سائر الدول الطاغوتية السايكسبيكية؛ ولو كان لمشايخ الترقيع والتصفيق والتدليس حتىٰ آخر رمق قول آخر أضلوا الناس به بجادلهم عن هذه الثمرة الخايسة؛ فكان لجدالهم عنها وإصرارهم علىٰ أنها ثمرة إسلامية! أن صوروا للناس أن تحكيم الشريعة لا يختلف قليلا ولا كثيرا عما تفعله أنظمة سايكس بيكو المعطّلة للشريعة والمشوهة لها!

وهكذا فقد تميّز مميعة زماننا بالتفريط بالتوحيد وبسياسة الترقيع والتمييع

وتميّز الغلاة بالإفراط في التكفير والتفجير والتشديد بلا ترشيد

فضاعت ثمرات الجهاد بين: **الإستجداء والإستعداء!**

والفلاح كل الفلاح إنما هو بالتزام المنهج السديد الرشيد الذي يتأسىٰ بخاتم النبيين ﷺ وذلك بنصرة التوحيد بالدعوة والحديد؛ والثبات عليه مع عدم إهمال سياسته الشرعية.

ورغم قساوة هاتين التجربتين ومرارتهما وإصابة كثير من العقلاء وطلبة العلم بالإحباط بسبب مآلهما؛ إلا أن (الحرّ حُرّ؛ وإن مسه الضر) كما يقال في الأمثال؛ فالواجب علىٰ أبناء التيار الجهادي سرعة الاستفاقة من هذه النكسات؛ وإعادة ترتيب الصفوف والأولويات؛ وطي صفحة الماضي المريرة والمثبّطة؛ دون إهمال أخذ الدروس والعبر منها.

وهذا التجديد في هذه الطبعة ما هو إلا محاولة لاستدراك شيء من ذلك . .

أسأل الله تعالىٰ أن يلهمنا رشدنا ويرزقنا السداد والهدىٰ وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين

✍ **عاصم العتيبي**

كلمة بين يدي الوقفات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذه خلجات قلم وشجون سجون خططتها حرصًا علىٰ إخواني ونصحًا للدعوة والدعاة والجهاد والمجاهدين..

وأنصح كل داعية ومجاهد قراءتها وتدبرها وتأملها والاستفادة من التجارب والأمثلة التي أودعتها فيها..

وعدم تشتيت هذه الاستفادة وإِضعاف ثمرتها أو تضييعها في البحث عمن يقصد الشيخ والتفكير بلعله يقصد فلانًا أو علانًا .. فالأمر أكبر من الأشخاص .. والخطب أعظم من هذا التحجيم .. ونحن بحاجة لعقول ترتفع عن هذه السطحية في تناول الأشياء، ولا تحجّر أو تحصر الأمور في أشخاص معينين أو مسميات .. فالدين اليوم يحارب حربا شعواء، والجهاد يكاد له كيدًا عظيمًا علىٰ كافة الأصعدة وبشتىٰ الوسائل والأساليب والمؤامرات وقد تكررت تجارب الجهاديين التي استغلوا بها وامتطىٰ ظهورهم وتسلق علىٰ تضحياتهم وقطف ثمرة جهادهم أئمة مضلون ورؤوس أفاكون؛ ولا بد من وقفات مراجعة للمسيرة، ولفتات تسديد وتوجيه لكل غيور علىٰ هذا الدين؛ كي نرتقي بتفكيرنا وفهمنا ودعوتنا وعملنا وجهادنا إلىٰ مستوىٰ التحديات ولا نكرر الآخطاء أو نجتر النكسات..

وما هذه الورقات إلا محاولة مني في هذا الاتجاه، أسأل الله تعالىٰ أن يتقبلها مني وأن ينفعني وإخواني بها وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم..

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين

الوقفة الأولى

الرد على شبهة أن قتال الدفع لا يُشترط له أي شرط وبيان أن شرط التوحيد لا يتخلى عنه موحد

لقد اشتهر قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن قتال الدفع: (وأما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين فواجب إجماعا، فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه فلا يشترط له شرط بل يدفع يحسب الإمكان وقد نص علىٰ ذلك العلماء أصحابنا وغيرهم)[١].

ولقد استدل كثير ممن يدعي العلم من حملة ألقاب الدكترة والمشيخة وشرعي الفصائل في سوريا وغيرهم بهذه الفتوىٰ لتسويغ كثير من الموبقات بدعوىٰ أن شيخ الإسلام قد ألغىٰ بهذا النص كل شرط من شروط الجهاد .. حتىٰ استدل به من أجاز مظاهرة المشركين من الصليبيين والمرتدين وغيرهم والإستعانة بهم علىٰ المسلمين غلاة كانوا أو غيرهم، واستدل به آخرون علىٰ جواز الإنخراط في صفوف فصائل تدعوا للدولة الديمقراطية التعددية المناقضة لدولة التوحيد والإسلام، واستدل به بعضهم علىٰ تمييع العرىٰ الوثقىٰ وهدم الولاء والبراء .. فحملوا هذا النص ما لا يحتمل وقوّلوا شيخ الإسلام ما لم يقله فضلوا وأضلوا.

---

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ ٤/٦٠٨.

ولقد كنت ذكرت أكثر من مرة أن شرط (التوحيد) لا يصح عمل ولا يُقبل جهاد بدونه سواء كان الجهاد جهاد دفع أو جهاد طلب، ومع ذلك جادل بعض من لا يحسن إلا الجدال في ذلك، مع أن ذلك أمر يتعلمه الطالب في أبجديات وألف باء التوحيد حين يتعلم شروط قبول العمل الصالح، والتي جعلها العلماء شرطين (شرط الإخلاص وهو التوحيد، وشرط المتابعة) وبعضهم أضاف الإيمان، ومن لم يضفه جعله مندرجا في التوحيد.

ومع ذلك استمر المجادلون بالباطل في جدالهم .. فأحببت أن أقطع جدالهم من جذوره وأذب عن شيخنا ابن تيمية هذه الفرية التي حملت مقالته ما لا تحتمل، وذلك بأن أورد من كلام شيخ الإسلام نفسه ما يرد باطلهم ويقمع فريتهم.

وذلك أنه ذكر رحمه الله تعالىٰ في رده علىٰ البكري ما يدل علىٰ أنه هو وكل من يوصف بالمعرفة في الدين يأبون القتال في صف فيه من يدعو غير الله ويشرك بالله، كيف والجهاد ما قام إلا لنصر التوحيد وتحرير العباد من عبادة العبيد؛ ولذلك فإن شرط خلو الجماعة المقاتلة من الشرك أو خلو غايتها من الشرك سواء بالسعي لجعل غير الله معبودا أو مشرعا أو حكما؛ ذلك ليس شرطا عاديا ومعتبرا وحسب؛ بل هو أبو الشروط وأصلها وأسها وقاعدتها التي لا يصح أن يتساهل فيها أو يتنازل عنها موحد؛ إذ ما قام الجهاد أصلا إلا لإبطال الشرك وجهاد أهله. ووجود الشرك والمشركين في الصف من أعظم أسباب الهزيمة والخذلان . . .

قال شيخنا رَحِمَهُ اللهُ **في واقعة هي من قتال الدفع**: (إن العدو الخارج عن شريعة الإسلام لما قدم دمشق؛ خرجوا: أي: بعض الناس يستغيثون بالموتىٰ عند القبور التي يرجون عندها كشف ضرهم . . .

فقلت لهم: هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم في القتال؛ لأنهزموا كما انْهَزَم مِنَ المسلمين يوم أُحُد فَإِنَّه كان قد قُضِيَ أَنَّ العسكر ينكَسِرُ لأسباب اقتضت ذلك، ولحكمة الله في ذلك.

ولهذا كان أهل المعرفة بالدين والمكاشفة لم يقاتلوا في تلك المرّة؛ لعدم القتال الشرعي الذي أمر الله به ورسوله، ولما يحصل في ذلك من الشر والفساد وانتفاء النصرة المطلوبة من القتال؛ فلا يكون فيه ثوابُ الدُّنيا ولا ثواب الآخرة لمن عرف هذا وهذا، وإن كان كثير من المقاتلين الذين اعتقدوا هذا قتالًا شرعيًا: أجروا علىٰ نياتهم.

فَلَمَّا كان بعد ذلك: جَعَلْنا نأمر النَّاسَ بإخلاص الدين لله، والاستغاثة به، وأنهم لا يستغيثون إلا إياه، لا يستغيثون بملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ كما قال -تعالىٰ- يوم بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، ورویٰ أن رسول الله ﷺ كان يوم بدر يقول: «يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث». وفي لفظ: (أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين، ولا إلىٰ أحد من خلقك). فلما أصلح الناس أمورهم، وصدقوا في الإستغاثة بربهم: نصرهم علىٰ عدوهم نصرًا عزيزًا، ولم تهزم التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلًا، لما صح من تحقيق توحيد الله وطاعة رسوله ما لم يكن قبل ذلك؛ فإن الله ينصر رسوله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أهـ[1]

وهاهنا فوائد نجملها بالتالي:

١- في هذه الفتوىٰ توضيح وبيان لما أجمل في قول شيخ الإسلام في الفتوي التي فرح بها المجادلون عن الباطل، وتقييد لما أطلق في قوله عن

(١) باختصار من كتابه: «الاستغاثة والرَّدُّ علىٰ البكري» (ص٧٣٢-٧٣٣).

جهاد الدفع: لا يشترط له شرط (فهذا الإطلاق لا يشمل شرط التوحيد ولا ينفيه، وهذا أمر بدهي، كما هو في حديث الرجل الذي غفر الله له وهو لم يعمل خيرا قط) فقد ذكر العلماء أن هذا الإطلاق لا ينفي التوحيد؛ وجاء ذلك مصرحا به في رواية للحديث ومعلوم أن رد المجمل إلىٰ مفسره وربط المطلق بمقيده هي طريقة الراسخين في العلم، والتفريق بين ذلك وقطعه هو من طريقة أهل الزيغ الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وطريقة المفسدين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل.

٢- إن هذا الذي أوردناه من كلام شيخنا ابن تيمية في بيان أن شرط التوحيد والحفاظ علىٰ جنابه معتبر عنده غير مغفل ولا مهمل، هو في جهاد الدفع فليس لمدع أن يدعي أنه في غير ذلك، إذ الكلام عن هجوم التتار علىٰ دمشق في زمنه رحمه الله.

٣- أن شيخ الإسلام يرىٰ أن ترك القتال حين يتخلل الجماعة المجاهدة شرك أو دعاء لغير الله هو من طريقة (أهل المعرفة بالدين) وليس من طريقة أهل الغلو والتشدد كما يفتريه المجادلون بالباطل من المميعة أو اللامناهجة وغيرهم . . وأن وجود الشرك وما يناقض التوحيد سبب في الشر والفساد وانتفاء النصرة المطلوبة من القتال ولا يكون فيه ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة . . . . .

وأن القتال مع وجود الشرك الظاهر في الصف أو في الجماعة أو الفصيل أو في غايته وهدفه هو ليس من (القتال الشرعي الذي أمر الله به ورسوله).

ولا يحجر كلامه رحمه الله في شرك دعاء غير الله إلا متحجر العقل؛ فالشرك شرك سواء من هذا الباب؛ أو في باب ابتغاء غير الله حكما ومشرعا؛ فيدخل في ذلك قطعا شرك من يسعىٰ لدولة تعددية أو ديمقراطية

تحكم بغير ما أنزل الله وتحتكم للجماهير في اختيار نوع الحكم . . فحذار أن تنطلي عليك أيها المجاهد زخرفات المزخرفين وتلبيساتهم التي تقتطع من كلام شيخ الإسلام ما تمرر به باطلهم، وتسوغ به افكهم، فقد امتدح الله الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل فكن منهم؛ ولا تفرق كلام الشيخ وتقتطع منه ما يوافق الهوىٰ والمآرب الشيطانية، فلن ينفعك هذا بين يدي الله، وأنت تجاهد وتضحي بأغلىٰ ما عندك وهي نفسك التي بين جنبيك فاعرف أين تضعها وكيف تضحي بها، وليكن ذلك في رضوان الله وفي سبيل تحكيم شرعه ومن أجل نصرة توحيده، ولا تلتفت إلىٰ من يدعي أننا نصعب الجهاد ونعستر شروطه، فالساحات فيها ولله الحمد فصائل وجماعات تعلن أن غايتها تحكيم الشريعة وتبرأ صراحة من سبل المميعين وطرائق الديمقراطيين وأصحاب الصفقات السياسية التأمرية . . فأعرض عن هؤلاء واستجب لمولاك الذي قال في سياق ذكر الجهاد والمجاهدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فحذار أن يستعملك غير الصادقين ويتخذوا تضحياتك مطية للوصول إلىٰ حكمهم الديمقراطي الشركي ودولتهم الطاغوتية فتعينهم علىٰ استبدال طاغوت بالي بطاغوت ملمع.

٤- ثم تأمل إلىٰ قول شيخ الإسلام بعد ذلك: (**فَلَمَّا كان بعد ذلك: جَعَلْنا نأمر النَّاسَ بِإخلاص الدِّينِ للَّهِ، إِلىٰ قوله . . . . فَلَمَّا أَصْلَحَ النَّاسُ أمورهم وصدقوا في الاستغاثة بِرَبِّهم؛ نصرهم الله علىٰ عدوهم نصرًا عزيزًا، ولم تهزم التتار مثل هذه الهزيمة قبل ذلك أصلًا، لما صح من تحقيق توحيد الله**) . . . . أهـ

فليكن ديدنك في الجهاد وفي ساحاته؛ الدعوة إلىٰ إخلاص الدين كله لله وهو التوحيد الذي هو أعظم المصالح علىٰ الإطلاق إذ ما قام سوق الجهاد إلا من أجل إظهاره وتحقيقه وتحكيم شريعته في الأرض واعمل علىٰ

تنقية الصفوف من الشرك الصراح الذي هو أشر وأخبث المفاسد على الإطلاق وقد شرع الجهاد من أجل إبطاله . . واستعن لأجل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأخلص النصح في ذلك لخواص المجاهدين وعوامهم . . فبذلك يتنزل النصر، وينال تأييد الرحمن وتتجنب مزالق الشيطان.

الوقفة الثانية

سوء فهم لحديث الصّعب بن جَثّامة

عندما كتبت في شرعيّة العمليات الجهادية التي ينغمس فيها بعض المجاهدين في الكفار ويفجّرون أنفسهم ليثخنوا في الكفار أصررت علىٰ ضبطها بضوابط وعدم جعلها كسائر الوسائل القتالية التقليدية المشروعة علىٰ إطلاقها، فالتزمت ما التزمه علماؤنا المحققون من ضوابط حين جوّزوا قتل ترس أسارىٰ المسلمين إذا تترس بهم الكفار وكان في ترك قتل الترس مفسدة أعظم من قتله بأن تكون المصلحة ضرورية قطعية، وقد راجعني بعض طلبة العلم في هذه التقييدات والضوابط ومازلت مُصِرًّا عليها خصوصًا وأنا أسمع وأرىٰ من يفجّر نفسه لقتل كافر واحد أو كافرين يمكن قتلهما بالمسدس أو البندقية وكرّرنا مرارًا أن مشروعيتها تظهر في حال عجز المجاهد عن الجهاد بدونها بحيث يكون في ترك هذه الوسيلة تعطيل للجهاد وعلوّ لدين الكفر والكفار، ويُصِرّ مخالفونا علىٰ أنها وسيلة كسائر وسائل القتال ولو لغير ضرورة ولو لم يكن من ورائها إثخان أو مصلحة عظيمة . . .

وهذا التقييد منا والتشديد باعثه تعظيم حُرمةِ دم المسلم والحرص علىٰ تحقيق مقاصد الجهاد كما يحبها ربنا ويرضىٰ . .

وإذا كان هذا التشديد في قتل المسلم نفسه في هذه الصورة فكيف في تسبّبه في قتل غيره من المسلمين بسبب الفوضىٰ التي عَمَّتْ بعض ساحات

القتال وعدم التزام المقاتلين فيها بضوابط الشرع وحدود الله؛ وتساهل الغلاة في شأن الدماء وتهاونهم في حرمة المعصومة منها..

فقد أصبح كثير من الشباب مُغرم بعمليات التفجير لضرورة أو غير ضرورة وكأنّ الجهاد لا يصلح إلا بالمتفجرات ...!!

أو كأن هؤلاء الشباب لا يُحسنون غيرها ...

وكأنهم لما تدرّبوا عليها صار لزامًا أن لا يجاهدوا إلا بها..

حتىٰ صار أعداؤنا يشمّون رائحة هؤلاء الشباب ويقرّرون في تحقيقاتهم الأوّلية أنهم وراء مثل هذه الأَعمال بمجرد كون العمل تفجيرًا لغير ضرورة، أو بمعرفة نوع المتفجرات التي لا يُحسن بعض هؤلاء الشباب غيرها ....

ربما لأنهم يسمعون ويشاهدون بعض العمليات المتقنة التي يُنفذها المجاهدون المتمرّسون في الشيشان أو القاعدة ونحوهم من ذوي الخبرة فيسعون إلىٰ محاكاتهم وتقليدهم دون أن يمتلكوا خبراتهم وتمرّسهم فيحصدون بذلك فشلًا ذريعًا وأخطاء تُحزن الموحدين وتقرّ أعين المشركين، ولا يُعفي أولئك الشباب من المساءلة والملامة والإنتقاد كون ذلك الشارع أو السوق أو الميدان الذي أوقفت أو وضعت فيه سياراتهم المفخخة أو عبواتهم الناسفة قبالة سفارة عدو أو أمام بيته مادام يُنال مثل هذا العدو بالطرق التقليدية دونما تفجير ومادام هؤلاء الشباب لا يُعمّمون التكفير علىٰ جماهير المسلمين في ديارنا كما يفعله الغلاة ...

فأي شرع أو عقل يُبيح مثل هذه الأَعمال .. وهل حقًا هي من الجهاد الذي يُرضي ربنا؟؟

فكم سمعنا بعمليات ذهب ضحيتها جمع من الأَبرياء المسلمين وربما لم يذهب فيها عدو واحد لله، وماذلك إلاّ للإصرار علىٰ تنفيذها بواسطة

المتفجرات وكان يمكن أن تحسم بطلقات معدودات، وعندما نتوجّه باللوم إلىٰ أولئك الشباب أو نُعاتبهم ونناصحهم أو ننكر عليهم وندعوهم إلىٰ أن يتقوا الله في المسلمين وفي الجهاد وسُمعته ونذكّرهم بحرمة دم المسلم ولو كان عاصيًا فاجرًا . . يبادرون فورًا بالاستدلال بحديث الصّعب بن جَثّامة وأن فعلهم إنما هو من جنس تبييت الكفار[١] .

وإذا كان الأمر كذلك فتعالوا بنا فلننظر في حديث الصعب بن جثامة وفي دلالته وفِقْهِه وكلام العلماء فيه . . .

روىٰ البخاري ومسلم من حديث الصَّعْب بن جَثَّامَةَ أن رسول الله ﷺ سُئِل عن أهل الدار يبيتون من المشركين فيصاب من نسائهم وذراريهم؟ قال: «هم منهم» وسمعته يقول: «لا حِمىٰ إلا لله ولرسوله ﷺ» ففي هذا الحديث جواز الإغارة علىٰ الكفار والمشركين ليلًا ولو ترتّب علىٰ ذلك أن يقتل معهم بعض نسائهم وذراريهم الذين نهينا عن تقصُّدِ قتلهم . . .

ففي الحديث رفع الحَرَجِ عن قتلهم من غير تقصّد في مثل هذه الحالات التي يعسُر علىٰ المجاهدين فيها تجنب غير المقاتلين، وأدخل في ذلك العلماء الرَّمي بالمنجنيق . . . (ومن جنسه اليوم المتفجرات) علىٰ حصون الكفار فإن التحرز فيه عن غير المقاتلين مستحيل . . . .

---

(١) هذه الأمثلة المشار إليها سمعناها ورأيناها مرارا في وسائل الإعلام المختلفة ونحن هنا لم ننسبها إلىٰ جماعة اسلامية مقاتلة بعينها فهذا ما لا نملك عليه دليلا، خصوصا وقد ثبت موثقا أن الأمريكان وغيرهم من أعداء الدين والجهاد؛ يقومون بتفجيرات إجرامية في تجمعات المسلمين العامة؛ ينسبونها للمجاهدين تشويها للجهاد وتنفيرا عن المجاهدين وزرعا للشقاق والعداء والبغضاء بينهم وبين عامة الناس المتعاطفين معهم!! والذي يهمنا نحن هنا تبصير إخواننا وتوجيه جهادنا إلىٰ ما يحبه الله ويرضاه من الاختيارات وتجنيبهم العثرات وأن لا يختار أحد منهم في ظرف من الظروف مثل هذه الاختيارات.

فجاء هؤلاء الشباب فاستدلوا بهذا الحديث علىٰ تجويز عمليات التفجير في شوارع المسلمين وأسواقهم مع أن قوله ﷺ «هم منهم لا حمىٰ إلا لله ولرسوله» دليل عليهم لا لهم إذ فيه دلالة علىٰ عصمة المسلم وأن له حِمىٰ لا يَجُوز تعدي حدودها . . وأنّ الذين لاحِمىٰ لهم إنما هم المشركون وذراريهم لا المسلمين وذراريهم، أَضف إلىٰ ذلك أن نفي الحِمىٰ عن ذراري المشركين ونسائهم في هذا الحديث إنما هو في حالة البيات التي لا يقدر المجاهدون فيها علىٰ التحرُّز منهم وليست علىٰ إطلاقها للأدلة الأُخرىٰ التي نهت عن تقصد قتل نسائهم وأولادهم . . . .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «هم منهم» «المراد إذا لم يمكن الوصول إلىٰ الآباء إلا بوطء الذريّة فإذا أصيبوا لاختلاطهم بهم جاز» أهـ.

وقال النووي في شرح مسلم: «ومعنىٰ (البيات) أن يُغار عليهم بالليل بحيث لا يعرف الرجل من المرأة من الصبي» أهـ.

تأمل كيف أن هذا التحرّز والاحتياط هو في نساء وذراري المشركين . . . فمن باب أولىٰ وأحرىٰ أن يكون في المسلمين إذا خالطوا الكفار . . .

فكيف إذا لم يكن الهدف بيوتًا أو تجمعات سكنية مخصّصة للكفار أو مواقع عسكرية لهم . . . بل صارت الأَهداف شوارع المسلمين وأسواقهم وحافلاتهم وأماكن تجمعاتهم؟ بدعوىٰ أن في ذلك الشارع أو السّوق سفارة للعدو أو بيتًا لضابط ثم تكون نتائج هذه الأَعمال عشرات الأبرياء من الرّجال والنّساء والوِلدان المسلمين . . . ولا ينالون من عدوٍّ نيلا . . . ثم يستدلون بحديث الصَّعب بن جثّامة وبنصب النبي ﷺ المنجنيق علىٰ الطائف . . .

يا إخواننا اتقوا الله في المسلمين واتقوا الله في الجهاد، نستوعب جيدًا ونتفهّم استدلال المجاهدين بأمثال ذلك حين يغيرون علىٰ المواقع العسكرية أو المجمّعات السَّكنيّة المخصصة للمشركين ولو تواجد فيها بعض المنتسبين للإِسلام . . فهذه ليست أماكن للمسلمين ولا يعصمها من هجمات المجاهدين وجود بعض من يَتَولىٰ المشركين ويظاهرهم أو يكثّر سوادهم ممن يدعي الإِسلام . . ويدل علىٰ ذلك أيضًا حديث الجيش الذي يغزو الكعبة فيخسف الله بأولهم وآخرهم وفيهم من ليس منهم فيهلكون مهلكًا واحدًا لا يُميّز الله في مهلكهم في الدنيا ويُبعثون يوم القيامة علىٰ نيّاتِهم، فما دام هذا الجيش واضح الرّاية والوجهة وكونها شركية تريد غزو الكعبة أو محاربة الدين وأهله، فكيف يَعصم أو يَمنع من قتاله سير بعض المنتسبين للإسلام في ركابه أو تكثيرهم لسواده فضلًا عن تولّيه ومظاهرته؟؟ فلنكن واضحين فهذا أمرٌ آخر لا ننكره ولا نتكلم فيه بل ندفع عن المجاهدين فيه . . ونزيدهم أدلّةً إلىٰ أدلتهم في تجويزه، وإنما الذي ننكره أن يعكس البعض الأمر فتصير أماكن مرور المسلمين وتجمعاتهم ووسائل نقلهم وشوارعهم التي تكتظ بنسائهم ورجالهم وذراريهم أَهدافا لعمليات تفجير عمياء بدعوىٰ أنَّ بالقرب دكانًا لكافر أو سيارة لمشرك أو سفارة لعدو . . يطال تفجيرهم عشرات المسلمين ويحصد النساء والأطفال والأَبرياء ولا ينالون نيلا من العدو الذي كان يمكن أن ينالوه بغير التفجير . . .

يا إخواننا نذكركم بحديث المصطفىٰ ﷺ: «ومن خرج من أمتي علىٰ أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشىٰ من مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني» وفي رواية «ولستُ منه» رواه مسلم . . . عن أبي هريرة؛ وتأمل إلىٰ قوله: (ولا يتحاشىٰ من مؤمنها) فماذا يستفيد المجاهد من جهاده إذا دخل في وعيد هذا الحديث وشملته براءة رسول الله ﷺ منه ومن

جهاده ...اللهَ اللهَ في المسلمين وفي حرماتهم ودمائهم ...الله الله في الجهاد وثمراته..

ألم تعلموا أن من حَفَرَ بئرًا في طريق المسلمين وشوارعهم فتلف بها مسلم فإنه تجب عليه الكفارة والدية علىٰ عاقلته ويلتحق بالبئر كل حفرة أو سبب من أسباب الإتلاف .. نص علىٰ ذلك جمعٌ من الفقهاء عند شرحهم لحديث «العجماء جرحها جبار والبئر جبار ...» رواه البخاري وغيره؛ وبيّنوا أنّ البئر التي لا ديّة ولا كفارة علىٰ صاحبها هي تلك التي يحفرها في أرضه أو في أرض موات أو في بادية بعيدة عن طريق المسلمين..

وقال الشافعي: (واضع الحَجَر في أرض لا يملكها ضامن).

بل نصّوا علىٰ أن من يزحم دابة في طريق المسلمين فيغيّر طريقها فتدوس إِنسانًا فإنه يضمنه ...

وبعضهم نصّ علىٰ أنه لو أهمل صيانة جدار بيته فسقط علىٰ مسلم فقتله فإنه يضمنه وكذا من أخرج عن حدّ بيته شيئًا كخشبة أو نحوها فأصاب إنسانًا فهو ضامن، بل إن بعضهم ضمّن من توضأ فصبَّ الماء في طريق المسلمين فمر مسلم فزلق به..

إنها دماء المسلمين ... فلا تتهاونوا فيها .. فيجب أن تعلموا يا إِخواننا أن دم المسلم غالٍ وحرمته عظيمة، واستباحة دماء المسلمين خطر عظيم وترك قتل ألف كافر -كما نص العلماء- أهون من سفك محجمةٍ من دم مسلم عمدا..

ولقد نادىٰ رسول الله ﷺ في الأمة في البلد الحرام في الشهر الحرام في يوم الحج الأكبر قائلًا: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة

يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلىٰ يوم تلقون ربكم ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعىٰ من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» رواه البخاري

وأختم هذا بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفَتْح: ٢٥] . . .

فهذه آيات نزلت تحرّزًا لدماء عددٍ قليل من المسلمين المستضعفين الذين يكتمون إيمانهم بين ظهراني المشركين في مكة قال تعالىٰ ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ أي يصيبكم إثم وغرامة . .

وهذا إذا وطؤوهم وتسبّبوا بقتلهم بغير علم ولم يعلموهم؛ فكيف إذا كانوا يعلمون ويتيقّنون بأن جمهور المارة في هذا الشارع أو جمهور المتواجدين في ذلك الميدان من المسلمين فيطؤوهم بعلم؛ ألا يصيبهم بذلك معرّة وأي معرّة؟ . . . ؟

قال: المفسرون في المعرّة . . . .

هي الإثم والغمّ والشدّة . . .

وقالوا: هي مفسدةُ تحدّثِ المشركين بأنّ المسلمين يقتلون أهل دينهم . . .

وقالوا: هي كفارة القتل الخطأ . .

ترشيد وضبط العمليات الإستشهادية
مع تطوّر وسائل الجهاد وإمكانيّات المجاهدين

سؤال: في هذه الأوقات تمكن المجاهدون من تطوير بعض الأسلحة الصاروخية التي تحمل رؤسا ذات أوزان كبيرة قد تصل إلي الطن تقريبا . . . وهي بذلك تفعل فعل العمليات المفخخة التي يقودها شاب . . .

ومع وجود السيارات والطائرات المسيّرة التي تُقاد أو توجه عن بعد!

فهل يؤثر هذا الواقع في حكم العمليات الاستشهادية؟؟

وهل من نصيحة وتوضيح

الجواب:

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله

وبعد فحين كتبت أوّل ما كتبت في حكم العمليات الإستشهادية عام ١٤١٦هـ فقد تحرّزت من التساهل فيها أوالتوسّع والخروج بها عن الحدود التي حدّها بها من جوّزها، أو الحدود التي حدَّت أشباهها ونظائرها التي بنينا هذه الفتوىٰ العصرية عليها.

فكان مما قلته في فتواي الأولىٰ فيها؛ والتي كانت قد نشرت في مجموعة أسئلة بعنوان (الإشراقة في سؤالات سواقة) بعد أن سُقت الأحاديث المرهبّة من قتل المسلم نفسه والنصوص المحرّمة للانتحار، قلت:

(فهذه وغيرها نصوص عامة قطعية الدلالة في تحريم قتل النفس المعصومة، ولا يحل أو يجوز بحال أن يُستثنىٰ منها إلا ما استثناه الشرع، والذين يقدمون علىٰ تفجير أنفسهم في مثل هذه العمليات مدعوون إلىٰ دراسة مثل هذه النصوص والوقوف عندها طويلًا قبل الإفتاء بمثل ذلك أو الإقدام عليه، لأن الغاية عند المسلمين لا تبرر الوسيلة، فلسنا ميكافيليين، ولا بد للوسيلة أن تكون مشروعة كالغاية.

وليعلموا ان الحق ليس مع المذهب الأشدّ، بل مع الأَسَدّ الموافق للأدلة.

وليتذكروا أن المرء لا يملك سبعة أرواح يجرِّب شيئا منها هنا وشيئًا هناك، بل هي نفس واحدة فليحرص علىٰ أن يبذلها في طاعة الله ومرضاته؛ وعلىٰ بصيرة من أمره).

ثم فرّقت بين المنتحرين يأسًا من الحياة، والمجاهدين الذين يفدون دينهم بأرواحهم .. ودعوت إلىٰ ترشيد هذه العمليات الإستشهادية وضبطها وتضييق مجالها فيما لا بد للمجاهدين منه .. إلىٰ أن قلت: (فإن العلم الحديث ووسائله قد أفادهم أمورًا يحفظون بها دماء إخوانهم الموحدين ويوفّرونها لأعظم مصلحة، وأكبر مدة ممكنة، فهناك ساعات التوقيت ومصائد المغفلين والمشاعل والألغام المتنوعة والصواعق الكهربائية وأقلام التوقيت وأجهزة التحكم عن بعد «الرمونت كنترول» والخلايا الضوئية ونحوها، مما لم يعد يعجز عنه من يقف خلف أمثال هذه العمليات.

وهو يجعل المُفتي الذي يعرف خطورة الفتوىٰ، وأنه توقيع عن الله؛ يتوقف طويلًا قبل القول بجواز تلك العمليات التي يقتل المسلم نفسه فيها دون ضرورة حقيقية، إذ أن هذه الإمكانات تُوسّع آفاق العمل عند المجاهدين، وما دام هناك طريق إلىٰ حفظ وحقن دماء الموحدين وجب

الأخذ بها، فإخواننا المجاهدون المتبصرون في شتىٰ بقاع الأرض يشرّكون الطرود والرسائل والحقائب ويفخّخون السيارات ونحوها بشيء من هذه الوسائل، وينكلون بأعداء الله أشد التنكيل، بأقل الخسائر في صفوف الموحدين، وليست الشهادة خسارة، وإنما الخسارة كل الخسارة في مخالفة الحكم الشرعي والموت علىٰ غير بصيرة.

ونحن نقول دائمًا؛ إن الأخ الموحّد الذي يصل في التربية والإعداد إلىٰ هذه المراحل المتقدمة، هو في الحقيقة جوهرة فريدة في مثل هذا الزمان، لا ينبغي لقيادته إن كانت عاقلة أن تفرط به لأجل حذاءين أو ثلاثة أو نحوهم من علوج الشرك وعساكرهم، ممن يمكن ان يُقضىٰ عليهم بغير هذه الطريقة، ممن أمكن قتله بالبندقية والمسدس والقنبلة أو السيارة المفخخة دون قتل النفس المسلمة، فأي دليل من أدلة الشرع يُجيز لأجله قتل النفس؟!)

إلىٰ أن قلت:

(ولذلك فإن المتتبع لكلام أهل العلم في مثل هذه الأبواب يجدهم يُشدّدون في هذه المسائل ويتورّعون، ولا يُفتون تبعًا للحماس أو خوفًا من ألسنة المخالفين والمرجفين، وإنما يُفتون بما يعتقدونه موافقًا للدليل الشرعي، ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾.

وذكرت أمثلة من ذلك؛ قال ابن قدامة المقدسي في «المغني» [٨/ ٤٧٨، كتاب الجهاد]: (فصل؛ وإذا ألقىٰ الكفار نارًا في سفينة فيها مسلمون فاشتعلت فيها، فما غلب علىٰ ظنهم السلامة فيه من بقائهم في مركبهم أو إلقاء نفوسهم في الماء فالأولىٰ لهم فعله. قال أبو الخطاب في رواية أخرىٰ: أنهم يلزمهم المقام لأنهم إذا رموا نفوسهم في الماء كان موتهم بفعلهم؛ وإن أقاموا فموتهم بفعل غيرهم) أهـ.

فتأمل تفريقهم بين الموت بفعل المرء نفسه وبين الموت بفعل الغير.

واعلم أن أشبه المسائل عند أهل العلم بمسألتنا هذه؛ المسألة التي يمثل بها علماء الأصول في أبواب المصلحة المرسلة، وهي المسألة المشهورة بمسألة الترس.

وفيها يقول ابن قدامة في المغني [٨/ ٤٥٠]: (وان تترسوا بمسلم ولم تدع حاجة إلىٰ رميهم لكون الحرب غير قائمة أو لإمكان القدرة عليهم بدونه أو للأمن من شرهم؛ لم يجز رميه، وقال الأوزاعي والليث؛ لا يجوز رميهم لقول الله تعالىٰ ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ . . . الآية، وقال الليث؛ ترك فتح حصن يقدر علىٰ فتحه أفضل من قتل مسلم بغير حق).

ونقلت في الهامش قول الشافعي في «الأم» [٤/ ١٦٨]: (أخبرنا الثقفي عن حميد عن موسىٰ بن أنس عن أنس بن مالك؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأله: إذا حاصرتم المدينة كيف تصنعون؟ قال: نبعث الرجل إلىٰ المدينة، ونضع له هنة من جلود، قال: أرأيت إن رمي بحجر! قال: إذًا يقتل. قال: فلا تفعلوا، فالذي نفسي بيدي ما يسرّني أن تفتحوا مدينة فيها أربعة آلاف مقاتل بتضييع رجل مسلم) أهـ

فتأمل إلىٰ تعظيم الخليفة الفاروق لدماء رعيّته وأتباعه؛ وعدم تفريطه بها ولو لمصلحة فتح مدينة فيها أربعة آلاف مقاتل . . وقد رأينا من يزج بإخوانه ويقتلهم في أعمال لا ضرورة لها بل ولا قيمة أو مصلحة حقيقية فيها للإسلام وأهله!

ولذلك كان الفقهاء حين يذكرون مسألة التترس في أبواب المصلحة المرسلة يتحرّزون لدماء المسلمين ويُشدّدون في ذلك ويشترطون؛ ولا يفتحون الباب علىٰ مصراعيه كما يفعل من لا تهمّه دماء المجاهدين؛

فيقولون: (لو تترس الكفار بجماعة من المسلمين بحيث لو كففنا عنهم لغلب الكفار علىٰ دار الإسلام واستأصلوا شافة المسلمين وقتلوا الترس، ولو رمينا الترس وقتلناهم اندفعت المفسدة عن كافة المسلمين قطعًا، غير أنه يلزم منه قتل مسلم لا جريمة له).

فهذه المصلحة وإن كانت ضرورية كلية قطعية، لكن لعدم ظهور إقرار لها من الشارع باعتبارها، حصل فيها خلاف مشهور بين العلماء الربانيين فطائفة منعت ذلك لأن فيها قتل نفس، ولا يحل فداء النفس المعصومة بنفس مثلها، وطائفة جوزت ذلك لحفظ النفوس الأكثر ولكن بشروط أهملها كثير من المعاصرين منها:

- أن يكون في ترك الترس تعطيل للجهاد.

كما نقل ابن قدامة في «المغني» [٨/ ٤٥٠] عن القاضي والشافعي قولهم: (يجوز رميهم إذا كانت الحرب قائمة، لأن تركه يقضي إلىٰ تعطيل الجهاد) أهـ.

- ومنها أن لا يمكن التوصل إلىٰ الكفار إلا بقتل الترس.

وأن يترتب علىٰ ترك الترس استئصال شأفة المسلمين واستباحة حرماتهم واحتلال البلد، ومن ثم قتل الترس أيضًا.

فبالله عليك أيها المنصف؛ هل مثل هذا ينطبق علىٰ واقع العمليات المذكورة اليوم؟! هل لا يمكن قتال الكفار إلا بطريقة العمليات التي تقوم علىٰ تفجير نفسٍ معصومة؟! ألا يمكن ذلك بغير هذه الطريقة؟ وهل في ترك هذه الطريق بالذات استئصال لشأفة المسلمين وتعطيل للجهاد؟ بحيث لا يمكن قتال الكفار والتنكيل بهم إلا عن طريق قتل النفس المعصومة؟

إذا كان الحال كذلك؛ فلسنا ممن ينكرها - أي إن كانت المصلحة المرجوة من وراء هذه العمليات أو المفسدة المراد دفعها ضرورية كلية قطعية لا يمكن التوصل إليها إلا بهذه الطريق - فهذا لا ننكره، وللقائل به سلف من أهل العلم، وقد تقرّر عند العلماء أنه إذا ما تزاحمت مفسدتان احتملت أدناهما في سبيل دفع أعظمهما.)

ثم في آخر جوابي لخّصت فتواي بنقاط منها قولي:

(ندعو المجاهدين إلىٰ استغلال وسائل العلم الحديث في قتال أعداء الله، من باب قوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وذلك لإحداث أعظم نكاية بهم، مع أقل الخسائر في صفوف الموحّدين، خصوصًا تلك الخسائر التي تكون بأيدي المجاهدين أنفسهم). أهـ

كان هذا ما كتبته قبل سنين! جمعته من مظانه واختصرته؛ وقد رأىٰ السائل كيف أنّي احتطت فيه وتحرّزت وتشدّدت في شروط هذه العمليات منذ أن أجزتها؛ كتشدد علمائنا في نظائرها، وأني لم أفتح الباب علىٰ مصراعيه أو أساوي بينها وبين سائر الأعمال القتالية، كما فعل من لا يُعظِّم دماء المجاهدين، ولا يعلم كم هو عزيز ذلك الأخ المجاهد الموحّد الذي وصل إلىٰ مرحلة يتشوّق فيها لكي يفدي دينه بنفسه، فينبغي أن نكون وتكون قيادته أحرص الناس عليه، ولا تفرط به بسهوله، أو تزجه ليفجر نفسه في أيّ عمل غير ضروري، يمكن أن ينجز بغير هذه الوسيلة الإستثنائية.

واليوم يتأكّد هذا التشديد والتحرّز مع تجدّد الوسائل القتالية بأيدي المجاهدين، كما ذكر السائل ذلك بقوله؛ (في هذه الأوقات تمكّن المجاهدون من تطوير بعض الأسلحة الصاروخية التي تحمل رؤوسا ذات أوزان كبيرة قد تصل إلي الطن تقريبا . . . وهي بذلك تفعل فعل العمليات

المفخخة التي يقودها شاب . . . ومع وجود السيارات والطائرات المسيّرة التي تُقاد أو توجه عن بعد!) أهـ

فلا شك أن هذا الواقع الذي بيّنه السائل يؤثر علىٰ حكم العمليات الاستشهادية، فهي وسيلة إستثنائية تُفعل من باب الضرورة، فإن أغنت عنها هذه الوسائل التي جدّت عند المجاهدين بحيث لم يبق ضرورة لتلك العمليات التي يَقتل فيها المجاهد أعداءه بقتل نفسه، واستغني عنها بما جدّ من وسائل؛ فإنّ قتل النفس في هذه الحالة يعود إلىٰ أصله وهو التحريم؛ وإن كان لم يستغن عنها كليا، بقي جوازها جزئيا في مواضعه التي لا يُستغنىٰ عنها، وهذا يُقَدِّره المجاهدون وعلماؤهم الربّانيون الورعون الذين يُعظّمون دماء المسلمين، ويُعظّمون حُرمة وقيمة خواص المجاهدين.

ولذلك فلا يُسأل عن مثل هذه المسائل من كان حُطَمَةً لا يهتم بدماء إخوانه ولا يأبه لها؛ فإنّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ شَرَّ الرِّعاءِ الْحُطَمَةُ» وهو المسؤول أو الأمير الذي لا يكترث برعيته ولا يكترث بدمائهم وحياتهم ومماتهم، ولا ينصح لهم، ولا يهمّه توجيههم إلىٰ الأحسن والأقوم والأكمل كما وجّهنا الله تعالىٰ في القرآن فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾

وقال سبحانه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

والله تعالىٰ أعلم وأحكم. .

الوقفة الثالثة

أعط القوس باريها

تقدم في الوقفة الثانية أنّ من معاني قوله تعالىٰ في آثار قتل المسلمين بغير علم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي تحصل مفسدة تحدث المشركين أن المسلمين يقتلون أهل دينهم، وتُعيرون بذلك، وصحّ في أحاديث عن النبي ﷺ لما دعاه بعض أصحابه إلىٰ قتل بعض المنافقين الذين لم تقم البينات الكاملة والظاهرة علىٰ أقاويلهم وطعنهم أنه أبىٰ ذلك وقال: «دعهم، يتحدث الناس محمدٌ يقتل أصحابه» فهذه مفسدة راعىٰ الشارع التحرّز منها خصوصًا في مراحل ما قبل الإثخان والتمكين الكامل في الأَرض . . فيجب علىٰ المجاهدين مراعاتها باختيار الأهداف الأنقىٰ والأنفع للجهاد وللإسلام والمسلمين والأنكىٰ والأغيظ لأَعداء الدين، والأبعد عن خلط الأوراق وتشويه الجهاد وتشتيت دائرة الصراع، وإن المتأمل في بعض العمليات التي ينفذها بعض من قصّر في أحد الفقهين فقه الواقع وفقه الشرع أو فيهما معًا؛ ليرىٰ أنهم لا يراعون هذه المفسدة في اختيار الأَهداف أو توقيتها ولا يرفعون بذلك رأسًا فلا ينظرون في الواقع نظرةً فاحصة ولا يتابعون ما يدور حولهم في العالم ليكونوا علىٰ مستوىٰ تحدّيات العصر ومكايد الأعداء ويتعرفوا إلىٰ الأنفع لدينهم والأفيد لإسلامهم وجهادهم فيتخيروه . . .

فبينما الناس المسلمون وغيرهم يتابعون أخبار القاعدة والطالبان وهم يتصدّون لأعداء الإسلام من الصليبيين والعلمانيين والملاحدة ويشدّ أنظارهم

صمود المجاهدين الشيشان وتحطيمهم لكبرياء الترسانة الروسية واستهتارهم بجبروتها بنقلهم للمعركة من أقاصي الشيشان إلىٰ قلب موسكو، ويثير إِعجابهم تحدي الأطفال والشبان في فلسطين للدبابات اليهودية وأسلحتهم المدججة ويشاهدون بأم أعينهم كيف يفر اليهودي ببندقيته موليًا الأدبار مخافة حصيات يقذفه بها غلام صغير..

يخرج علينا بعض الناس ممن أظنهم يحبسون عقولهم في قواقع ولا يعايشون هذا الواقع ليطلقوا النار علىٰ المصلين في بعض مساجد السودان وآخرون يفجرون مسجدًا للشيعة في قرية من قرىٰ الباكستان وبعضهم مغرم بتفجير الحافلات المكتظة بعوام المسلمين من رجال ونساء وولدان في شوارع كراتشي ولاهور. وبينما يتطلع المسلمون إلىٰ معالي الأمور وعظائمها ويسعىٰ ذوي الهمة العالية من مجاهديهم إلىٰ جهاد يمكّن لأهل الإسلام في هذا الزمان ... أو إلىٰ أهداف تكسر عظم أعدائهم المحاربين وترغم أنوفهم باستهداف مدمرات نووية أو مراكز استخباراتية وأعمدة السياسة أو أركان الحكم والاقتصاد في عقر ديار المشركين يخرج علينا بعض المتحمسين من الشباب بالإغارة علىٰ كنائس أو قتل سياح عجائز أو مندوبي هيئات إغاثة ونحو ذلك من سفاسف الأهداف التي لا يراعون فيها مصلحة الدعوة والجهاد والإسلام ولا يتخيّرون الأنكىٰ في كسر شوكة أعداء الله، وإنما كان اختيارها فقط لكونها أهدافًا سهلة المنال، ويقوم آخرون بتفجير صالات للسينما أو يخططون لتفجير منتزهات أو نوادٍ للرياضة ونحوها من الأماكن التي يقصدها فسّاق المسلمين فيحصدون بذلك عشرات منهم أو مئات ويُعاقبونهم بالقتل وليس ذلك بعقوبةٍ شرعية لمثل ذلك ... فيجمعون بين مخالفة الشرع والتخبط في الواقع .. ويستَعْدون بذلك عوام الناس الذين جمهورهم يتعاطف مع جهاد المسلمين في كل مكان، فيخلطون

الأوراق ويشتتون دائرة الصراع . . . فبدلًا من التركيز علىٰ حرب الطواغيت وأعداء الدين في كل مكان تنقلب الحرب والحراب إلىٰ جماهير الشعوب التي كان ينبغي أن توجّه إليهم الدعوة ويُسعىٰ لإنقاذهم من براثن الطاغوت وإخراجهم من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد . . . .

وبينما يتابع الناس أخبار المقاومة في العراق وكيف تحصد كل يوم من تحصده من الأمريكان وكيف تبث روح القتال والمقاومة في الجماهير المسلمة وتتسبب بالإحراج لبوش وإِدارته وتحبط مخططاته وتطلعاته . .

يفاجئنا البعض بعمليات عجيبة تحصد عشرات العراقيين هنا أو هناك بسيارات مفخخة توقف في شوارع بغداد أو بقذائف الهاون ترمىٰ في الأسواق وبين التجمعات الكثيفة من الناس لتحصد عشرات العراقيين من المارة لا تفرق بين امرأة أو طفل أو مسن . .

ويُجمع العقلاء بعد ذلك علىٰ أَنهم بأعمالهم العشوائية هذه المتخبطة بين الجهل بالشرع والجهل بالواقع ينقذون الرئيس الصليبي بوش من ورطته التي ما فتئت تعيّره بها وسائل الإعلام العالمية كل يوم، فتتحول من الحديث عن القتلىٰ البريطانيين والأمريكان الذين تحصدهم المقاومة كل يوم؛ إلىٰ الحديث عن القتلىٰ العراقيين علىٰ أيدي من تصفهم بالإرهابيين، وينقلب جنود الإحتلال الأمريكي من جنود احتلال وغزاة إلىٰ حُماة للشعب العراقي من الإرهابيين . . !!

ويُستعدىٰ الشعب العراقي فبدلًا من تعاطفه مع المجاهدين والمقاومين فتراهم يلعنونهم ويسبّونهم ويسعون لتسليمهم إلىٰ الأمريكان . . . وهذا من أكبر خسائر المجاهدين؛ أن يخسروا الناس الذين ما قاموا إلا لإنقاذهم من الظلم ولا جاهدوا إلا لإخراجهم من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد . .

يا قومنا إن الفقه بالشرع والفقه بالواقع ومعرفة مكائد الأعداء والتبصّر بمكرهم يعين المجاهد علىٰ اختيار الهدف المناسب في المكان المناسب والتوقيت المناسب . . .

وإذا أهمل المجاهد هذا؛ أصابته المعرّة في جهاده وحصد المفاسد بدلًا من المصالح، والفشل بدلًا من الفلاح وربما استثمر عمله واستفاد منه أعداء الدين. .

فكم من العمليات لسوء اختيارها وتوقيتها في ظرف من الظروف يُفيد منها طواغيت أو صناديد للكفر فتخرجهم من ورطات وتنتشلهم من إحراجات وتمنحهم التبريرات والمسوغات لمزيد من القمع والبطش والاستبداد دون أن تقدّم أدنىٰ فائدة أو مصلحة للدين . . .

بل إن بعض تلك الأعمال الساذجة قد تعين في نجاح انتخابي لطاغوت كان علىٰ وشك السقوط . . أو تلفت الأنظار عن بعض فضائحه وتخرجه من أزمة أو نكسةٍ كان متورطًا فيها وربما حصد بعض ضباط المخابرات وجلاوزتهم ببركات أعمال سطحية متخبطة أو فاشلة كهذه؛ الرتب والمكافآت والصلاحيّات كما قد شاهدنا وسمعنا؛ فيتسلقون إلىٰ أمجادهم الطاغوتية علىٰ ظهور هؤلاء الشباب، وفي المقابل يحصد المسلمون منها خسائر فادحة من أرواح وأعمار شبابهم من غير عائدة ولا فائدة ويجنون حزنًا وإِحباطًا علىٰ إحباط بتكرار التخبّط واجترار الفشل والأخطاء نفسها. .

ولذلك عُرفت عنّي عبارة أكررها علىٰ مسامع كثير من المتحمسين:

(إما أن تشتغلوا صَحْ، أو فلا تشتغلوا والزموا الدعوة فكفانا فقد شبعنا تخبيصًا)!!

يا باريَ القوسِ بريًا لست تحسنُهُ　　　لا تفسدنها وأعطِ القوس باريها

فهل يتنبه المجاهدون لمثل هذا . . . .

وهل يتبصّرون بشرع ربهم وبواقع أمتهم ليكونوا بالمستوىٰ الذي يليق بالجهاد الإِسلامي العظيم ويحقق آمال المسلمين. .

قد هيّئوك لأَمرٍ لو فطنت له　　　فاربأ بنفسك أن ترعىٰ مع الهمل

الوقفة الرابعة

ويقللكم في أعينهم

العاقل من يكمن في ضعفه ويتصبّر حال قلّة عدده وعدّته، ويتتبع عورات عدوّه من غير أن يشعره، ويمكر به دون أن ينبّهه ليأمن مكره ويتقي كيده ويتحيّن غَرَّته، فإن التهويش والتهديد قبل الأوان يُنبّه العدو لِيُعِدّ عدته، وصاحبه كمستعرضٍ الهواء بنبله قبل موعد الرّمي، أو كمنبّه الطريدة قبل رميه لها . . .

ومن بالغ في التهديد وأكثر من الوعيد استخف به عدوّه فإن التهديد والوعيد لا يجرح نفسًا ولا ينكأ عدوًا، والإكثار منه يُسقِط المهابة ويفرغ المصداقية، ومن أراد أن يكون داهية فلا يُعرِّفَنَّ العدو بدهائه فإن من عُرِف بالدهاء حذره عدوه، حتىٰ يمتنع منه الضعيف فضلًا عن القوي . . .

حربُ المستضعفين دومًا لا تعتمد علىٰ كثرةِ العَدَد ولا العُدَد، بل تستغل نقاط ضعفِ العدو ومكامن غفلته وغِرّته وتختار الضربات القاصمة في الأَوقات الحاسمة، ولكن بعض من لا يفقه هذه الحقائق يُحِبُّ أن يُعطي نفسه حجمًا أكبر من حجمها الحقيقية، فيترتب علىٰ ذلك أن يحسب له العدو ألف حساب ولا يكتفي بمتابعته ورصده بأجهزته الأمنية المحلية، بل ويستنصر عليه ويستعين بأوليائه في أنحاء الأرض ليكبح إرهابه الذي يصيّرونه إرهابًا عالميًا بل كونيًا!!

والعاقل لا يفرح بهذا التضخيم المتعمّد من قبل الأعداء إذ من السذاجة فرح المرء بمبرّرات قمعه، ومن السَّفه إعانة الأعداء علىٰ تكريس أكاذيبهم التي تُعظّم خطره ليألّبوا العالم عليه وليتآزروا علىٰ استئصال خطره، وقد يُصاب بلوثةٍ من الغرور فينسىٰ حجمه الحقيقي ويُصدّق تضخيم أعدائه له فيمسي يتصرف وكأنه فعلًا كما يصفه أعداؤه ويبدأ بإِطلاق التصريحات النارية والتهديدات العريضة بالويل والثبور وعظائم الأمور وكأنه القعقاع بن عمرو أو قتيبة بن مسلم أَول جيشه في الشام وآخره يشق سور الصين العظيم، والأمر ماسترون لا ماتسمعون، فيغرر بذلك بأتباعه ويغدون يتصرفون وكأن أَزِمّة العالم أصبحت بأيديهم..

وينكشف الغبار بعد ذلك عن فقاعات كفقاعات الصابون التي ينفخها الغلمان فتكبر وتكبر ثم تطير وترتفع ثم لاتلبث أن تتلاشىٰ فجأة .. وتكون النتائج وخيمة والصدمات عنيفة .. يدفع ثمنها الشباب من أعمارهم وأرواحهم بغير ثمرة ولا طائل..

ولو فقه المرء سيرة المصطفىٰ في جهاده ودعوته لما أطلق التصريحات علىٰ عواهنها وَلَاسْتَعانَ علىٰ قضاء حوائجه بالكتمان ...

فإنّ من هيبة القائد ومصداقيته أن لا يتوعّد إلا ويديه ملئىٰ بما يتوعد به حتىٰ لايصبح وعيده كتلك الفقاعات..

ومن علامات نجاحه وفلاحه أن لا يعطي نفسه أكبر من حجمها، وإن كان جادًا في العمل صادقًا مع نفسه أخفىٰ ماعنده فيبدو وكأنه ليس علىٰ شيء حتىٰ إن عدوه ليهمله ويستصغره ولايعدّ له العدّة المناسبة..

وقد قيل «من استصغره عدوّه اغترّ به ومن اغترّ به عدوّه لم يسلم منه».

حتىٰ إذا ماأخذ عدوّه (أَخَذَهُ أَخْذَ سَبُعَة).

قال تعالىٰ في وصف الأمر قبل غزوة بدر: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: (٤٤)].

وكان هذا في ابتداء القتال، حتىٰ قال أبو جهل مستخفًا بالمؤمنين: (إنما هم أَكَلَةُ جزور[١] خذوهم أخذًا واربطوهم بالحبال) فلما التحم الصفّان وأخذوا في القتال واستأسد المؤمنون بثباتهم، عظموا في أعينهم وكثروا، كما قال تعالىٰ: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾.

اللهم فقّهنا في ديننا وبصّرنا بواقعنا واكبت عدونا.

---

(١) يعني هم قليل لايتعدىٰ عددهم عدد أكلة بعير واحد.

الوقفة الخامسة

﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

لا يليق بمن يواجه أعداء الدين ويسعىٰ لتقويض باطلهم أن يُهمل معرفة حكم الله فيهم قبل ذلك، فيكون أعمشًا في نظرته إِليهم يُحسن الظنّ بهم أو يظنهم داخل دائرة الدين . . .

أعرف شبابًا دفعهم الحماس إلىٰ السعي إلىٰ الجهاد واقتناء السلاح والتخطيط من أجل ذلك ثم لما تم اعتقالهم صُدِمتُ عندما عرفت أنهم تعاملوا مع من اعتقلولهم وكأنهم مسلمين؛ يصدّقون وعودهم ويتحرجون من الكذب عليهم أو مخادعتهم في التحقيقات . . . فصدَقوا في اعترافاتهم وأدلوا لهم بها بالتفصيل الممل ظنًا منهم أنهم بالمؤمنين رؤوفون رحيمون . . فكان أن نالوا بتلك الإعترافات أحكامًا جائرة ظالمة طويلة في السجن . . . فعدم معرفتهم بسبيل المجرمين وحكم الله فيهم؛ وعدم تبصّرهم بإخلاصهم لأوليائهم الكفار وبأنهم لايرقبون في مؤمن إلاًّ ولاذمة، وجهلهم بمكائدهم وغدرهم بالمجاهدين وأن الأصل فيهم وفي أخلاقهم الغدر والكذب والخيانة جعلهم يثقون بهم.

وأعرف أحد حفظة كتاب الله من ذوي الصبر والجلد أُوذي وضُرِبَ وعُذّب عذابًا شديدًا كي يعترف اعترافات سيحكم بسببها حكمًا طويلًا بالسجن، فثبت وأبىٰ أن يعترف رغم الأذىٰ والتعذيب الشديد الذي سُلّط عليه واعتراف الآخرين عليه؛ ثم إنهم لجؤوا معه إلىٰ الحيلة والغدر . . .

فقد كان الأخُ قبل اعتقاله إِمامًا لأَحد المساجد فحوّلوه إلىٰ محقق كان يصلي خلفه في مسجده فعرّفه بنفسه وذكّره بصلاته معه في المسجد وأقسم له الأيمان المغلّظة لَيُساعدنّه إن اعترف له؛ وأن لا يحيله إلىٰ المحكمة فاعترف الأخ لذلك المحقق بناءً علىٰ وعوده له دون أن يمسّه بضربة واحدة بعد أن كان ثبت ولم يعترف تحت عذابٍ قلّ من يتحمّله، فنالوا منه بالحيلة والمكر والوعود والأَيْمان الكاذبة مالم ينالوه منه بالأذىٰ والتعذيب . . فكان جزاء ثقته بهم وتصديقه لوعودهم وعهودهم أن حُكِمَ بالسجن المؤبد.

طبعًا هذا الأخ لم يكن قبل ذلك يكفر هؤلاء المجرمين وربّما لأَنه لم يكن مستبينًا لسبيل المجرمين كانت صلاة ذلك المحقّق تعني عنده الشيء الكثير.

وهذا خطأ عظيم كلّفه إلىٰ اليوم عشر سنين فكّ الله أَسره.

وأعرف شابًا وجد قنبلة في غابة فأخذها إلىٰ بيته ثم وفي لحظة غباء قاتلة قرّر أن يصير مواطنًا صالحًا -كما يقولون!!- فذهب إلىٰ مركز الشرطة الذين يُحسن الظن بهم بالطبع ولايكفّرهم وذكر لهم أنه عثر علىٰ قنبلة في غابة وهي في بيته ويودّ منهم أن يحضروا ليسلمها لهم.

فطلبوا منه أن ينتظرهم في بيته وأنهم سيحضرون لتسلّمها بعد ساعة؛ وبالفعل حضروا بعد أقل من ساعة!! ولكن بأعداد غفيرة من رجال الشرطة والقوات الخاصة والمخابرات والسيارات المسلحة وخبراء المتفجرات وحاصروا البيت وداهموه وفتشوه واعتقلوه مع قنبلته.

وسجّلوا بحقه قضية حيازة قنابل ومتفجرات بصورة غير مشروعة ولم يذكروا في حيثيات القضية أنه هو الذي أبلغهم عن القنبلة وطلب حضورهم لتسلّمها، بل ذكروا أن رجال المخابرات والشرطة اكتشفوا بحنكتهم

وخبرتهم وتتبعهم، حيازته للقنبلة وحموا المجتمع من خطر وشيك، فحكم بناءً علىٰ ذلك بالسجن سبع سنين.

وأعرف آخر كان يعيش في الجزيرة حيث مشايخ السُّلطان ينهون دومًا عن تعلم أحكام التكفير وينفّرون عنها ويحذرون منها؛ ويعدّون تكفير الحكومات وأنصارهم غلوًا في الدين ومن طرائق التكفيريين وعقائد الخوارج؛ فلم يُجهد نفسه في التحقق من كلام هؤلاء الملاعين أو في التعرّف علىٰ حكم الحكام وعساكرهم في دين الله؛ فكيف إذا رأىٰ بعضهم يصلّون؟؟ أو رأىٰ -وياللهول- علىٰ جبين بعضهم علامة السجود؟؟

دفع الحماس صاحبنا للتفكير بالجهاد في سبيل الله بقتال اليهود في فلسطين فنجح بتهريب بندقيته الآلية إلىٰ أن تسلّل بأعجوبة عبر النهر دون أن يتنبّه إليه أو يشعر به الجنود الأردنيون الحرس علىٰ حدود اليهود -طبعًا هو لايعرف أنهم حرس وعيون ساهرة علىٰ اليهود- وإلا لما كان ركن إليهم أو وثق بهم لذلك وبعد أن عبر النهر وشعر بالعطش الشديد وتذكر أنه لم يحضر معه ماء عاد فرجع القهقرىٰ وذهب إلىٰ موقع حراسة لأحد أولئك الجنود ليطلب منه الماء ببلاهة وسذاجة .. واطمأن إلىٰ ذلك لمّا وصل إلىٰ موقع الجندي فوجده يصلي .. وبعد أن أَنهىٰ الجندي صلاته ورأىٰ صاحبنا والبندقية بيده سأله عن شأنه فما كان من سطحية صاحبنا إلّا أن ذكر له مقصده، وطلب منه الماء فأعطاه الجندي الماء ثم طلب منه أن يريه بندقيته - وهنا أتوقف وأقارن وأتذكر أبا بصير رضي الله عنه وفطانة المؤمن وكيف طلب بدهائه من آسريه أن يرياه سيفهما فقتل أحدهما وكان في ذلك نجاته - أما صاحبنا فأعطىٰ بسذاجته بندقيته للجندي المصلي ووثق به!! فكان في ذلك عطبه ... حيث بادر الجندي إلىٰ إطلاق النار من البندقية في الهواء بدعوىٰ تجريبها ... والحقيقة أنه أراد بذلك استدعاء وتنبيه قيادته فجاؤوا إلىٰ

موقعه يهرعون واعتقلوا الأخ الذي أحيل إلىٰ محكمة أمن الدولة وحكم بالسجن سبع سنين.

هذه الحكايات ياإخواني أقسم بالله أنها حقيقية موجودة في سجون بلادي وليست هي من نسج خيالي وأمثالها كثير. والمآسي التي نتجت عنها كان سببها في الغالب حسن الظنّ بأعداء الدين وعدم استبانة سبيل المجرمين، وعدم معرفة واقعهم الإجرامي ومكرهم بهذا الجهاد وكيدهم لأهله وموالاتهم لأعداء الدين.

فالغاية عندهم تبرر الوسيلة .. ولاحرج عندهم من سلوك أيّ طريق شريفة أم غير شريفة لإحباط جهاد المجاهدين وحفظ عروش الظالمين.

الأصل فيهم الكذب، وسبيلهم الغدر والخيانة..

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

ومن لم يع هذه الأُمور ويعرفها ويستبين سبيل المجرمين فلا حاجة للجهاد بسذاجته.

كما أنه لاحاجة لأهله بمزيد من الفشل والإحباط.

ومن يتّخذ الضرغام للصيد بازيًا تصيّده الضرغام فيمن تصيّدا

الوقفة السادسة

العشائرية ومنزلق الركون إليها

يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ أي: آواك إلىٰ جدك الكافر ومن بعده إلىٰ عمّك الكافر الذي كان يحوطك وينصرك ويمنعك ويكفّ عنك أذىٰ قومك.

وقال سبحانه عن أعداء نبيه شعيب أنهم قالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هُود: ٩١] وقد كان رهطه كفارًا . . .

وقال تعالىٰ في شأن نبي الله صالح ووليه الذي كان يدفع عنه: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النَّمل: ٤٩]

فلا حرج علىٰ الداعية أو المجاهد إذا ناصره قومه الكفار أو دافعت عنه قبيلته أو عشيرته بدافع الجاهلية والقبلية.

ولا حرج عليه أن يستفيد من تأييد قومه له بروابط العصبية وأواصر النسب ما دام هو لا يعقد الولاء والبراء أو المودّة علىٰ أساس هذه الروابط الجاهلية.

ومن جنس ذلك أن ينصره أويدفع عنه بعض الوطنيين أو الحقوقيين أو الديمقراطيين أو غيرهم ممن ينتهجون غير نهج الإسلام، ومثل ذلك لو نصره ودفع عنه أو خدمه بعض مندوبي المنظمات الدولية الكافرة سواء كانت صليبية أم غير ذلك ممن يسعون ولو ظاهرًا في تخفيف الظلم؛ فلاحرج عليه

في ذلك مادام هو يكفر ويبرأ من هذه المناهج المنحرفة والأديان الكفرية ولا يمدحها أو يوالي ويعادي عليها..

لكن الأمر الذي لا يحل له بحال ومقصودنا هاهنا التنبيه إليه والتحذير منه ... هو الركون إلىٰ القبيلة أو أمثالها مما تقدم والاعتماد علىٰ ثقلها والوثوق بها، فهذه الأواصر أو الهيئات لا حرج علىٰ المسلم إن سخّرها اللهُ له في وقت من الأوقات أوظرف من الظروف، واستفاد منها، أما أن يركن إليها أو يُؤمّل بها ابتداء ويعتمد عليها في جهاده فهذه منزلقات قاتلة عايَشْتُ أهلها .. وناصحتهم فقلّ فيهم المنتصحون.

بذلتُ لهم نصحي بمنعرج اللوىٰ فلم يستبينوا الرشد إلا في ضحىٰ الغد

فمنهم شباب يحركهم الحماس دون بصر بالشرع أو الواقع، عهدهم بالجاهلية قريب لم يتحرّروا بعد من عنجهيتها وفخرها بأواصر القبلية .. حتىٰ بلغ الأمر ببعضهم أن يعتبر الأخذ بأسباب السّرية والكتمان عيبًا أو جبنًا وعارًا.

وآخر يدفعه اتكاؤه علىٰ الواقع القبلي الذي يعايشه أن يُجاهر بحمله لسلاحه الآلي بل وقنابله يتجول بها بسيارته هنا وهناك يُريها لهذا ولذاك، ولا يأبه بالثرثرة لكل أحد عن أحلام يقظته وأمانيّه في قتال الأمريكان وتدمير قواعدهم في البلد، ومن ثم يتعجب أشد العجب عندما يواجهه أعداء الله في تحقيقاتهم بذلك كله؛ ويتساءل: كيف اطلعوا عليه؟! وكيف وصلهم؟! ويعزوا ذلك إلىٰ إمكاناتهم الرّهيبة!! ووسائلهم الحديثة وجواسيسهم المبثوثين .. وو..

ولايعزوه أبدًا إلىٰ تفريطه وغبائه وتخبّطه الذي يتناساه.

وكم كنت أذكّر أمثال هؤلاء وأعظهم بعدم الإِعتماد علىٰ ما عهدوه من قبل من غضّ الطواغيت طرفهم عن عشائرهم وحيازتها للسلاح وأنهم إنّما يفعلون ذلك معهم مادام ولاء العشيرة للدولة ظاهرًا، بل وفي بعض الدول يهدي الطواغيت السلاح المذهّب والمزيّن لمشايخ العشائر ورؤوس القبائل، وماذلك كلّه إلا لمعرفتهم أن هذا السلاح لن يستخدم إلا لنصرة الدولة وتثبيت عروش الطواغيت مادامت القبيلة أو العشيرة منهم وولاؤها لهم.

أما إذا ما غيّر ابن القبيلة ولاءه فصار ولاؤه للإسلام وأهله فقط، وصار من أنصار الدين وأظهر عداءه للطاغوت وتبرّأ من أوليائه أو سعىٰ لجهاد أسياد الطاغوت الغربيين أو الشرقيين فعندها ستختلف الموازين وستنقلب الأمور وسيكشّر الطاغوت ساعتها عن أنيابه لابن القبيلة بل ولقبيلته كلها إن فكّرت بإِيوائه وحمايته .. كيف لا وكثير من هؤلاء الطواغيت قد تنكّر وانقلب علىٰ أقرب الناس إليه عند الحقائق فمنهم من أقصىٰ أباه أو غدر بأخيه ونحىٰ أقرب الناس إليه في سبيل مصالحه أو مصلحة نظامه أو لأجل مصالح أسياده؛ فهل يعقل أن تقف عشيرة أو قبيلة عقبة عنده أو عائقًا دون ذلك.

والحقيقة أن هذا أمرٌ ظاهرٌ معروف، وهو بيّن أيضًا في سيرة المصطفىٰ ﷺ فقد تنكّرت قريشٌ له مع أنه كان من أفضلها عشيرة وأشرفها أبًا لمّا أظهر براءته من دينهم وأبدىٰ عداوته لآلهتهم وسفّهها، فلم يأبهوا بعشيرته بل تألّبوا عليها وحاصروا بني هاشم في الشِّعب وقاطعوهم وآذوهم..

وهكذا فإن الطواغيت في كل زمان يعتمدون علىٰ القبائل في تثبيت عروشهم، ويغضّون الطرف عن كثير من تجاوزاتها ومخالفاتها مادامت موالية لهم تقف في صفّهم وتنحاز إلىٰ عدوتهم.

أماحين تفكر بنصرة بعض أبنائها الذين يقفون في العدوة المواجهة للطاغوت -وهذا نادر في زماننا- فإن الطاغوت عندئذٍ لا يأبه بها بل سيدكها ويستبيح حرماتها كأن لم تكن مدلّلة عنده بالأمس، وقد عايش الناس ذلك في بلادنا ورأوا كيف دُكت قرىٰ ومدن بأكملها، وكيف أمست ساحة معركة اقتحمتها المدرعات ودكتها الطائرات عندما حاولت أن تأوي بعض أبنائها ورفضت تسليمهم للدولة، وكنت أسمع أعداء الله يسبّون أولئك الشباب وعشائرهم بأقذع الألفاظ وأحط السباب ويقولون: عندنا خطوط حمراء إذا تجووزت فلا نسأل لا بعشيرة ولا بغيرها. .

ولا أشك أن من أهم هذه الخطوط الحمراء وقبل المسّ بعروشهم؛ محاولة المس بأمن أسيادهم الأمريكان. .

ولا تتعجب بعد ذلك وبعد أن تُدك مدن بأكملها؛ أن تخرج عشائرها معلنةً ولاءها للنظام وانحيازها لسياساته ببراءتها من الخارجين عليه المخالفين لقوانينه ولو كانوا من أعز أبنائها، فإنه زمن الخنوع والإنكسار. .

أفلمْ يأن لإخواننا أن يعوا هذا الدرس . . وأن ينزعوا علىٰ عتبة الإسلام عنجهية الجاهلية وركونها إلىٰ العشائرية أو حُسن ظنها بالقبلية.

ويتبصّروا بحقيقة هذه الطريق وطبيعة هذه الدَّعوة؛ وأنها فرقٌ بين الناس . . وفرقان بين الحق والباطل، لها تصوراتها الخاصة ووشائجها النقية.

ولا تصلح وشائج الجاهلية ولا تصمد أمام تكاليفها وتبعاتها.

فلا يحلّ للعاقل أن يعتمد عليها أو يتكىء علىٰ ثقلها أو يركن إليها.

الوقفة السابعة

والله ما هَزُلَتْ فيستامها المُفْلِسون

هذه الدّعوة دعوة عظيمة، وهذا الجهاد سلعة غالية نفيسة لايُوَفّقُ لحملها إلا من أخذها بحقّها فَتَبَصَّرَ بحقيقتها وعرف تكاليفها وأحاط بشرعها وواقعها علمًا

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾

فقد نبّهنا كلّ عاقل في بيان مِلّةِ إبراهيم أن هذه الطريق ليست مفروشةً بالورود والرياحين أو محفوفةً بالرّاحةِ والدَّعة بل هي محفوفة بالمكاره والأذىٰ والإبتلاءات، مزروعة بالدماء والسجون والمعتقلات، وفيها مفارقة الأحباب وقطع الرّقاب ولذلك لايقوم بتكاليفها حق القيام إلاّ الليوث والصقور، لا الدراويش أو بُغاث الطيور.

لكنّ بعض من لم يفقه ذلك ولا رفع به رأسًا ولم يتبصّر بكيد أعداء الدين وبضراوة حنقِهم من هذه الدَّعوة وحقدهم علىٰ هذا الجهاد ومكرهم بأهله، ربما تزيّىٰ بها وانتسب إليها دون أن يكون كفؤًا لها فيظن الغر أنها نزهة يتنزّهها أو أنها لعبة يتسلىٰ بها.

فيقتحم غمارها ويعبر إلىٰ ميدانها دون أن يتبصّر بها أو بأركانها ودون أن يعرف حقيقتها وحقيقة تكاليفها . . ودون أن يستبين سبيل أعدائها.

ثم تكون الصدمة عنيفة عليه قاصمةً لظهره وقد تكون قاضية إذا مابتلي ببعض تكاليفها فتكون الإنتكاسة ويرتد علىٰ عقبيه . . كم شاهدت من مآسٍ

في السجون خصوصًا في بعض تلك القضايا التي يُضخّمها أعداء الله ويظهرونها علىٰ أَنها قضايا إِرهابية خطيرة ويكون أفرادها في كثير من الأحيان شبابًا صغارًا أو أغرارًا لا يشكلون خطرًا حقيقيًا علىٰ الطواغيت أو علىٰ أسيادهم الأمريكان، ويعرف العدو ذلك ولكنه مع ذلك يأبىٰ إلا أن يضخمهم ويُكبّرهم ويُعظّمهم ليتسلق علىٰ ظهورهم ويقبض ثمن إحباطه لمؤامراتهم الفظيعة المزعومة وإفشاله لمخططاتهم الرهيبة التي أكثرها من أحلام اليقظة ونسج الخيال، ولِيَئِد مثل هذه الأحلام في مهدها مخافة أن تتسع مدارك أصحابها ويتطوروا فيطوروها إلىٰ حقائق.

حتىٰ بلغ الأمر أن اعتقلوا شابًا متخلفًا عقليًا وضبطوا معه لعبة أطفال علىٰ هيئة مسدس وَصَرَّح لهم ذلك الشاب بتفكيره وحلمه بقتال اليهود فاعتقلوه فورًا ووجّهوا له تهمة المؤامرة الإِرهابية وحُوِّل إِلىٰ مدعي عام محكمة أمن الدولة الذي أوقفه في السجن عدّة شهور ولم يصرِّح كفالته إلا بشق الأنفس مع شهادة القاصي والداني بتخلفه العقلي.

هذا الشاب كان سبب اعتقاله أنه سأل جنديًا عن الطريق المؤدية إلىٰ فلسطين فلما استفسر منه الجندي عن سبب سؤاله صرّح له مباشرة بحلمه الذي يحلم به فما كان من الجندي إلا أن اعتقله وسلمه لأسياده، وتحت الضرب والتحقيق كي يعترف عن السلاح الذي كان سيقاتل به اليهود دلهم علىٰ مسدس لعبة كان يخفيه في بيته يريد أن يجاهد به اليهود.

هذا الشاب لا لوم عليه فهو ممن رفع عنهم القلم.

لكن اللوم يتوجه إلىٰ بعض المتخلفين ممن رزقهم الله نعمة العقل لكنهم لم يتعلموا ولم يتربوا ولم يتأهلوا شرعيًا ولا نفسيًا لتكاليف هذه الدعوة الغالية ولم يحيطوا علمًا بخبث أعدائها ولم يتبصّروا بسبيلهم وأساليبهم الخبيثة في المكر والكيد للدعاة والمجاهدين، دافعهم الحماس

الأجوف وحده، لم يجدوا من يوجههم إلىٰ تعلم دينهم وعقيدتهم وتوحيدهم . . فهم لا يكلفون أنفسهم الجلوس في حلق العلم أو العكوف علىٰ كتبه إذ ليس من أولوياتهم طلب العلم الشرعي أو التبصر بواقع المسلمين ولم يستفيدوا من خبرات أو تجارب غيرهم ممن سبقوهم في هذه الطريق ويصرّون علىٰ اجترار الأخطاء نفسها التي وقع بها أقرانهم مع أن السعيد من وُعِظَ بغيره.

بعضهم يجلس في الشوارع ساعات طوال يُضيع وقته بالدردشة واللهو واللعب بل والتدخين . . فإذا سقط في أيديهم مسدس بدؤوا يفكّرون بأي عمل يقومون به أيًا كان ذلك العمل . . وربما بسبب الفراغ الإِجتماعي وقلة ذات اليد والفراغ الفكري أيضًا والفراغ من الهمة العالية . . ربما قادهم تفكيرهم إلىٰ السطو علىٰ بيت امرأة عجوز بدعوىٰ أنها بغي أو بدعوىٰ أنها مشبوهة، أو الإغارة علىٰ دكان وسلب مال صاحبه بحجة أنه يتعاطىٰ الخمور أو يبيعها، ولا تقلق علىٰ الدوافع والبواعث فسيجعلها صاحبنا إِسلامية نقية فالمال ليس لدخّانه ولا حتىٰ لطعامه وشرابه كلا وحاشا؛ بل هو لتمويل جهاده الذي يتراءىٰ له في أحلام اليقظة . . وذلك السطو وهذه الإِغارة ليست سرقة ولاغصبًا، بل هي جهاد وإِعداد في سبيل الله!!

الحزم واجب علىٰ صاحب الدعوة ولابد منه مع هذه الفئام من الناس، والوضوح معهم منذ أول الطريق ضرورةً لا يَسْتَهْتِر بها من يحترم وقته وعمره ودعوته، وإذا لم يكن صاحب هذه الدعوة الغالية وجهادها المبارك حازمًا معهم جرجروه وأشغلوه وأضاعوا جهده ووقته، ولوثوه ولوثوا دعوته وجهاده بقضاياهم العجيبة الغريبة التي سيحاكمون عليها في خاتمة المطاف وستجد في لوائح اتهاماتهم غالبًا تناقضًا صارخًا، وأشياء تحزن المؤمنين وتفرح أعداء هذه الدعوة وتقر أعين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة

في الذين آمنوا، وتعينهم علىٰ تشويه الدعوة والطعن فيها، وتجعل لهم سبيلًا وأي سبيلٍ علىٰ المؤمنين، ويتعجّب المتابعون لمثل هذه القضايا، فهم يرون المتهمين فيها ملتحين ويُجاء بهم إلىٰ المحاكم وهم يكبرون ويهللون ويهتفون بهتافات إسلامية . . ويرىٰ التهم الموجهة إليهم متناقضة لا يجمع بينها جامع فتجد فيها المؤامرة الإرهابية والتنظيم المسلح ومضافًا إليها السَّرِقة أو السطو أو السلب وخيانة الأمانة!! وأنا هنا لا أُحسن الظن بقوانين أعداء الله التي عادةً تُسمي الأَشياء بغير مسمّياتها . . كما لا أبرئ أعداء الله من تلفيق التهم والكذب والإفتراء؛ فالأصل فيهم كما قدمنا الكذب والخيانة وهم لا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذمّة وأكثرهم من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا . . ولكن في الوقت نفسه وحتىٰ أكون صادقًا مع نفسي ومع إخواني في النصح والإصلاح والتغيير لا أبرّئ بعض هؤلاء الشباب، فأنا لا أتكلم من فراغ أو من خيال بل أتكلم من واقع سجوني عايشته وقد رأيت وسمعت وعايشت من قد جعلوا بتخبّطهم للكافرين عليهم سبيلًا وأي سبيل؛ وذلك بتورّطهم بتهم وأعمال تنمّ عن جهلٍ في شرع الله وغفلةٍ أي غفلةٍ عن واقع المسلمين اليوم . . . جهل في الشرع يدفعهم إلىٰ التورّط بأعمال مشبوهة واستحلالِ أموالٍ حقيقتها أنها معصومة حتىٰ ولو كان أصحابها فسّاقًا فجّارًا . . . وجهل في الواقع يجعلهم يتخبّطون تارةً في اختيار أهداف عجيبة تجعلهم أضحوكة للناس وتجعل الدّعوة والجهاد هدفًا لسهام الطاعنين والمستهزئين، وتارةً أهداف تسوّغ لأعداء الدين مزيدًا من التسلّط علىٰ المسلمين دون أدنىٰ نكايةٍ في أعداء الله أو فائدة تعود علىٰ الإسلام وأهله.

ثم وبسبب ضعف التربية الإيمانية السابقة للبلاء أو عدمها، تجد أكثر هؤلاء يضعفون ويخنعون حين يقعون بأيدي أعداء الله فبعضهم يستجديهم ويظهر التوبة والندم ويخاطبهم بلفظة (سيدي) وبعضهم يلعن ويطعن في

إخوانه ويبرأ منهم، فأي جهاد هذا الذي لم يتهيأ أصحابه لتكاليفه ولم يتبصّروا بحجم تحدياته، فصاروا ألعوبة بأيدي أعداء الدين، فمنهم من انتكس أو حاد عن الطريق ومنهم من استعمله أعداء الله بعد ذلك عينًا علىٰ إخوانه، وقليل منهم المتعظون المعتبرون الذين ثبتوا وما بدلوا تبديلا.

أولم يأن لهؤلاء أن يرتقوا إلىٰ مستوىٰ هذا الجهاد العظيم ويكونوا أكفاءً لحمل هذه الدعوة الغالية .. ويكونوا علىٰ مستوىٰ كيد أعداء الله لأهل هذا الدين فهم لايتعاملون أبدًا حتىٰ مع غلمان المسلمين الذين قد يتورطون بشيء مما سلف ذكره أو غيره علىٰ أنهم فتيان أو غلمان أو يافعين، كلاّ بل يكيدون لهم ولكل منتسب لهذه الدَّعوة مهما تضاءل خَطره أو صغر سنه، ويحاربونهم ويتعاملون معهم علىٰ أنهم إرهابيون خطرون يستهدفون اقتلاع أنظمتهم الكافرة من جذورها، ودك عروشهم الفاسدة من أصولها وحرق أسيادهم واستئصالهم؛ فيشمرون لهم ويأتمرون بهم ويكيدون ويرصدون ويعدّون لهم ويتعاونون ويتآمرون

فمتىٰ نكون حقًا كما يحسب لنا أعداؤنا ويظنون؟

ومتىٰ نصير بالمستوىٰ الذي يعشعش الرُّعب في قلوبهم حقًا وفعلًا؛ بفطنتنا وإتقاننا وحذقنا .. لا تلبيسًا منهم وتدليسًا..؟؟

الوقفة الثامنة

السجن جَنّات ونار

السجن بلاء إما أن يُثمر أو يَكسر أو يُعكر ..

هذه المقولة نردّدها نحن خريجو السجون كما يحلو للبعض تسميتنا؛ وهي مقولة تكرّست من مشاهداتنا في السجون، ولذلك فهي تصف حقيقة السجن وآثاره المتباينة علىٰ من يدخلونه ويعيشون في أقبيته وبين قضبانه ويمكثون في زنازينه ويعايشون ساحات تعذيبه.

ومن لم يعايش ذلك ويعرفه عن قرب فقد يعجب أو يفاجأ بما يصدر عن كثير من رواد السجون من تقلبات أو تصريحات.

أما من عايشه وذاق ويلات بلائه وصنوف الأذىٰ وفنون التعذيب في ساحاته فربما تروّىٰ وتريّث قبل أن يطلق أحكامه علىٰ بعض أهله إن بدرت منهم بعض التصريحات العكرة أو حتىٰ المنكسرة، ويتريّث في متابعة فتاويهم المناقضة لمنهجهم والتي قد تصدر تحت الإكراه.

فالسجين قاصر الأهلية لمظنة تعرضه للضغط والإكراه؛ ولذلك لا يحل أن يحمل المسؤولية الكاملة عن أقواله حتىٰ يخرج من الأسر والقيد فيبين عن أقواله مختارًا دون أي ضغط أو إكراه؛ ويتأكد ذلك في مشايخ التيار الجهادي لضراوة عداوة الطواغيت لهم وشدة ضغطهم عليهم . . فبدهي أن شدة عداوتهم لمن جرّد سيفه في وجوههم أو حرّض علىٰ ذلك ليست كعداوتهم لغيره.

ولذلك نصحنا كل من زارنا وراجعنا بما صدر عن الشيخ الخضير والشيخ ناصر الفهد وأمثالهم من المشايخ بعدم الإغترار بما صدر عنهم من الفتاوىٰ أو التراجعات في الأسر أولا، والتريث ثانيا وعدم إطالة ألسنتهم في أعراض هؤلاء المشايخ، والدعاء لهم بأن ينجيهم الله من كيد الطواغيت والتريث إلىٰ أن يفك الله أسرهم . . .

ولذلك كففنا ألسنتنا عن قيادات الجماعة الإسلامية في مصر لما خرج عنهم ما خرج من تراجعات في السجون تحت مسمىٰ المراجعات ولازلنا إلىٰ اليوم نتحفظ في كلامنا علىٰ من لا زال منهم في الأسر ونحفظ لهم سابقة دعوتهم وجهادهم وبلائهم في الله، بخلاف من قد خرجوا أو كانوا بالخارج أصلًا فقد ساءنا إخلاد بعضهم إلىٰ الأرض وما نسب إليهم من انتكاسات كما ساءنا جدًا هجومهم علىٰ إخواننا المجاهدين في القاعدة ومبادرتهم بالتبري منهم، ودعوتهم إلىٰ التوبة مما يقومون به من عمليات جهادية؛ وكأنهم قد اقترفوا منكرًا من الفعل وزورًا؛ معتمدين في التشنيع عليهم بدعاوىٰ قتلهم للمسلمين واستهدافهم لمكة والمعتمرين؛ علىٰ المعلومات التي تعلنها الحكومات الكافرة ويروجها إعلامها الخبيث، مع أنهم أنفسهم قد جربوا كذب هذه الحكومات وإعلامها وقد اكتووا بناره من قبل!! وإلا فهل يصدق مسلم عاقل أن مجاهدي القاعدة وأمثالهم من المجاهدين يمكن أن يستهدفوا المسلمين سواء كانوا في الرياض أو جدة أو غيرها؛ فضلًا عن استهداف المعتمرين في مكة البلد الحرام؟! اللهم إلا إذا كانوا يعدُّون عملاء السي آي إيه والإف بي آي الذين قد طفحت بهم الجزيرة من المسلمين، أو أنهم يقصدون بالمعتمرين الطواغيت الذين يعتمرون لالتقاط صور يروجونها علىٰ شعوبهم وللتضييق علىٰ المسلمين في مناسكهم.

أعتذر للقارئ عن هذا الاسترسال، وأرجع إلىٰ ما كنا فيه.

- نعم السجن قد يثمر ثمرات عظيمة عندما يوفق صاحب الدعوة أو المجاهد في استغلاله في طاعة الله وعبادته وحفظ كتابه وطلب العلم ونشر الدعوة، والاستفادة من تجاربه وتجارب الآخرين ليخرج منه أصلب مراسًا وأشد تمسّكًا بدعوته وثباتًا علىٰ جهاده ومنهاجه.

- وقد يكسر بأن ينقلب المرء علىٰ عقبيه فيجعل فتنة الناس كعذاب الله فيبدّل ويغير ويتراجع ويُخلد إلىٰ الأرض بعد أن عرف الحق وأبصره وسار علىٰ الدرب وتبيّنه .. فيغدو يُلبس الحق بالباطل وينحاز إلىٰ عدوة أعداء الدين، وصور ذلك كثيرة ومتنوعة، نسأل الله العافية والسلامة وحسن الختام ...

- وقد يُعكّر .. والمعنىٰ أنه قد يحرف المرء عن الجادة بحسب طبيعة المرء، فإن كان إلىٰ الشدة أميل انحرف به القيد والكبت والتعذيب إلىٰ الغلو، ومن كيس هؤلاء خرج الفكر السجوني التكفيري الذي كفّر الخلائق بالعموم والمجتمعات بالجملة، وصار التكفير عندهم لا يتّبع الدليل بل عبارة عن ردود أفعال انتقامية وتشنجية لا تستثني أحدًا إلا من كان علىٰ طريقتهم واعتقد معتقداتهم بحذافيرها.

وإن كانت طبيعة السجين إلىٰ اللين أميل انحرف به إلىٰ التجهم والإرجاء العصري أو التفريط والمداهنة وتتبّع الرخص أو قل زلات العلماء وأخطائهم وتبنيها لا عن قناعة وتفهّم واستدلال؛ بل لمناسبتها لرغباته وتوجهاته التي مال إليها في ضيق السجن، وبنات أفكاره التي ارتضاها وانحرف إليها عقله المعيشي لشدة القيد؛ وحين توجد برامج المناصحة التي يرعاها الطواغيت وشيوخهم في السجون تجد هذا الصنف أسرع الناس إليها.

هذه كلها آفات عايشنا أهلها، ونجانا الله تعالىٰ بفضله ومنّه وكرمه وإحسانه وتوفيقه وتثبيته وحده؛ من أهل الإفراط وإفراطهم وأهل التفريط وتفريطهم.

أضف إلىٰ هذا أن فتنة السجن وأذىٰ أعداء الله فيه؛ تتفاوت تبعًا للبلاد المختلفة وضراوة التعذيب فيها، وتبعًا لمجاهرة صاحب الدعوة بدعوته وعقيدته الحقة، وتبعًا لمدىٰ قربه من التيار الجهادي الأشد عداوة للطواغيت، وأيضًا تبعًا للمراحل التي يمر بها المعتقل، فأول أيام الاعتقال حيث الحبس الانفرادي والتحقيق المتواصل وساحات التعذيب ومنع الاتصال مع العالم الخارجي، هذه الظروف أشد من ظروف السجين بعد استقرار أمره ونقله إلىٰ السجن العام، حيث يتيسر اتصاله بالناس . . .

ومعرفة تفاصيل هذا كله، وفي أي المراحل والظروف صدر ما صدر عن المعتقل يمكن من خلاله تقدير مصداقيته وقيمته . . وعلىٰ كل حال يبقىٰ السجن عموما مظنة للضغط والإكراه؛ فالسجين ما دام في القيد والأسر فهو عرضة لتقلب ظروفه ونقله وتحويله إلىٰ سجن آخر وتعرضه إلىٰ ضغوط مفاجئة، وغير ذلك من الأحوال التي يجب مراعاتها والنظر فيها عند تمحيص ما يصدر عن السجناء من فتاوىٰ وتصريحات . . ويتأكد ذلك إذا جاءت مناقضة لنهجهم وسيرتهم الأولىٰ.

أذكر هذا لمن لم يعايش السجون وفتنها ليعرف ويتبصر بحال ما يصدر عن السجين فلا يتعجل بالحكم عليه، أو يتضرر بتقلباته في السجن أو تراجعاته إذا كان شيخًا أو متبوعًا، وإن كان الأولىٰ فيمن كان كذلك أن يأخذ بالعزيمة ولو قُطّع ولو حرّق، وأن يختار القتل والأذىٰ والهوان في سبيل صيانة دينه وعدم التلبيس علىٰ الأمة ويتأكد ذلك في حق رموز التيار الجهادي في زماننا لأنهم أقل من القليل والناس تنظر إليهم في خضم

الملحمة الدائرة بين الإسلام والكفر ويسمعون ما يقولون، ولهم في ذلك قدوة وأسوة بمن سبقوهم كالإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية والإمام النابلسي الذي سُلخ جلده ليبدل فتواه في قتال العبيديين المرتدين فلم يفعل حتىٰ قُتل رَحِمَهُ اللَّهُ وأمثالهم ممن رفع الله ذكرهم بثباتهم علىٰ الحق..

ولا يغفلوا عن قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ وليتذكروا دومًا حديث النبي ﷺ لما شكا له بعض أصحابه أذىٰ المشركين في مكة فقال: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتىٰ بالمنشار فيوضع علىٰ رأسه فيجعل نصفين، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه ... الحديث) رواه البخاري.

ومع هذا فلا بد من اعتبار ما قدمناه حتىٰ لا يبادر المرء بالطعن في إخوانه المبتلين أو التضرر بتصريحاتهم وفتاواهم التي تصدر من وراء القضبان، بل يتأملها فإن كانت علىٰ ما كانوا عليه من الحق من قبل فبها ونعمت وإن تغيّرت إلىٰ الإفراط أو التفريط لم يبادر إلىٰ الثلب والطعن علىٰ قائلها حتىٰ يعرف ظروف قوله لها، وليتريّث حتىٰ يفرج الله عنه، فإن أصر في السعة علىٰ ما قاله في القيد فلكل حادث حديث.. وإلا فقد كفىٰ الله المؤمنين القتال وحفظنا أخانا في غيبته، فالأصل إحسان الظن بالمسلمين فضلًا عن أنصار الدين.

وأخيرًا فقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـًٔاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فهذه قاعدة من قواعد أهل الإسلام أن الله كتب علىٰ نبيه ﷺ الموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ ولم يُعلّق دينهم بحياته ووجود شخصه بينهم، وإنما علّق قلوبهم بالله سبحانه الحي الذي لا يموت

وبدينه وكتابه الذي لا يغسله الماء، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فمن تعلق به فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها، وإذا كان ذلك كذلك بالنسبة لشخص النبي ﷺ أعز الخلق وأحبهم إلىٰ المسلمين، فغيره من البشر الذين قد تطرؤ عليهم إضافة إلىٰ طوارئ الموت أو القتل؛ طوارئ الردة والتغيير والتبديل؛ من باب أولىٰ أن لا يعلق المسلم دينه بأشخاصهم، والأصل فينا أهل الإسلام عمومًا ودعاة التوحيد وأهل الجهاد علىٰ وجه الخصوص عدم التقليد، وعدم قبول قول القائل إلا بدليل شرعي..

قال تعالىٰ لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾.

وقال سبحانه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾.

ودين الله غني عن العالمين: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾..

ولو شاء الله لانتصر من أعدائه بغير أنصار ورجال، ولكن ليبلو بعض الناس ببعض ويتخذ من المؤمنين شهداء.

وهذه الهزّات يتميّز بها أهل الثبات عن أهل الذبذبة والإرجاف .. الظانين بالله ظن السوء الذين لا يزيدون الصف إلا خبالًا، فمن كان ينتظر مثل هذه الهنّات ليعلّل بها تخاذله ومفارقته للقافلة وتركه الصف، فأبعده الله وسيزداد الصف ببعده تماسكًا ورصًّا وثباتًا.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

فمن كان يعبد المشايخ الخضير أو ناصر الفهد أو أبا قتادة أو المقدسي أو غيرهم فإن المشايخ غير معصومين ولا تؤمن عليهم الفتنة،

ومن كان يعبد الله فإن دين الله ثابت راسخ معصوم لا يعتريه التبديل ولا التغيير ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومن علم الله منه خيرًا وصدقًا ثبته وعصمه، ومن علم منه غير ذلك صفىٰ الصفوف ونقاها منه ومن أمثاله بمثل هذه الهزات. .

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾.

الوقفة التاسعة

«رفقًا بالقوارير»

الزجّ بنساء المسلمين لغير ما ضرورة في أعمال قتالية أو جهادية أو تنظيمية أو غير ذلك من المهمات التي يمكن أن يتولاّها الرجال أمرٌ لا يهجم عليه من يعرف واقع اليوم الإِجرامي الكفري، ولا يتسرّع فيه من يعرف سفالة وانحطاط كفار زماننا ويهمه صيانة أعراض المسلمات..

قديمًا كان الكفار مع كفرهم ذوي نخوة ومروءة؛ فعندما هرع أسافل خلق الله علىٰ بيت نبي الله لوط طمعًا في أضيافه وقال لهم عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ ... ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾؛ فهم مع سفالتهم وانحطاطهم راعوا حق بناته سواء لأنهن بنات رجل من قومهم أو لأَنهم يعرفون أنهنّ لا يحللن لهم لكونهم كفارًا؛ وإِنما يقول لوط ذلك مشاغلةً لهم عن أضيافه، أو لأيّ سبب المهم أنهم في نهاية المطاف رغم إِسرافهم وإِجرامهم ورذالتهم لم يتعدّوا علىٰ بناتِه وراعوا حقهن لعلمهم أنه لا حق لهم فيهن..

وعندما ائتمر مشركو قريش ومكروا بالنبي ﷺ ليقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه واقترح بعض سفهائهم أن يقتحموا عليه بيته رفض ذلك أبو جهل رأس الكفر رفضًا باتًّا واستنكره بشدة قائلًا: (أتريدون أن تعيّرنا العرب بأننا روّعنا بنات محمد) وقد كان شاعرهم يقول:

وأغض طرفي إِن بدت لي جارتي   حتىٰ يواري جارتي مثواها

ويقول الآخر:

وإن جارتي ألوت رياحٌ ببيتها تشاغلتُ حتىٰ يستر البيت جانبه

أما كفار زماننا فهم لا يرقبون في مؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إلاًّ ولا ذمة، ويحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

وديدنهم قذف المحصنات الغافلات والطعن في أعراض المؤمنين والمؤمنات فحريٌّ بكل مسلم أن يصون المسلمات من دنس هؤلاء المشركين فلا يجعل لهم عليهن سبيلًا بتوريطهن بأعمال يُستغنىٰ عنهن فيها بالرجال قد يتسلط أعداء الله بها عليهن.

وصور ذلك في زماننا كثيرة سواءً بتصديرهن في مقدمة المظاهرات والمصادمات مع الأنظمة كما تفعل كثير من الجماعات الإسلامقراطية المتخبطة حتىٰ شاهد الناس أعداء الله يضربونهن بالهراوات ويطاردونهن بالكلاب، وبعضهنّ كنّ يُلاسنَّ الشرط فيتعرضن لأفحش الردود وأقذع السباب .. فهم قوم فُحش لا حياء عندهم ولا مروءة.

أو بأن توكل إِليهنّ أعمال تنظيمية أو يُخفىٰ عندهن شيء من العتاد والسلاح أو التمويل ثم يعترف عليهن فَيُجَرْجَرْنَ أو يُزج بهن في تحقيقات يتسلط فيها عليهن أناسٌ سفلة أنذال يمتهنونهن أو يتطاولون عليهن ويُسمعونهن ما لا يقبله مسلمٌ أو حُرّ لكرائمه، هذا إذا لم تتعدىٰ الأمور إلىٰ ما هو أخس وأحقر من سلوكيات أعداء الله، وقد يُحلن إلىٰ محاكمهم الكفرية وتنشر صورهن علىٰ شاشات تلفزتهم وعلىٰ صفحات جرائدهم ويودعن سجونهم القذرة مع الساقطات والعاهرات.

لا ينبغي لمسلم عاقل يعرف سفالة أعداء الله وقذارتهم أن يشحن بنات المسلمين بالحماس الأجوف ليزج بهن في مزالق توقعهنّ في براثن

هؤلاء السَّفلة الأرذال ما دام في الرجال غنية عن ذلك. ولا يجوز أن يُحتج لتسويغ ذلك بما قدّره الله أو يُقدره سبحانه من بلاء علىٰ بعض المسلمات، ففرقٌ بين أن يتسلط أعداء الله علىٰ النساء لمجرد تديّنهن وإسلامهن كما جرىٰ لبعض المستضعفات من المسلمات الأوائل وكما قد يجري علىٰ أمثالهن في كل زمان ممن لا يجدن وليًّا ولا يجدن نصيرًا؛ وبين أن يكون الدعاة أو المجاهدون بتخبّطهم سببًا في تسليط أعداء الله عليهن وإعطائهم المبررات والمسوّغات لهتك سترهن وتوريطهن فيما لا تُحمد عقباه، بل يجب علىٰ المسلم العاقل الحريص علىٰ صيانتهن أن يتجنب حتىٰ ذكرهن بين يدي أعداء الله في التحقيقات وغيرها وأن لا يُحمّلهن أو يُكلّفهن من الأعمال ما قد يكون سببًا لتطرق التحقيق إليهن حتىٰ لا يجعل للكفار عليهن سبيلا في الملاحقَة والمتابعة أو التحقيق فضلًا عن الإِهانة والإِعتقال . . . إذ هم كما قلنا سفلة منحطون لا يؤتمنون علىٰ عرض ولا يوثق بهم.

والخلاصة أن توريط نساء المسلمين في أعمال لا طائل تحتها أو الزج بهن في التحقيقات أو تحميلهن ما يمكن أن يتحمله عنهن الرجال أمرٌ لا يستمرئه مسلمٌ حرٌ عاقل خصوصًا في زمن الإستضعاف حيث لا دولة للمسلمين ولا دار يأوون إليها وترعاهم وتدفع عن أعراضهم.

وإلىٰ أن تكون الدولة التي تُجيِّش الجيوش الجرّارة لأجل صرخة مسلمة في أي بقعة من بقاع الأرض؛ فالواجب صيانة المؤمنات عن مثل هذه المنزلقات، والأولىٰ إشغالهن بالجوانب التربوية الدّعوية النّسائية البحتة، وإذا ما مُسَّ عرض امرأة مسلمة فالواجب أن يكون ردّ المجاهدين قاسيًا موجعًا لفاعله يشرّد به من خلفه ويبقىٰ محفوظًا ماثلًا للعيان رادعًا لكل من تسوّل له نفسه الإقدام علىٰ مثله.

وليتذكر المجاهدون دومًا وليتذكر أعداؤهم أيضًا أن كعب بن الأشرف كان معاهدًا معصوم الدم، فهدر رسول الله ﷺ دمه فقتله فتية من أنصار هذا الدين وعلوا هامته بالسيوف لتشبيبه ببعض نساء المسلمين.

وليتذكروا أخيرًا أنّ من عقيدة المسلمين ودينهم؛ أن من مات دون عرضه فهو شهيد. كذا أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه.

الوقفة العاشرة

(من لي بمثلِ مشيكَ المدلّلِ ⋆ تمشي رويدًا وتجي بالأوّلِ)

في هذا العصر كم نحن بحاجة إلىٰ رجالٍ من أمثال محمد عطا وزياد الجراح ومروان الشحي وأحمد الغامدي وإخوانهم..

ليس لأجل شجاعتهم فلا أشك بشجاعتهم، ولا ينقص أمة الإسلام اليوم شجعانًا..

وليس لأجل إقدامهم وتضحيتهم ففي الأمة كثيرون يتمنون لو تسنح لهم الفرصة فيقومون بمثل ما قام به أولئك الرجال ويضحون كما ضحوا..

ولكن لأجل عملهم الجماعي الهادئ المحكم الدؤوب الذي لا يتأثر بتقلبات الظروف أو بتغير الأحوال..

فنحن نعاني في هذا الزمان من أزمة أو شح في العمل الجماعي الجاد الهادئ الخالي من الجعجعة، المتصل غير المنقطع، والمنضبط غير المتضطرب أو المتقلب..

فأن تنضبط مجموعة كتلك المجموعة المباركة بمشروعها لبضع سنين لا تحيد عن الهدف الذي حددته لنفسها، وتضبط ألسنتها عن الثرثرة طوال سنوات تدريبها علىٰ الطيران وغيره مما تحتاجه لذلك العمل، وتواصل التدريب الجاد والإعداد الدؤوب ولا تقطعه أو تنصرف عنه إلىٰ عمل آخر رغم تجدد الأحوال وتقلب الظروف والأحداث الدولية من حولها حتىٰ تصل إلىٰ مطلوبها وتحقق هدفها وتفوز ببغيتها؛ فهذا أمر نادر في العمل الجماعي

الإسلامي في زماننا، وهذه خصال يجب لفت الإنتباه إليها والتركيز عليها، لأنها تنقص كثيرًا من المجاهدين والعاملين لأجل هذا الدين..

فمن عايش ساحات الجهاد، ولم يكن بمعزل عن شباب الأمة ومارس العمل الدعوي أو الجهادي الجماعي أو خالط أهله وجماعاته؛ يعلم أننا لا نعاني من نقص في الشجعان ولا من شح في الصالحين، أو المصلحين أو الأتقياء والورعين، أو ممن عنده استعداد جاد للتضحية في سبيل دينه؛ ففي أمة الإسلام رجال كثيرون صدقوا ما عاهدوا الله عليه، عاشوا لأجل نصرة دين الله، والموت في سبيل ذلك أسمىٰ أمانيهم، فمنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا..

ولكن ليس بصلاح الدين والإخلاص والورع والتقوىٰ والعاطفة الجياشة وحب الجهاد والإستشهاد والتحرق لنصر الدين ونحو ذلك من المعاني الطيبة والخصال الحميدة؛ ليس بذالكم وحده ينصر الدين وينكأ العدو، ونتوصل إلىٰ أهدافنا ونحقق أمانينا؛ خصوصًا إذا كنا نعمل من خلال جماعة وكانت أهدافنا جليلة تتناسب مع ما يحتاجه الإسلام والمسلمون اليوم من تمكين، أو نصرة ليست كأي نصرة، أو نكاية في الأعداء تتناسب مع مستويات العصر وتحدياته وتتحدىٰ شراسة الأعداء وخبثهم وعظيم مكائدهم .. بل لا بد مع تلكم الخصال المهمة من خصال أخرىٰ لا تقل أهمية عنها ولا يستقيم العمل الجماعي ولا يصلح ولا يؤتي ثماره إلا بها، ومن أهمها أمران:

الأول: الكتمان.

والثاني: العمل الدؤوب المحدد الأهداف، المتواصل غير المنقطع.

ووقفتنا هذه مع الأمر الثاني..

فالعمل الجماعي له طابع وأبجديات وأصول يجب أن تراعىٰ وضروريات غير ما يحتاجه العمل الفردي . . وكل من يعقل يعرف هذا . .

وإن كانا من حيث المشروعية كلاهما مشروع . .

فأن تجاهد وحدك عند عدم الجماعة ذات الراية النقية مستهديًا بقوله تعالىٰ: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ فتنال من أعداء الله ما تستطيع نيله؛ عمل صالح مشروع . .

ولكن الأكمل والأصلح الذي يحبه الله لهذا الدين ولأهله أن يكون القتال والجهاد من خلال جماعة أو صف كما سماه الله تعالىٰ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ . . هذا من حيث المشروعية والأفضلية، إذ لا يشك عاقل أن ثمرات العمل الجماعي المحكم الواضح الأهداف أعظم غالبًا من نتائج وثمرات الأعمال الفردية، فكيف إذا نصّ الله تعالىٰ علىٰ أنه يحبه؟!

أما من حيث طبيعة كل منهما؛ فقتال الفذ غير قتال الصف . .

فالفذ لا يرتبط غالبًا بخطة بيّنة ومنهاج محدد أو كما يسمونها بلغة العصر (أجندة) أو (استراتيجية) كما هو الأصل الذي يجب أن يكون في الجماعة التي تحترم جهودها وتهمها طاقات أفرادها وأعمارهم . .

فالفذ تجده اليوم يقاتل في أفغانستان وغدًا ينتقل إلىٰ الشيشان وبعد غد تراه يطلب العلم في اليمن أو الباكستان ثم فجأة يتحول للقتال في البوسنة فالفلبين فالعراق . . وهكذا، فهو جندي من جنود الإسلام أينما سمع هيعة طار إليها بحثًا عن الشهادة ونصرة الدين والنيل من أعدائه أينما كانوا . .

ولا شك أن هذا من أحسن الأعمال وأصحابه من أنصار الدين، وهو حال كثير من شباب الأمة اليوم بحمد الله . .

ولكن لا شك أن أحسن منه وأفضل وأكمل وأنفع لدين الله العمل أو القتال والجهاد من خلال جماعة لها خطها الواضح ومنهاجها المحكم وهدفها البيّن الذي يتطلع إلىٰ ما يحتاجه المسلمون اليوم ويفتقدونه من التمكين لشريعة الله وإقامة سلطانها في الأرض، ويراعي الأولويات ويتناسب مع مكائد الاعداء ومستوىٰ حربهم وكيدهم، بحيث تجمع قيادته إلىٰ جانب علمها بالشرع معرفتها بالواقع معرفة دقيقة عميقة مفصّلة، فلا تتعاطىٰ معه بنظرة سطحية ساذجة، بل بنظر ثاقب محكم وبعيد، قيادة لا تتعاطىٰ مع الأمور بالعاطفة والحماس الأجوف وحده، فهذا لا يصلح لمن تقلد المسؤولية، ولا يليق بمن يسعىٰ لأهداف جليلة عظيمة، ولا ينبغي لجماعة أو فئة أو طائفة تتعاطىٰ العمل الجماعي أن تنهج نهج الأفراد فتتنطط في الأهداف وتتقلبَ في المنهاج أو تقاتل بحسب المناسبات. .

فالعمل العشوائي غير المنظم ولا المنضبط بخطة أو (استراتيجية) كما يسمونها اليوم؛ يمكن أن يُتغاضىٰ عنه بالنسبة للأفراد، أما أن تتعاطاه الجماعة فتعمل عملا عشوائيًا لا يحدوه منهج محدد ولا تربطه خطة أو برنامج واضح علىٰ طريقة الأفراد المبعثرين؛ فهذه جماعة لا تحترم جهودها ولا يهمها أعمار شبابها ولا تحرص علىٰ أموال المسلمين وطاقاتهم ولا يهمها إهدارها، وإن ادعت خلاف ذلك.

كثيرة هي في زماننا الجماعات أوالتجمعات العشوائية التي لا تمتلك أيّة خبرة بالعمل الجماعي، بعضها قادتها العشوائية والتخبط في العمل إلىٰ الفشل فالتشرذم والتبعثر أو السجون. .

والبعض الآخر لم يتعلم من تجارب الآخرين فلا زال يعمل بعشوائية مع أن السعيد من وفّر عمره وما في كيسه واستفاد من تجارب الآخرين واعتبر بما بدّدوه من إمكانات؛ فتعلم من أخطائهم ووعظ بغيره. .

فترىٰ الجماعة تنشط اليوم في حقل الدعوة إلىٰ التوحيد مقتنعة بذلك العمل متحمسة له ومنطلقة فيه، ثم فجأة تطرأ في البلد بعض التطورات كأن توقع اتفاقية سلام مع اليهود أو تجدّ بعض المناسبات كرأس الألفية الميلادية الثانية أو نحوها، أو تطرأ بعض التطورات في بعض نواحي البلد كمطاردة أخ من قبل أعداء الله، فإذا بأفراد ذلك التجمع أو أكثرهم فجأة يجتمعون ويقررون التصعيد العسكري ضد اليهود أو السياح المتوقع قدومهم في تلك المناسبات أو يتخذون قرارًا بالمواجهة مع النظام لنصرة ذلك الأخ المطارد وتحميل إخوانهم الآخرين آثار أخطائه سواء كانت علنيته في اقتناء السلاح أو مجاهرته بأمانيه في قتال الأمريكان أو نحو ذلك. فيزجون بإخوانهم المشتغلين في خير عظيم في مواجهة لم يعدوا لها؛ وهكذا يتنطّطون بين اختيارات طارئة وغير مدروسة دون أن تكون تلك الخيارات من قبل في حساباتهم أو خطتهم؛ بل هي قرارات دافعها طروء تلك المناسبة أو ذلك الحدث أو محض حماس الساعة، أو مجرد اندفاع اللحظة، وقد يهمل أكثرهم الدعوة التي ربما كانوا قد قطعوا فيها أشواطًا طيبة، ويقفزون إلىٰ عمل لم يكن في حساباتهم، فيهملون أو يبطلون ما كانوا فيه سائرين، ولا يحسنوا أو يحققوا ما قفزوا إليه..

وأحيانًا تنقسم الجماعة إلىٰ أقسام يعيب أصحاب الجانب التصعيدي الحماسي منهم علىٰ أصحاب الدعوة دعوتهم، ويعيّرونهم بما يسمونه قعودًا عن الجهاد أو خذلانا لبعض إخوانهم، وتخرج البيانات الرنانة التي تمتلئ بالعاطفة والحماسة وتتوعد بالويل والثبور، وتعيّر الصابرين علىٰ الدعوة لزومهم لدعوتهم، وأحيانًا يكون أصحاب تلك البيانات بعيدون كل البعد عن الساحة التي يتكلمون عنها، وغائبون عن الواقع الذي يدفعون إليه إخوانهم دفعا .. فيحمسون من يحمسون ويدفعون من يدفعون ويعيّرون من يعيّرون

بجهل، ويتكلمون فيما لا يعلمون، بل كل ذلك بدافع العاطفة والحماس الذي ما يفتأ أن يخبو وينطفئ أمام معطيات الواقع وإمكانات الجماعة الحقيقية ولذلك تراهم لا يستجيب لهم في البلد حتىٰ أفرادهم المرتبطون معهم تنظيميًا لأنهم يرون ما لا يراه أولئك الغائبون . . ثم يمضي الحدث وتنقضي المناسبة وتطويها الأيام وتبقىٰ تلك البيانات الحماسية شاهدًا من شواهد عشوائية العمل.

كم تألمت عندما رأيت ما آل إليه حال بعض الجماعات التي تابعتها شريحة عريضة وواسعة من شباب الأمة حقبة من الزمان، ثم تناقضت ونقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا، وأبطلت ما أصّلته ودعت إليه من قبل تحت مسمىٰ المراجعات وكان جديرًا بالمراجعة والمطالعة والنظر والتروي والتأصيل أن يسبق العمل والدعوة والجهاد والترأس والتوجيه، حتىٰ لا تذهب الجهود سدًى وتهدر الطاقات هباء . . فلا يحل أن تمارس الجماعة عملها وتجمع الجموع من حولها وتجيّش جيوش الشباب وهي لا تدري ما الذي تريده؛ فتراها في فترة تتصادم مع النصارىٰ، ثم تشتغل بالحسبة ومنكرات المجتمع فتقتحم حفلات الزفاف وتحطم الكراسي علىٰ رؤوس المطربين والمغنيين بل والمدعوين، أو تلقي بالمواد الكيماوية الحارقة علىٰ المتبرجات، ثم تنقلب إلىٰ قتل السياح وغير ذلك . . ثم وبعد سنيّ البلاء لا تلبث أن تراجع!! أو تتراجع وتتشرذم وتتبعثر، فيتخذها خصوم التيار الجهادي ذريعة للطعن في هذا التيار، مع أن الناظر في جذورها ونشأتها وأدبياتها؛ يعلم أن الخلل كان فيها منذ البدايات. .

كما تألمت ولا زلت أتألم عندما كنت أرىٰ كثيرًا من التجمعات التي كانت تقر عيني بنشاطها في الدعوة إلىٰ الله وصدعها بالتوحيد وثباتها عليه رغم البلاء وتصديها لدعاة الفتنة من أهل التجهم والإرجاء؛ كم تألمت

عندما كنت أفاجأ بإخلائهم الساحة التي ملؤوها نشاطًا ودعوة، وهجرتهم إلىٰ بلد قد قيل أن حدود الله تقام فيه أو جبهة قد قيل أن راية نقية قد رفعت فيه، فيترك أولئك الشباب دعوتهم وجهدهم في بلدهم فجأة بعد أن يكونوا قد قطعوا فيه أشواطًا ومراحل ويخرجوا منها وهم يعلمون أن الرجوع إليها سيعسّره الطواغيت بعد أن يعرف بمخرجهم كل أحد، فينتقلوا إلىٰ ذلك البلد أو تلك الجبهة ليصدموا بعد ذلك أن من دفعهم إليها كان مبالغًا في تقاريره عنها، لم يبنِ تلك التقارير علىٰ دراسة واعية أو نظرة ثاقبة فاحصة، وإنما الدافع الأوحد كان العاطفة أو الحماس والسطحية، وربما الملل من ملاحقات طواغيت بلادهم ومحاربتهم لدعوتهم، فتكون تلكم الصدمة والمفاجأة سببًا في انقسام التجمع أو رجوع بعضه من حيث خرج لتتلقفه أجهزة المخابرات ويودع سجونهم ولا يطلق سراحه إلا بعد أن يُعصر من المعلومات عن إخوانه وتحركاتهم وتنقلاتهم ومخططاتهم، ويتشظىٰ البعض الآخر ويتناثر بين البلدان والجبهات، فهذه الجبهة عند هذه الطائفة أنظف وتلك البقعة عند هذه المجموعة أصلح، وتبدأ كل طائفة في اختيارها الجديد بداية جديدة بجهود مبعثرة، ودون خطة واضحة أو منهجية محددة، ومع ذلك تستنفر كل طائفة من تعرف من الشباب وتدعوهم لترك ما هم فيه من دعوة للحاق بهم، وتعقد المقارنات بين الجبهات وتجمع التبرعات وتحشد الإمكانات والطاقات، ثم وبعد مدة وبكل سهولة ويسر تراهم يغيّرون الإختيار الجديد ويتركون تلك الجبهة أو ذلك المكان ويقفزون إلىٰ جبهة أخرىٰ أو موقع آخر أو عمل جديد لمناسبة طرأت أو جبهة فتحت . . وهكذا . .

يوما بحزوىٰ ويومًا بالعقيق وبالعذيب يومًا ويومًا بالخليصاءِ

وتارة تنتحي نجدًا وآونة شعب الغوير وطورًا قصر تيماءِ

فلا عجب أن لا يحقق من كان هذا حاله هدفًا أو يصل إلىٰ غاية أو يتمّ مشروعًا؛ فضلًا عن أن يقيم دولة..

والعامة عندنا تقول: (كثير النّط قليل الصيد).

وبعد..

فهذه أخطاء لا يجوز السكوت عليها بحال، وكل جماعة تحترم نفسها وتحرص علىٰ جهد شبابها وأعمارهم وتهمّها طاقات المسلمين وإمكاناتهم وأموالهم؛ لا يمكن أن تمارس مثل هذه الممارسات أو تتقلب مثل هذه التقلبات، فتبطل كل يوم جهودًا وتهمل مسافات ومفازات قطعتها، وتتنطّط في الإختيار دون أدنىٰ دراسة هنا وهناك غير محددة لهدفها أو برنامجها، وغير عارفة لما تريد..

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾.

أسأل الله تعالىٰ أن يلهمنا رشدنا، ويوحد كلمتنا وينصرنا علىٰ من عادانا.

الوقفة الحادية عشر

الحذر والكتمان بين الإفراط والتفريط

يقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ فأمر سبحانه بأخذ الحذر قبل الأمر بالنفير..

وقال تعالىٰ: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ فالأخذ بأسباب الحيطة والحذر وكذا الكتمان في العمل الجهادي أمر مقرر في ديننا بل واجب في كثير من الأحيان، وقد أوصىٰ النبي ﷺ بالإستعانة بأسباب الكتمان في أشياء وحوائج دون العمل العسكري والجهادي فقال: (استعينوا علىٰ قضاء حوائجكم بالكتمان.)

بل إنه ﷺ تعدىٰ في هديه موضوع الكتمان إلىٰ التمويه علىٰ الأعداء ومخادعتهم، فلم يكن الحذر موقوفًا عنده علىٰ كتمان الإسرار؛ بل كان يحرص علىٰ تشتيت رقابة الأعداء وتضليل عيونهم وجواسيسهم، ففي حديث كعب بن مالك في الصحيح (٤٤١٨) في قصة تخلفه في غزوة تبوك قال: (ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّىٰ بغيرها)

وكان من مبالغته وحرصه علىٰ إنجاح غزواته ومهام أصحابه بالكتمان أن يبعث السرية في جهة معينة دون أن يعلمهم عن هدفهم، بل يكتب لهم كتابًا يذكر فيه الهدف المقصود، ويأمرهم أن لا يفتحوا الكتاب حتىٰ يقطعوا أغلب سفرهم ويقتربوا من غايتهم، كما فعل ﷺ مع سرية عبد الله بن جحش التي قُتل فيها ابن الحضرمي .. وفي ذلك ما فيه من كتمان الأسرار

العسكرية وعدم إظهارها حتىٰ للجند أنفسهم إلا قبيل التنفيذ مباشرة، حتىٰ لو ان بعضهم ضعف أو سقط أسيرًا في أيدي الأعداء لم يكن عنده ما يقوله أو يفشيه ولو قطعوه أو مزقوه

ومن هذا الباب انه ﷺ لما أزمع علىٰ الهجرة..

- جاء إلىٰ أبي بكر في ساعة غير التي اعتاد أن يأتيه فيها..
- وجاءه متقنّعًا..
- وأمره أن يُخرج من عنده قبل ان يسر إليه بقرار الهجرة رغم انهم كما قال أبو بكر (إنما هم أهلك)
- وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت معهما في غار جبل ثور ويدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه حتىٰ يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام..

انظر ذلك كله في حديث الهجرة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في صحيح البخاري (٣٩٠٥) .. وفيه أيضا قوله ﷺ لسراقة لما أدركهم في الهجرة (أخفِي عنّا)..

وفي صحيح البخاري باب (الحربُ خَدْعَةٌ) وذكر فيه الحديث، قال الحافظ ابن حجر: (وأصل الخدع إظهار أمر وإضمار خلافه، وفيه التحريض علىٰ أخذ الحذر في الحرب والندب إلىٰ خداع الكفار، وإن لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه) أهـ.

وفي البخاري أيضًا: (باب الكذب في الحرب) وذكر فيه قصة قتل الصحابة لكعب بن الأشرف طاغوت اليهود وما فيها من مخادعته وإيهامه انهم يتثاقلون ويُعانون مما يأمرهم به النبي ﷺ من الصدقة، إلىٰ أن استمكنوا منه وقتلوه .. وذكر الحافظ في شرحه في الفتح حديث الترمذي

في جواز الكذب في ثلاث؛ منها الحرب، وقصة الحجاج بن علاط في استئذانه النبي ﷺ أن يقول عنه ما شاء ليتمكن من استخلاص ماله من أهل مكة. .

وروىٰ البخاري أيضًا قصة إسلام أبي ذر (٣٨٦١) وفيها من العبر في هذا الباب ما يدل علىٰ أن الصحابة كانوا يحرصون علىٰ أسباب الحيطة والحذر والكتمان ولا يُفرّطون في شيء من ذلك، ففيها تردّد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثلاثة أيام علىٰ أبي ذر دون أن يفاتحه بشيء حتىٰ اطمئن إليه وسمع خبره أولًا وتأكد من حرصه علىٰ الإسلام والوصول إلىٰ النبي ﷺ، ثم اتفاقه معه علىٰ أن يسير خلفه ليوصله إلىٰ النبي ﷺ دون أن يُشعر قريشًا بذلك وقوله (إن رأيت شيئًا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتىٰ تدخل مدخلي) إلىٰ آخر القصة. .

وفي القرآن أخبرنا الله تعالىٰ في قصة الفتية أصحاب الكهف وحذرهم من قومهم وقولهم عمن سيبعثونه إلىٰ المدينة ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾. .

فهذا كله وغيره كثير، يدل دلالة واضحة علىٰ أن الأخذ بأسباب الحيطة والحذر والكتمان والتمويه علىٰ الأعداء ومخادعتهم والكذب عليهم لتجنب مكائدهم؛ كل ذلك أمور مشروعة لا حرج علىٰ المسلم فيها، ولا يعاب عليها، وأن عدم الإستفادة من ذلك وإهماله وعدم إعماله قد يسلط أعداء الله علىٰ الدعاة والمجاهدين، وقد يفشل سعيهم ويحبط جهادهم. .

إذا تقرر هذا فاعلم أن الناس مع هذا الأمر بين الإفراط والتفريط فبعضهم بالغ فيه وأفرط حتىٰ أصيب بالشلل التام، وأمسىٰ يخاف من ظله،

ويحسب كل صيحة عليه. ومنهم من ترك الدعوة والجهاد علىٰ إِثر بعض النكسات التي أصيب بها بسبب تفريطه في هذا الباب وانقلب بعدها إلىٰ الإفراط وصار يتعامل مع أعداء الله وكأنهم -خابوا وخسروا- يعلمون السر وأخفىٰ، واندحر أمام تكنولوجيا العصر وانضبع من إمكاناتها في التنصت والاختراق والتجسس فلا يكاد يستعمل أجهزة الحاسوب أو الهاتف أو غيرها من سبل الاتصال، ولو قدر علىٰ استعمال الحمام الزاجل لما استعمل غيره..

مع أن المسألة لا تحتاج أكثر من شيء من الخبرة بهذه الوسائل لتجنب آثارها ومفاسدها مع خبرة أخرىٰ بأساليب التمويه والخداع والتضليل لأعداء الله؛ لينقلب السحر علىٰ الساحر..

أما أن نعتزل هذه الوسائل ولا نستغلها للدعوة والجهاد بحجة أنها مدخولة مخترقة، أو نبالغ في التخوف والتلمس من ذلك دون داع إليه فذلك هو الإندحار والإنكسار أمام بهرج تكنولوجيا أعداء الله وزخرف إمكاناتهم..

ولقد زرت بعض الشباب بعد خروجه من محنة سجن اعترف فيها بعضهم علىٰ بعض في التحقيقات، فلم أكد اجلس حتىٰ قام إِلىٰ المذياع فشغّله بصوت مشوّش فقلت له: ما لنا وللمذياع أغلقه حتىٰ نعرف نتكلم، فقال: هذا ضروري للتشويش علىٰ أجهزة التنصت إن كانت موجودة! فقلت: البيت بيتك والحديث اجتماعي ودي لا أمني ولا حربي ولا حتىٰ دعوي، ولا أراك مشوّشًا إلا علينا..

وبعضهم إذا كلمك علىٰ الهاتف بالغ في استعمال التمويه والرموز فيما لا داعي له ولا يستحق ذلك، حتىٰ يُصيّر كلامه طلاسم ملفتة ومثيرة، بل ومشكلة عليك فلا تكاد تفهم ما يريد، ولو أن أعداء الله استمعوا إلىٰ

طلاسمه لضخّموا شأنها ولظنوا أن وراءها عمليات أضخم من عمليات نيويورك وواشنطن، مع أن الموضوع أقل من عادي وأحيانًا يكون تافها لا يستحق الترميز ولا التشفير..

وأحيانًا كثيرة يكون التصريح بالكلام أولىٰ لأنه لا حرج فيه ولا ضرورة لاستعمال التمويه فيه؛ ومع ذلك يفضل البعض الغموض والتنطع في التمويه؛ كأن يهاتفك أحدهم قائلًا: لك عندي أمانة، أو أريدك اليوم لحاجة ضرورية، وتكون الأمانة علبة من الحلوىٰ أو ثوبًا أو قارورة طيب لا حرج من التصريح بها، وتكون الحاجة الضرورية دعوة علىٰ غداء أو عشاء، ولكن أولئك المتنطعين يحبون الإبهام والتمويه السينمائي ولا يعرفون أنه في هذه الحالات يضر ولا ينفع، خصوصًا إذا كانت اتصالاتهم مع المتابَعين أمنيا الذين يحاسبهم أعداء الله علىٰ كل كلمة .. وإذا ما اعتقلوا لم يصدقوهم ولو حلفوا لهم الأيمان المغلظة أن الأمانة كانت من الأشياء المذكورة، أو أن الموعد كان غداء أو عشاء، ولم يتركوهم حتىٰ يقتلعوا أظافرهم ويمزقوا جلودهم كي يسلموا الأسلحة والمتفجرات وليقروا ويعترفوا بالموعد العسكري أو التنظيمي الضروري الذي كان وراء تلكم الرموز والتشفيرات..

والبعض يُقر عند أعداء الله ويعترف باتصالاته التي ربما اضرّت به وبإخوانه دون أدنىٰ ضرب أو تهديد بحجة أنه سمع أو قرأ عن تكنولوجيا حديثة قادرة علىٰ التقاط نبرة صوت المطلوب إذا عمّموها عبر الأقمار الصناعية في هواتف العالم!! وكأن اتصالاته تدور حول أسلحة الدمار الشامل!! ومن ثم فقد تحرج من الكذب عليهم لأن كذبه سينكشف بواسطة تلك التكنولوجيا، ولا أدري أي شيء يضير المسلم ان عرف أعداء الله بكذبه عليهم أو اكتشفوه؟ أوَينتظر منهم شهادة حسن سلوك، أم انه يخجل

من الكذب علىٰ أكذب خلق الله وأخبثهم وأغدرهم، مع أن كذبه إن جرىٰ فلحماية دعوته وجهاده ولدفع الظلم عن نفسه وعن إخوانه، أما كذبهم المتأصّل فهو للكيد بدعوته واستئصال جهاده ولظلمه وظلم إخوانه..

وإذا كانت هذه أمثلة من الأثار السلبية للإنبهار إلىٰ حد الإندحار أمام تكنولوجيا العصر وإمكانات أعداء الله، وشيئا من آثار الإفراط والمبالغة في التمويه والتخوف أو الحذر إلىٰ حد الوسوسة لغير ما حاجة وفيما لا طائل من ورائه..

ففي الطرف المقابل قد فرّط البعض في هذا الأمر المهم تفريطًا عظيمًا وأهمله وعطله تعطيلا كليًا فترىٰ أسراره مكتوبة ومذكراته ومواعيده المهمة وخططه وتفاصيل تنظيمه وتميله وإنفاقه كل ذلك وغيره مبثوثًا علىٰ الورق في عصر التكنولوجيا، وبتفصيلاته بصراحة دون تمويه أو تشفير، وإذا جاءته رسالة هامة تحذيرية أو تنظيمية أو أمنية بقيت في جيبه -لا أدري أللذكرىٰ!!- أيامًا وأسابيع، أو مكثت في بيته شهورًا وأحيانًا سنوات دون إتلاف؛ تنتظر أعداء الله لتصير لهم صيدًا ثمينًا في أقرب مداهمة لبيته أو أعتقال قد يفجأه فلا يستطيع بسببها أن يحيد في التحقيق يمينا أو شمالًا، ويصير إهماله سببا لاعتقال إخوانه وإحباط عملهم أو جهادهم أو تراه يتعامل مع وسائل الاتصال بثقة عمياء، وإذا حذره بعض إخوانه أو أوصوه بأخذ الحيطة والحذر أو بكتمان الحديث عن زيارات أو لقاءات، أو بحرق رسالة بعد قراءتها أو بعدم الإحتفاظ بأسماء وعنواين حقيقية وكاملة في أوقات أو أماكن معرضة لتفتيش أعداء الله أو مع أشخاص معرضين للتحقيق والاعتقال؛ استهجن ذلك واستنكره وربما عدّه جبنًا وخوراً وعارًا .. فلا أدري ماذا سيقول مثل هذا لو رأىٰ بعض إخوانه مستخفيا في غار صغير ممتلئ بجحور الأفاعي لا يتسع لأكثر من رجلين في حال طلب الكفار

له..؟! ولا جرم أن عيْبَ مثل هذا لا ينجم إلا عن ذهول عن سيرة المصطفىٰ ﷺ وانغماسٍ في حياة الدعة، وبعدٍ عن حياة الجهاد والعمل الجاد لدين الله، وركون إلىٰ الأمن الزائف الذي يعيشه عوام الناس وهَمَلهم ويُروّج له الطواغيت وأنصارهم..

هذا التفريط والتسيب والإهمال أدىٰ بكثير من التجارب إلىٰ فشل ونكسات أحزنت أهل الإسلام وأقرت أعين أعداء الله فضخّموها وجعلوا من فشلها إنجازات وانتصارات لأجهزتهم الأمنية علىٰ الإرهاب، والحقيقة أن سبب ذلك الفشل ليس ذكاء أعداء الله ولا حنكة أجهزتهم الأمنية يل تفريط وإهمال أهل تلك التجارب لهذا الجانب..

فكم كنت أحزن وأتألم عندما كنت أرىٰ بعض من لا يقبلون النصح في هذه الأبواب من الشباب الذي لا يتعلمون من تجارب غيرهم ولا يتعظون بنكساتهم فيكررون زلاتهم ويجترون أخطاءهم؛ فإذا هَمّ أحدهم بعمل جهادي واقتنىٰ سلاحًا لم يكتف بإطلاع كل من يلقاه عليه بل أطلعهم علىٰ أمانيه وأحلامه وتخطيطاته في العمل الجهادي ثم لا يدري بعدُ من أين تأتيه النكسة وكيف باءت أمانيه وتخطيطاته بالفشل!!

ويحزنني أن يتقن أهل الدنيا من أصحاب التنظيمات الأرضية أصول العمل العسكري وقواعده الأمنية فتراهم إن هموا بعمل لا يخبرون عنه وعن أهدافه ولا يطلعون علىٰ عدته وسلاحه إلا المنفذين فقط وقبيل التنفيذ بوقت وجيز لا يسمح بتسرب شيء من أخبار عملهم، ولا يعرف المنفذون اكثر مما يحتاجونه من معلومات لتنفيذ مهمتهم، أما مصادر السلاح وأماكن تخزينه ومن استورده ومن سلمه لهم وهل هناك غيره وهل ثم أهداف أخرىٰ سيقوم بها إخوانهم وغير ذلك؛ فهذا كله من فضول المعرفة وتعتبر أعباء أمنية لا يصح أن يُحمّلها من يحترم عمله العسكري لمن لا تعنيه، ولذلك

تكون الأخطاء والنكسات في حال فشل مثل هذه الأعمال محصورة محدودة . . بخلاف النكسات القاضية والتي تحرق كل من حولها بتخبط بعض الدروايش الذين يلجون إلىٰ ساحة العمل العسكري بعشوائية وسفه . . مع أن المسلم هو أولىٰ الناس بالإتقان والضبط والحذر والنباهة في هذا الباب فسيرة نبيه ﷺ وصحابته حافلة بمعالم وتجارب عظيمة في هذا الباب تقدمت إشارات منها . . والجهاد بحاجة إلىٰ الليوث والصقور لا إلىٰ الدروايش وبغاث الطيور . .

ومن صور التفريط في هذا الباب أيضًا أن بعض الشباب يتعامل مع السلاح بعد أن هداه الله إلىٰ هذه الطريق كما كان يتعامل معه أيام جاهليته بعنجهية العشائرية والقبلية التي قدمنا الكلام عنها في وقفة سابقة؛ فتراه لا يتحرج من إظهار حيازته، وتراه يدور بسيارته ويتجول هنا وهناك ومعه بندقيته الآلية بل وربما بعض القنابل والذخائر باستهتار عجيب، يريها لهذا ويطلع عليها ذاك، فإذا ما وعظته أو ذكرته ونصحته بأن هذا التسيّب لا يناسب أصحاب هذه الطريق، وأنّ أمسه الجاهلي قد ولىٰ وانقضىٰ، وقد تبدّلت معه وتغيرت نظرة أعداء الله إليه بمجرد ظهور بعض شعيرات في وجهه، أو باقترابه من بعض أهل هذا التيار الجهادي واتصاله بهم؛ استهجن نصحك واستغربه ولم يستوعبه إلا بعد فوات الأوان . . وربما عزاه إلىٰ الجبن والخور، وقال لا داعي للمبالغة فالأمور عادية . . فإذا ما اعتقل وابتلي بسبب تفريطه هذا لم تعد الأمور عنده بعد ذلك عادية بل غالبًا ما ينقلب أمثال هذا الصنف بعد البلاء إلىٰ جانب الإفراط الأول فتراه يتلمس من ظله مندحرًا أمام تكنولوجيا العصر منضبعًا من إمكانات أعداء الله الرهيبة واستخباراتهم الفظيعة التي اكتشفت أسلحته وقنابله المكشوفة! ويُلمع

أعداء الله ويضخم من شان أجهزتهم الأمنية بتبريره وعزوه سقوطه إلىٰ ذكاء أعداء الله وخبثهم وقوة مخابراتهم لا إلىٰ غباءه وتسيّبه وإهماله..

والحق ليس مع تفريطه من قبل ولا مع إفراطه من بعد، بل مع التوسط والإعتدال في ذلك كله .. فحري بأهل هذه الطريق أن يرتقوا إلىٰ مستوىٰ جهادها العظيم؛ وأن يتبصّروا بمكائد أعدائهم، ويأخذوا بأسباب الحيطة والحذر والأمن والكتمان من غير إفراط ولا تفريط..

أسأل الله تعالىٰ أن ينصر أولياءه ويذل أعداءه

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

الوقفة الثانية عشر

مسألة القتال مع الأمير الفاجر بين الإفراط والتفريط

معلوم عند أهل السنة والجماعة جواز القتال مع الأمير الفاجر لدفع العدو الكافر إذا لم يتوفر الأمير الصالح لدفعه، ولم يمكن الجهاد الا مع الفاجر . . هذه المسالة مشهورة عند أهل السنة والجماعة، وقد تكرر ذكرها عندهم في كتب الفقه بل والعقائد حيث خالفوا بها أهل البدع، الذين يمنعون من ذلك؛ وهي مسالة مبنية علىٰ قاعدة دفع اعظم المفسدتين باحتمال أدناهما وهي قاعدة معروفة من قواعد الفقه . . .

قال شيخ الإسلام ابن تيميه في الفتاوىٰ (٥٠٦/٢٨): (من أصول أهل السنة والجماعة الغزو مع كل بر وفاجر، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم، كما أخبر بذلك النبي ﷺ لأنه إذا لم يتفق الغزو إلا مع الأمراء الفجار، أو مع معسكر كثير الفجور، فإنه لا بد من أحد أمرين؛ إما ترك الغزو معهم فيلزم من ذلك استيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضررا في الدين والدنيا، وأما الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دفع الأفجرين وإقامة أكثر شرائع الإسلام وإن لم يمكن إقامة جميعها، فهذا هو الواجب في هذه الصورة وكل ما أشبهها، بل كثير من الغزو الحاصل بعد الخلفاء الراشدين لم يقع إلا علىٰ هذا الوجه). أهـ.

وقال الطحاوي: (والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم إلىٰ قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما) أهـ.

وروي في ذلك حديث بلفظ (الجهاد ماض مع البر والفاجر) أخرجه أبو داود وأبو يعلىٰ مرفوعا وموقوفا عن أبىٰ هريرة وقال ابن حجر في الفتح: (لا باس برواته إلا أن مكحولا لم يسمع من أبي هريرة).

كما قلت هذا أمر معلوم عند أهل السنة والجماعة، وقد بنىٰ عليه كثير من شبابهم في زماننا مشاركتهم في كثير من جبهات القتال . . ولكن الأمر الذي يخفىٰ علىٰ كثير من شبابهم وأرغب بالتنبيه عليه هنا كون المقصود «بالأمير الفاجر» الذي جوّز أهل السنة الغزو والقتال معه دفعا للعدو الكافر في حال عدم إمكان دفعه الا بالغزو مع ذاك الفاجر. .

أقول؛ المقصود بالفاجر هنا هو ذاك الذي يكون فجوره علىٰ نفسه كمن يتعاطىٰ بعض المعاصي كشرب الخمر ونحوها من أنواع الفسق التي لا تضر بالمسلمين، فهذا هو الأمير المقصود الذي جوّز أهل السنة الغزو معه واحتمال فجوره لدفع العدو الكافر، بدليل اعتمادهم في ذلك علىٰ قاعدة دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، فذلك صريح بأن شرط جواز الغزو مع الأمير الفاجر منوط بكون مفسدته قطعا أدنىٰ من مفسدة الكافر ولذلك احتملت لدفع ما هو أعظم منها. .

بخلاف ما إذا كان فجور الأمير وضرره متعديا إلىٰ الإضرار بالمسلمين بحيث تكون مفسدة تأميره أو الغزو معه مساوية أو أعظم من مفسدة ترك قتال الكفار، فليس هذا الفاجر مقصودا بحال عند أهل السنة في مقولتهم تلك.

ولو تأملت أقاويلهم في هذا الباب والقاعدة المتقدمة التي اعتمدوا عليها في ذلك، لما شككت في هذا التفريق طرفة عين. .

ولذلك لما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو أحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزىٰ؟

(قال: أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره علىٰ نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه علىٰ المسلمين، فيغزىٰ مع القوي الفاجر، وقد قال ﷺ: إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وروي؛ بأقوام لا خلاق لهم. .) أهـ. عن مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٢٥٥)

فتأمل قول الإمام (وفجوره علىٰ نفسه) لتفهم عمن يتكلمون . . ومثل ذلك ما ذكره ابن قدامة عنه في المغني (إن كان القائد يُعرف بشرب الخمر والغلول يغزىٰ معه؛ إنما ذلك في نفسه ويروىٰ عن النبي ﷺ ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) أهـ. فتأمل لقوله (إنما ذلك في نفسه) واحفظها وافهمها.

إذا تقرر هذا وعلم أن مسالة القتال مع الأمير الفاجر في حال عدم توفر الفاضل لدفع الكافر مقيدة بهذا القيد أعني كون فجوره علىٰ نفسه وغير متعد إلىٰ الإضرار بالمسلمين، وكون الفساد الذي قد يترتب بتأميره أدنىٰ من فساد الكفار وتسلطهم علىٰ المسلمين. .

وأنه في حال كون فساد الأمير الفاجر وضرره علىٰ المسلمين إما مساو لضرر الكفار وتسلطهم علىٰ المسلمين أو زائد عليه؛ فلا يسوغ شرعا ولا عقلا القتال مع هذا الفاجر لأن القاعدة التي أنيط بها هذا الحكم لا تنطبق عليه، فهو ليس أدنىٰ المفسدتين حتىٰ يحتمل لدفع الأعلىٰ. .

أقول إذا تقرر هذا فمن باب أولىٰ ان لا يزج تحت هذه القاعدة ويحشر فيها أولئك الأوغاد من الأمراء الذين يتسلقون إلىٰ أمجادهم وعروشهم علىٰ جماجم الشهداء وفوق أشلاء الأبطال وهم يعلنون صراحة دون مداورة عن توجهاتهم وأفكارهم وخططهم المستقبلية في الحكم التي تتبنىٰ الديمقراطية الكافرة نظاما للحكم أو تؤاخي وتوالي طواغيت العرب والعجم أو تتحد معهم في منظماتهم الدولية الكفرية وتتكالب علىٰ شرعيتهم الدولية!!

ولا بأس عندهم من دغدغة عواطف الشباب بخطاب ذي صبغة أو إن جاز فقل قشرة إسلامية لاستدراجهم إلىٰ جبهاتهم وسحبهم إلىٰ معسكراتهم والاستحواذ علىٰ دعمهم وتبرعاتهم واستعمالهم في مآربهم. .

هؤلاء الدجاجلة أو قل اللصوص لا شك عندي أنهم من الأئمة المضلين أو الدجاجلة الذين أخبر النبي ﷺ أمته عنهم وحذرها منهم إذ هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ويستعملون خطابنا وآياتنا وأحاديثنا حين يحتاجون لذلك؛ فإذا قضوا مآربهم وبلغوا غاياتهم؛ تنكروا لنا ولدمائنا ولجهادنا وكشفوا أقنعتهم عن وجوه خبيثة وقلوب حاقدة علىٰ الجهاد وأهله وباعوا الجهاد والمجاهدين بثمن بخس من المناصب الحقيرة التافهة. .

ولو أن الشباب تدبروا تصريحاتهم أول الأمر خصوصا تلك التي يدلون بها إلىٰ إخوانهم وأوليائهم الذين كفروا من الطواغيت أو أوليائهم أو هيئاتهم، أو وكالات أنبائهم؛ ولم يغلقوا عقولهم علىٰ ما يختصونهم به من الخطاب الديني المصطنع؛ لما انطلت عليهم ألاعيبهم ولما خدعوا بهم أو صدموا بعد فوات الأوان . . فالمؤمن كيس فطن ويجب أن يكون حريصا علىٰ هذه الروح وأن يتق الله فيها فلا يزهقها إلا حيث يتيقن نصرة الدين العظيم، فهو لا يملك وفرة من الأرواح يجرب بعضها هنا وبعضها هناك، فإنما هي روح واحدة فليشح بها أن يمنحها لأولئك الدجاجلة أو يزهقها في سبلهم المعوجة، وليتذكر أنه ما من نبي إلا وقد حذر أمته من الدجال كما أخبر بذلك النبي ﷺ وأنه عليه الصلاة والسلام قد أوصانا ان نتعوذ من فتنته في دبر كل صلاة وما ذلك كله كما يقول شيخ الإسلام إلا لأن جنس فتنته وخبثه ومخادعته موجودة في كل زمان . . . . . فلنحذرها.

وفي مقابل هذا التفريط الذي وقع فيه كثير من شباب المسلمين اليوم فاغتروا بأولئك الدجاجلة وغضوا طرفهم عن سوءاتهم المكشوفة

وتصريحاتهم الخبيثة وعلاقاتهم المشبوهة مع الطواغيت وأذنابهم، وانساقوا وراء شعاراتهم الزائفة فقاتلوا تحت راياتهم بحجة جواز القتال تحت إمرة الأمير الفاجر فتسلق علىٰ ظهورهم أوغاد نقضوا ما عاهدوا الله والمؤمنين عليه وتخلوا عن وعودهم بتحكيم شرع الله والتزام منهجه..

أقول في مقابل هذا التفريط أفرط بعض الشباب في هذا الباب وغلوا فمنعوا من القتال مع قيادات أو في جبهات بسبب بعض الهنّات التي لا تصل إلىٰ الفجور الذي يضر بالمسلمين؛ ولا تقارن مفاسدها بمفاسد تسلط الكفار ولا تقاربها من قريب أو بعيد..

بل بلغني أن بعض الشباب قد امتنع واستنكف عن الانضواء تحت راية خيرة المجاهدين في زماننا وخلاصتهم بدعوىٰ مخالفتهم لبعض ما يحمله أولئك الشباب من اجتهادات يسع فيها الاختلاف، أو بحجة رفضهم التزام منهج دراسي معين اقترحه أولئك الشباب واختاروه من كتابات بعض المشايخ ونحو ذلك من الحجج والأعذار غير الشرعية التي لا يحل أن يضعف جهاد المسلمين بسببها أو تشتت جهود المسلمين وطاقاتهم من أجلها..

ختاما نلخص ما تقدم بالنقاط التالية:

أولا: يجب علىٰ المجاهدين التفريق بين ما إذا كان الأمير الفاجر أو المعسكر الفاجر أو الدولة الفاجرة واقعا موجودا مفروضا، وبين ما إذا كان الاختيار بيد المجاهدين ومجاله واسعا فلا يحل لهم، والحال كذلك القتال تحت إمرة الفاجر أو اختياره أميرا عليهم بأي حال، فمسالة القتال مع الأمير الفاجر إنما تطرح في حال الاضطرار وعدم توفر غيره من الصالحين أو في حال ضعفهم ووهنهم..

ثانيا: يجب عليهم التفريق بين الأمير الفاجر الذي فجوره ينحصر في نفسه، وبين ذاك الذي يتعدىٰ فجوره وضرره إلىٰ الإسلام والمسلمين، بحيث تكون مفسدته وضرره علىٰ المسلمين أعظم من مفسدة الكفار أو مساوية لها، فالأول هو الذي جوّز أهل السنة القتال تحت رايته دفعا لمفسدة الكفار التي هي أعظم من مفسدته، أما الثاني فلم يجوزوا القتال معه ولا قصدوه في هذه المسالة؛ لأن القاعدة التي بنيت عليها مسالة مشروعية القتال مع الأمير الفاجر وهي دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما لا تنطبق عليه..

ثالثا: يجب أن يتيقظوا ويتنبهوا إلىٰ أنه إذا كان مثل هذا الأمير الفاجر وليس بكافر ولكن مفسدته تتعدىٰ مفسدة الكفار أو تساويها فإن القاعدة المذكورة لا تنطبق عليه ولا يحل القتال معه؛ فلا نعمة ولا كرامة إذن للقتال مع الأمير الذي يعلن ببدعة مكفرة أو يصرح باختيار منهج كفري أو حكم جاهلي..

وخلاصة القول ان نجتنب الافراط أو التفريط في هذا الباب..

- نجتنب التفريط فلا نجهض جهاد المسلمين أو نحبط ثمراته ونصيره سلما للدجاجلة والائمة المضلين يتسلقون عليه إلىٰ أمجادهم الدنيوية وذلك بتسويغ القتال تحت رايات منافقة خبيثة تلمح أو تصرح بتبني مناهج الكفر في حال تمكينها، أو تتبنىٰ بدعا مكفرة وتوجهات مناقضة لدين الإسلام وعراه الوثقىٰ، بدعوىٰ القتال تحت إمرة الأمير الفاجر، فنحمل هذه المسالة مالا تحتملها، ونزج فيها ما ليس منها..

- ونتجنب الافراط فلا نخذل إخواننا المجاهدين بتعطيل هذه القاعدة وإلغائها بأن نشترط للقتال معهم شروطا ما نزل الله بها من سلطان، كأن نشترط نقاء صفوفهم وخلوها من العصاة وهو أمر لا سبيل إليه إلا فيما أخبر عنه النبي ﷺ عند خروج المهدي في آخر الزمان وانقسام الناس إلىٰ

فسطاطين فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه..

وإلا فقد تقدم قول شيخ الإسلام عن الغزو مع الأمير الفاجر: (بل كثير من الغزو الحاصل بعد الخلفاء الراشدين لم يقع الا علىٰ هذا الوجه).

أو نشترط إلزامهم باجتهاداتنا أو اختياراتنا التي يحتمل فيها الخلاف، أو نلزمهم بأفكارنا وتصوراتنا مفصلة بحذافيرها، وإلا فلا قتال؛ فنخذلهم بذلك أو نضيع بعض فرص الظفر والتمكين، بسبب قصر نظرنا وسوء فهمنا..

ففي البخاري باب (الجهاد ماض مع البر والفاجر)

وفيه قول النبي ﷺ (الخيل معقود في نواصيها الخير إلىٰ يوم القيامة الأجر والمغنم)

ففي هذا الحديث وحديث (لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون علىٰ الحق إلي قيام الساعة) بشرىٰ بقاء المجاهدين واستمرار الجهاد وعدم تعطله رغم كل الظروف إلىٰ قيام الساعة..

فلنبقىٰ متوحدين أخوة متحابين وحذار من الفرقة والتخلف عن القافلة لحجج جوفاء..

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

الوقفة الثالثة عشر

الجهاديون واجترار الأخطاء والمسرحيات المكررة (تشخيص المرض والعلاج)

في كثير من الساحات جاء المهاجرون بأنفسهم وأهليهم لنصرة إخوانهم الذين ثاروا علىٰ الطواغيت في بعض البلاد كما في ثورة الشام هاجروا لإعانتهم علىٰ الخلاص من الطاغوت بشار؛ والخلاص من حكمه اللعين وتحكيم شرع رب العالمين؛ كانت هذه هي نوايا ومقاصد المخلصين الذين هاجروا إلىٰ الشام من كل مكان.

ثم ما لبث أن وقع أكثرهم فريسة لاستعمال الغلاة أو استغلال المميعة في مشاريعهم المنحرفة؛ التي كسوها بداية وزخرفوها بدعاوىٰ القتال في سبيل الله؛ وتحكيم شريعته؛ وبعد أن قُتِل مَن قتل من هؤلاء المخلصين؛ وأسر من أسر؛ وضحوا بالغالي والنفيس!

انقلب عليهم الذين جاءوا لنصرتهم؛ فطاردوهم وقتلوهم وسجنوهم؛ فكانت هذه مكافأتهم من الأنذال؛ والطواغيت الحقراء الصغار؛ الذين حلوا محل بشار في بعض بقاع سوريا!

للأسف هذه الصورة أو قل المسرحية تكررت مع كثير من المهاجرين سابقا؛ وستتكرر لاحقا إن بقيت العاطفة والحماس والسطحية هي المسيطرة علىٰ كثير من شباب المسلمين؛ ولم يتبصروا بواقعهم؛ أو يقبلوا نصح أهل البصر والخبرة والبصيرة الذين يحذرون من الفتنة في إقبالها؛ ولا يراها غيرهم إلا بعد إدبارها؛ فيقرع سن نادم!

وهذه اللعبة أو سمها المسرحية المملة المتكررة منذ أيام أفغانستان؛ تسير علىٰ هذا النحو:

١- تجييش إعلامي من قِبل الجماعات المتلوّنة يشارك فيه الشيوخ المنخدعون أو المخادعون؛ لتلميع هذه الجماعات باستعمال راية التوحيد؛ ودعاوىٰ تحكيم الشريعة؛ وقد يمتطون ابتداء بيعة بعض الجماعات ذات التاريخ الجهادي كالقاعدة ليتخذوا البيعة مغناطيسا يجذب أنصارها الجاهزين للتضحية والعمليات الاستشهادية!

وتكرر هذا من الغلاة والمميعة علىٰ حد سواء.

٢- شيطنة جميع الناصحين والمحذرين من هذه الجماعات المتلونة والمستغلة للجهاديين؛ وتسليط السفهاء والمتعصبين عليهم؛ ورميهم بالجهل بالواقع؛ والقعود عن الجهاد؛ بل والعمالة والسعي في تخريب الجهاد! في الوقت نفسه قبول وإبراز وتلميع هذه الجماعات وتزكيتها من قبل كل أحد؛ ولو كان من مشايخ حكومات رسميين بعضهم مازال يعيش حتىٰ الساعة في حضن الطواغيت ويوجه بتوجيههم؛ وينخر في عقولهم التجهم والإرجاء! ويصبح هؤلاء المشايخ عند هذه الجماعات ممدوحين مصدرين بسبب تزكياتهم لهم!

٣- ثم تحقيق انتصارات ملفتة ومحمسة للشباب؛ باستعمال هؤلاء المهاجرين الذين يمثلون الجنود المجهولين في العمليات الاستشهادية وعظيم التضحيات؛ ليبرز بتضحياتهم ويعلو علم واسم هذه الجماعات المشبوهة؛ فإذا ما توسّع عددها؛ وازداد مدَدها؛ وقويت وتوسّعت؛ بدأت أولا بالتخلي عن الإنتساب لتلك الجماعات التي استعملت ثوبها واسمها وبيعتها لتلمّع بداياتها.

٤- وبفك الارتباط بالجماعات التي كانت تمثل الضابط والرابط لهذه الجماعات تبدأ قيادة الجماعة بعد ذلك في الانخراط شيئا فشيئا في سياسة التلون الحربائي لخطب رضىٰ العالم؛ وفتح القنوات سرا للتواصل مع بعض الأنظمة؛ ومخابراتها؛ وتجتهد في إرسال مختلف رسائل التطمين والترضية للعالم!

٥- وحين تظن الجماعة أنها قد ملكت زمام الأمور وتجذّرت في المنطقة؛ تبدأ بالتخلص أولا ممن يعترض علىٰ خطواتها هذه؛ برميه بالإجرام تارة؛ والغلو والتكفيرية والدعشنة تارات أخرىٰ.

٦- وتبدأ بمحاربة حلفاء الأمس؛ ممن ضحكت عليهم واستعملتهم واستفادت من جهادهم وتقوّت بتضحياتهم.

٧- فتستعمل قيادة الجماعة فتاوىٰ الاستئصال المعلبة والجاهزة دائما؛ التي تُمنح لها من شرعيين استحمرتهم؛ ومشايخ امتطتهم؛ ليشاركوها في إجرامها بالتحريض والدجل؛ أو بالحماقة والهبل! ويصبح هؤلاء جامية ومداخلة لهذه الجماعات؛ كجامية ومداخلة الطواغيت يعدون كل من انكر انحرافات الجماعة خارجيا يجب استئصاله وقتله قتل عاد!

الحل والعلاج للخلاص من هذه الفخاخ والشراك والجحور التي لدغ منها الجهاديون ووقعوا فيها مرارا وتكرارا:

- التبصر بالشرع والواقع في الأمور المهمة التي تمس العمل لدين الله في هذا الزمان..

- الاستفادة من تجارب المخضرمين ونصائح المتبصرين بالواقع؛ والذين ثبت للمنصفين تبصرهم بالفتن في إقبالها وأول اشتعالها.

- ترك الإغترار بالدراويش العاطفيين الذين أثبت الواقع والتجارب أن عقلهم مُخرب؛ لإصرارهم علىٰ تجريب الفاشل المجرّب؛ وأنهم

باستشرافاتهم العاطفية البعيدة كل البعد عن بصر المؤمن؛ وفطنته وفراسته؛ قد أهلكوا باختياراتهم وترقيعاتهم الحرث والنسل؛ وضيّعوا الإمكانات العظيمة التي وقعت في أيدي المجاهدين في مراحل قد لا تتكرر؛ وذلك بوضعها كلها في سلة من زكوهم سواء من الغلاة أو من المميعة.

- عدم قبول تزكيات المتساهلين من المشايخ والدعاة؛ وعدم الإنقياد لإمرة المجاهيل الذين يقفزون إلىٰ سفينة الجهاديين فجأة؛ ويهبطون عليهم بالمظلة؛ دون أن يعرف لهم تاريخ يزكيهم؛ أوماض يقدمهم؛ أو عِلم يُصدرهم؛ بل إن بعضهم قفز عليهم من سفينة البعث؛ وبعضهم من سفينة الإخوان المسلمين أو السروريين؛ وبعضهم من سفينة المرجئة والجهمية.

- تصدير المخضرمين ذوي الأقدام الراسخة في العلم والجهاد والتضحية والفداء؛ الذين شهد لهم تاريخهم بالقوة والصدق والأمانة؛ والذين يعلنون عن غايتهم الواضحة ورايتهم الجلية في الجهاد في سبيل الله وتحكيم شرع الله ويستقيمون عليها؛ ولا يتلونون أو يفرطون بشيء من الأصول والثوابت حتىٰ يلقوا الله تعالىٰ.

الوقفة الرابعة عشر

التزكيات والتساهل فيها بين الجهاديين

من المآسي التي أصابت التيار الجهادي في زماننا تزكيات المشايخ والقادة لشخصيات ليست أهلا للتزكية

ومرادي بالأهلية هنا الائتمان علىٰ التيار وشبابه من الحرف والتضليل؛ أو من التغبيش والتشويش في الغاية أوالوسيلة؛

فتيار الجهاد يسعىٰ لإقامة حاكمية الله في الأرض فهو يتخذ من:

تحقيق التوحيد غاية؛ والجهاد في سبيل الله وسيلة لتحقيقها.

وعليه فهذا التيار يجب أنْ لا يُزكي أو يُقدّم إلا من كانت هذه الغاية ووسيلتها مقدمتان عنده واضحتان؛ لا انفكاك عنهما أبدا.

ومَن كان التوحيد غايته؛ والجهاد وسيلته؛ فلا يمكن أن يسعىٰ لغاية شركية؛ ولا أن يتخذ وسيلة شركية أو تضليلية!

وأيّ شخصية تتعكر الغاية أوالوسيلة عندها؛ أوتُعكّرها بالثناء علىٰ العلمانيين أو الديمقراطيين والمنحرفين عن التوحيد حكاما ودعاة ومشايخ ومفكرين وجماعات؛ فهي قطعا غير جديرة بالثقة حتىٰ تُزكىٰ!

وتزكيتها تُعد نوعًا من الغش والتغرير بالشباب والأتباع.

وفي حديث معقل بن يسار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) متفق عليه.

لقد زكّىٰ بعض مشاهير الجهاد شخصيات عاشت وهي تُزكي ضياء الحق رئيس باكستان آنذاك؛ وماتت وهي تزكي وتوصي بالعميل أحمد شاه مسعود!

فهل كان لحوق هذه الشخصيات بساحة الجهاد والتحريض عليه؛ كافية للتزكية من قبل المشاهير؛ مع وجود هذا الخلل الواضح عند الشخص المزَكىٰ؟! والذي يحاول البعض اليوم استنساخ تجربته؛ بالسعي في تزكية وتقديم الدجالين والعلمانيين والديمقراطيين والضالين المضلين؛ اقتداء واحتماء به وبأخطائه!

إن تَعلّق الشخص بالوسيلة الصحيحة وهي الجهاد؛ واجتنابه أوتخليه عن الوسائل الشركية والباطلة لا شك يُلمعه؛ ويُقرّبه من التيار الجهادي؛ لكنّ الشخص لا يَتميّز ولا يكون جديرًا بالثقة؛ حتىٰ يتميّز بنقاء الغاية التي هي الأهم والأشرف؛ وما الوسيلة إلا خادم لها.

والتزكية والتصدير للمشايخ والقيادات والجماعات؛ لا يكفي فيها الدعوىٰ؛ بأن غايتها الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا؛ بل لا بد فيها من واقع مُعاش يُثبت صِحّة هذه الدعوىٰ ونقائها؛ وأن لا تقديم عنده علىٰ التوحيد؛ ولا تبديل ولا تلاعب في الوسيلة التي هي الجهاد؛ وحساسية صاحبها تجاه أيّ تشويش لهما.

لقد عايشت شخصية جهادية عقدًا من الزمان؛ نهل من كتاباتي؛ ونشأ علىٰ توجيهاتي؛ حتىٰ لكأننا صرنا نسخة واحدة؛ ووثقت بوضوح الغاية والوسيلة عنده؛ وكان يستحق كل التزكية والتصدير؛ ومع ذلك لم أتخلّ عن مناصحته وتوجيهه حين انطلق إلىٰ ساحة جهادية ولمع نجمه؛ خشية علىٰ الوسيلة من التشويه؛ ولم اهتم بما قيل وقتها ومازال يُقال؛ ولم أنشغل حتىٰ بالرد علىٰ تلك الإفتراءات والترهات والأكاذيب.

فكيف لو كان الخوف وقتها علىٰ الغاية نفسها؟!

فالأصل أن تُترك العواطف والمجاملات في هذا الباب؛ ولا يَكترث الناصح بتبعات النصح وتَصيّدات الشانئين؛ لأن الحرص علىٰ سلامة الغاية وصيانة وسيلتها؛ أولىٰ من الحرص علىٰ سلامة أشخاصنا.

عندما يطلب أحد قيادات الجهاد في ساحة جهادية من شاب لم يتحرر بعد مِن بوتقة بعض الجماعات المنحرفة كحماس أو الهيئة أنْ يُقدّم له كتابا؛ فهو في الحقيقة يُزكيه؛ فالقائد الجهادي في الواقع يُزكِي ولا يُزَكىٰ؛ إذ هو مشروع شهيد في أيّة لحظة؛ ومُجرد بقاء اسم مَن قدّم له علىٰ طرة كتابه؛ يُعد تلميعا وتزكية له قد يستعملها الشاب في نهج لم يتحرّر بعد منه!

ولذلك وجدنا مِن الوراقين مَن يتمسّح بتراث الجهاديين؛ ويجمع أعمالهم ليُزكي نفسه بذلك؛ وهو يظن أنّ اقتران اسمه بهم؛ دون أنْ يتبنّىٰ نهجهم بالسداد الذي كانوا عليه؛ يُلحِقه بهم مكانة وريادة وقيادة؛ ولا شك أن دون هذا خرط القتاد؛ ولا يُمكن أن ينطلي ذلك علىٰ من يُبصر بنور التوحيد والجهاد.

وإن انطلىٰ ذلك علىٰ المشايخ في البدايات فقدّموا لجمعه؛ فلا يصح أن يستمروا في إيهام الشباب بتزكيته؛ بالسكوت عن انحرافاته حين يعاينونها جليّة صريحة واضحة؛ فالنصح والتوضيح والإنكار يتوجب عليهم تبرئة للذمة من التغرير بالشباب والتضليل!

ولا يجوز أن تبقىٰ ألاعيب هؤلاء منطلية علىٰ المشايخ بعد تكشف أحوالهم وبيان انحرافهم وضلالهم؛ ويبقوا ساكتين!

نعم يُمكن أن ينطلي ذلك علىٰ الشباب الأغرار المتحمسين لصور اللباس المُموّه والسلاح المحمول؛ ويبقىٰ ذلك التغرير مدة كافية كي

يُستعملوا في مشاريع الآخرين! وهذا هو مطلوب الساعين لتزكيات أنفسهم بهذه الطريقة الملتوية؛ وهنا مكمن الخطر والداء؛ وهذه هي خطورة اللعبة التي يلعبها هؤلاء!

وتجد هذا الشاب بمجرّد جَمْع تراث أحد قادة أو مشاهير الجهاد؛ أو التقديم لبعض كتاباتهم؛ يبدأ بممارسة التنظير؛ والتوجيه والاعتراض والتأطير؛ للتيار الجهادي يخاطب شبابه؛ يُحذر ويَنتقد ويُثرّب؛ ويُوجّه ويتعصّب ويتحزّب؛ وربما تطاول علىٰ قامات أسبق منه وأرسخ في التيار؛ ولمّع أعداءهم؛ وزكىٰ مشايخ الإسلامقراطية؛ ونخر في تراث الجهادية!

فدخل بهذا الخلل كثير من الدخن والتغبيش علىٰ التيار الجهادي.

سيقال لنا: الجهاد جهاد دفع؛ يُتساهل ويُتوسع في شَرطه!

فنقول: قد حفظنا هذا الدرس؛ وهو أيضا ثقب نفذت منه كثير من الإنحرافات والتشويهات التي طرأت علىٰ التيار؛ ونحن نعتقد أنّ الجهاد جهاد دفع اليوم في بلاد الإسلام كلها -وليس في بقعة معينة- وإن كان للتيار مرحلته وظروفه التي يمر بها في كل بلد! ففي بعض البلدان يكون جهاد دهم ودفع؛ وفي بعضها دفع وطلب وفي بعضها طلب بصورة الدفع[1].

---

(١) هذه الأقسام تعرف بالاستقراء وأعلاها (الدهم) وهو الذي يقصده العلماء بقولهم وجهاد الدفع لا يشترط له شرط وذلك حين يدهم العدو الصائل بلد الإسلام ويدخلها من أقطارها؛ ثم دونه جهاد الدفع مع الطلب حين يستقر العدو الخارجي أو الداخلي في البلد ويحكمها ويعيش الناس في ظله فمن جاهده بعد ذلك فهو دفع مع طلب لأنه يحدد ساعة الجهاد لذلك ينظر في الإمكانات والاعداد قبل البد في المواجهة بهذا النوع؛ وجهاد الطلب بصورة الدفع وهو قصد العدو الصائل أو المحتل في بلده الأم للنكاية فيه فلا يستوي هذا مع الدهم والدفع ولابد من تفصيل لهذه الأنواع ومتعلقاتها وأحكامها.

فحشْد الطاقات مِن جميع البلاد؛ مِن قِبَل جهات غير موثوقة تحت مسمىٰ وتوصيف جهاد الدفع عموما دون بيان نوعه وحقيقته ومرحلته؛ لجذبها إلىٰ ساحة مُحدّدة أو فصيل أو جماعة معينة؛ صار يُثير علامات الإستفهام!

أخيرا يُحارب البعض الغلو؛ ويَخافون علىٰ التيار منه؛ ويُرجِعون سبب انحرافاته وانتكاساته لدخول الغلو فيه!

ولست من هؤلاء.

فدخول آفة التزكيات غير المنضبطة بضابط وضوح الغاية والوسيلة؛ كانت أبكر وأخطر من آفة الغلو.

وتشويهها للتيار وتشتيت طاقاته بسببها كانت أولا.

وما دخول الغلو علىٰ التيار إلا جزء وتابع لآفة التساهل في التزكيات؛ لو أنّا دققنا وأمعنا النظر وراجعنا الأحداث.

لقد ناصحنا ووجّهنا من نعدّهم مِن أأمن الناس علىٰ الغاية ووسيلتها عندما خشينا علىٰ شيء فيها؛ وذلك في الوقت الذي تسلّق علىٰ نجوميّة هؤلاء القادة؛ المتسلّقون؛ ولم نسكت خشية من اهتزاز صورتنا؛ أو خوفا من افتراءات الشانئين!؟

فلا يتوقّع منّا مَنْ هو دونهم؛ السكوت.

الوقفة الخامسة عشر

بين قتال النكاية وقتال التمكين

من المعلوم أن العلماء يقسمون الجهاد إلىٰ نوعين؛ جهاد دفع وجهاد طلب هذا من حيث حقيقته، كون الأول يكون دفعًا عن دار الإسلام وحرمات المسلمين إذا دهمهم العدو، والثاني يكون بطلب الكفار في ديارهم أو قتالهم حيث كانوا..

أما من حيث ثمرات الجهاد وآثاره ونتائجه فهو ينقسم إلىٰ ما كان من جنس قتال النكاية وما كان مندرجًا تحت قتال التمكين..

- فالقتال الذي يكون الهدف منه التنكيل بأعداء الله ولا تتعدىٰ ثمراته النكاية في الأعداء وإغاظتهم والنيل منهم وإرهابهم أو كف أذاهم عن بعض المسلمين أو استنقاذ بعض المستضعفين أو فك الأسارىٰ، فهو حتىٰ وإن لم يؤدي عاجلًا إلىٰ تمكين للمسلمين إلا أنه عمل صالح مشروع، وأهله إن شاء الله من المحسنين، رضي بذلك المنهزمون المندحرون أم أبوا..

فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾.

وقال ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾. فحث الله عباده علىٰ القتال في سبيله عمومًا وفي سبيل استنقاذ المستضعفين من المسلمين.

فذلك عمل صالح مشروع أيضا..

وكان النبي ﷺ إذا عاد مريضا دعا له بقوله: (اللهم اشف عبدك يمشي لك إلىٰ صلاة وينكأ لك عدوًا) فجعل النكاية في الأعداء من وظائف ومقاصد حياة العبد المسلم، وجعلها في الدعاء للمريض ليذكّر المسلمين دومًا بها ويحرّضهم عليها وينبّههم إلىٰ أن يغتنموا عافيتهم لتحقيق المقاصد العظيمة والجليلة التي خلقوا من أجلها وأنّ من أجلّها هذان المقصدان: عبادة الله وحده ونصرة دينه بالنكاية في أعدائه، فمن أجل ذلك يحيا المسلم، وهذه أعظم وظائفه التي إن أقعده عنها المرض سأل الله المعافاة ليرجع إليها..

وهذا النوع من القتال هو الغالب علىٰ قتال شباب المسلمين في زماننا في أقطار الدنيا اليوم.. وهو وإن كان عملا صالحًا كما قلنا وله ثمراته الكثيرة التي ليس هذا مجال عَدّها.. إلا أن هناك نوعًا آخر من أنواع القتال، يجب علىٰ المسلمين تركيز جهودهم عليه وتوجيه طاقاتهم إليه؛ ألا وهو قتال التمكين أو التحرير كما هو في مصطلحات العصر، فهذا النوع يحتاجه المسلمون اليوم حاجة ماسة وفيه من النكاية في أعداء الله ما فيه؛ إلا أن ثمراته لا تنحصر في النكاية أو تحرير بعض المستضعفين ونحوه كما هو شأن النوع الأول، بل من أهم ثمراته التمكين للمسلمين في الأرض، ومعلوم أن من أعظم مصائب أهل الإسلام اليوم أن لا تكون لهم دولة إسلامية تقيم دينهم في الأرض ويأوون إليها..

وهذا النوع من القتال أعني القتال لأجل التمكين للمسلمين في الأرض أو تحرير بعض بلادهم من أيدي الطواغيت المتغلبين أو المحتلين الغاصبين يحتاج إلىٰ إمكانات وشروط مختلفة عن قتال النكاية، ويحتاج إلىٰ خطة شاملة وواسعة يشترك فيها أولي البصر والدراية والخبرة من العلماء الربانيين والدعاة العاملين والمجاهدين الصادقين الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، بحيث يتولون أمر هذا الجهاد ويرعون نبتته حق الرعاية بأكفهم المتوضئة وتوجهاتهم النقية ونواياهم المخلصة إلىٰ أن تينع ثمراته لتقطفها الأيدي ذاتها والنوايا والتوجهات نفسها لا غيرها..

فلا يجوز شرعًا ولا عقلًا أن يجاهد المجاهدون الصادقون ويخلّصوا بجهادهم أو يحرّروا بعض بلاد المسلمين؛ ليتسلق بعد ذلك علىٰ جماجم الأبطال ودماء الشهداء من يقطف ثمرة جهادهم من خلال الإحتكام إلىٰ الديمقراطيات وصناديق الإقتراع والإنتخابات أو غير ذلك من الطرائق الجاهلية التي تعتمد علىٰ الأكثرية المنحرفة والتي أوصلت إلىٰ الحكم كل نطيحة ومتردية وموقوذة، بعد جهاد طويل ومضنٍ للمجاهدين الصادقين..

لماذا يستحيي المجاهدون المقاتلون الصادقون أنفسهم الذين دحروا الروس أو الصرب أو غيرهم في أفغانستان أو الشيشان أو البوسنة بقوتهم وجهادهم؛ لماذا يستحيون أو يخجلون أو يستنكفون من تسلم أزمة الأمور بالقوة نفسها التي حرّروا بها البلاد؟

أليسوا أولىٰ الناس بتسلم أزمّة الأمور..؟

كم ساءني وأحزنني ما قرأته ذات يوم من كلام بعض قادة المجاهدين العسكريين البارزين في بعض البلدان حين سئل في لقاء صحفي؛ أن هل سيتولىٰ الحكم هو وأمثاله من القادة العسكريين في حال انتهاء حرب التحرير .. فأجاب بالنفي وأوضح أنه مجاهد وغايته قتال أعداء الله في أي

مكان (يعني فقط جهاد نكاية) أما الحكم والسياسة فلها أهلها ونحن لسنا أهلها . . !!

هذا الكلام السخيف لا ينبغي أن يصدر عن مجاهد يحترم جهاده ويحترم دماء الشهداء وتضحيات المجاهدين وأعمار الشباب وطاقات الأمة التي شحنت في تلك الجبهات، ويعرف مصاب الأمة بفقدها دولة الإسلام وحاجتها الماسة إلىٰ دار تأوي إليها وتنطلق منها . . وهذا ليس تشكيكا مني في الأخ المذكور فلا أشك بأنه يعرف ذلك كله ويحترمه . . ولكن لا أدري ما باعث هذا الكلام أَوَرَعٌ بارد أم استنكاف أم تواضع في غير محله أم كلام سياسي غير حقيقي؟؟

لماذا لا يكون في حسابات المجاهدين أن يتولوا الحكم وزمام الأمور بعد التمكين هم بأنفسهم الذين صدقوا في الميدان وثبتوا خلف المدافع وفي حقول الألغام. . ؟

أليس هؤلاء أخلص الناس وأنظفهم وآمنهم علىٰ الحكم؟

لماذا يستنكف هؤلاء عن الحكم؟

وإلىٰ متىٰ تبقىٰ مشاريعهم لا تتعدىٰ قتال النكاية وأُمْنية الاستشهاد؟ وأي حرج أو أي مانع يمنع من تبني مشروعِ التمكين والسعي له مضافًا إلىٰ النكاية وأُمْنية الإستشهاد؟

أليس من الفقه السليم والواعي أن نعرف مقام ورود كثير من الآثار التي حكيت عن كثير من شهداء الإسلام من صحابة أو تابعين أو غيرهم؛ من أنّ أكثر أمانيهم ودعواتهم كانت تنصبّ علىٰ أن يعقر جواد أحدهم ويكسر سيفه في جماجم الأعداء ويرزق الشهادة؛ أنّ أكثر ذلك كان في ظل خلافة ودولة للمسلمين . . وأن الأماني والدعوات في حال عدم هذه الدولة

يجب أن تتوسع لتشمل السعي إلىٰ تحقيق عز الإسلام والتمكين للمسلمين؛ مضافًا إلىٰ تلك الأماني الأُوَل. .

ولماذا لا نكاد نفرح ببعض الجبهات التي تعدّىٰ تفكير أهلها ومشروعهم قتال النكاية ووضعوا في حساباتهم السعي للتحرير أو التمكين، إلا ويعكر صفو ذلك الفرح قيادات أو شخصيات نكدة مشوشة الولاء منحرفة التصورات متخبطة المنهاج يمنحهم القادة العسكريون من المجاهدين ولاءهم، يجلسون خلف المكاتب والشاشات لا في الخنادق وخلف المدافع، وينتظرون قطف الثمار!! أو يخرجون لنا من صناديق الإقتراع التي يسلّم لها بعض المجاهدين ثمرة دمائهم وأرواحهم!!

أي نكدٍ هذا الذي تكرر مرارًا مع المسلمين في تجارب شتىٰ خلال حقبةٍ زمنية قصيرة في هذا العصر . . ولأجل ذلك لم يوفّقوا لإقامة دين الله في الأرض ولم يُمكّنوا لتحكيم شرعه؛ رغم كثرة المخلصين والمجاهدين ووفرة الشهداء والمضحّين. .

لماذا يجوز لدكتاتوريات وطواغيت ومجرمين وقتلة بل ومخانيث أن يقتحموا قصور الحكم في بلادنا علىٰ ظهر الدبابات ليحكمونا ويحكموا الأمة بأهوائهم وقوانينهم وكفرياتهم ويدجّنوها ويطوّعوها لأوليائهم الغربيين والأمريكان. .

ولماذا جاز لمن كان قبلهم أن يتآمروا علىٰ الخلافة وينقلبوا عليها وينتزعوا الحكم من المسلمين ويحكموهم بأحكام المشركين بقوة السلاح . . ولا يجوز للمجاهدين المسلمين الموحدين، أو يستنكف بعضهم ويتورعون من أن يتغلّبوا عليهم وعلىٰ أمثالهم، ويستردوا ما انتزع منهم ومن إسلامهم بالقوة نفسها فيطوّعوا العباد لله وحده ويخرجوهم من عبادة العباد. .

أيُّ تدجينٍ للهمم هذا؟ وأي تخنيث للعزائم والعقول؟

وأي انتكاس للأفكار يجعل المسلمين كالدجاج أو كالنعاج . . ويحظر عليهم في زمن القوة ما هم أولىٰ الناس به من القوة والذبح والسيف الذي بُعث به نبيهم ﷺ بين يدي الساعة حتىٰ يعبد الله وحده. .

لا بد أن يعيد القائمون علىٰ الجهاد في بلاد المسلمين النظر في أهداف جهادهم وبرامج وخطط قتالهم، ولا بدّ أن يحسموا في حساباتهم وبرامج هذا القتال؛ أمر العمل لأجل التمكين للمسلمين في الأرض.

ولا بد مع ضرورة التركيز علىٰ ذلك وحث الخطا إليه؛ أن يدرسوا ميادين قتالهم ويرجحوا الأنفع للمسلمين والأقرب إلىٰ هذه الغاية المهمة. .

ولا بد أن ينتقوا قياداتهم بعناية ويراعوا فيها الإخلاص والعلم بالشرع والوعي في الواقع والشجاعة والحزم والمبادرة وعدم التلكؤ أو التردد عن تولي زمام الأمور عند الحقائق . . حتىٰ لا تذهب ثمرات جهاد المجاهدين سدىٰ أو يقتطفها من لا خلاق لهم. .

وليتنبهوا إلىٰ أن أكثر العمليات القتالية في بلاد المسلمين اليوم هو من جنس قتال النكاية وإن عظم شأنها. .

وعلىٰ رأس ذلك كله ما حصل في واشنطن ونيويورك من عمليات ضخام خطط لها بإحكام فإنه لا يخرج علىٰ ضخامته عن هذا النوع من القتال. .

ومثل ذلك قتل الطاغوت السادات في فرصة سنحت للمسلمين في مصر وإقدامهم عليه دون أن يكون عندهم إمكانية تسلم زمام الأمور في البلاد فهو وإن أشفىٰ صدور قوم مؤمنين لا يخرج عن النكاية ما دام لم يحقق لهم التمكين بل عجّل بولاية طاغوت آخر.

وحتىٰ ما يقوم به المسلمون اليوم في العراق بل وفي فلسطين من قتال للأمريكان أو اليهود فإنه كذلك ما دام أهل الإسلام هناك أضعف وقياداتهم ومشايخهم أهزل من أن يتولوا قطف ثمار هذا القتال لو حصل فيهما شيء من التحرير[١]. .

إذ لو حررت هذه البلاد أو حرر أجزاء منها من الأمريكان أو اليهود في ظل ضعف المسلمين اليوم وفقدانهم للقيادات الراشدة، فتولىٰ الحكم فيها علمانيون كفرة لما كان هذا من التمكين لدين الله في شيء؛ فهو لا يعدو والحال كذلك عن كونه استبدالًا لطاغوت عربي بطاغوت أجنبي. .

ولقد كانت تجارب المجاهدين في أفغانستان والشيشان والبوسنة أحسن حالًا من حيث زخم الأنصار وحماسهم والصبغة الإسلامية القوية التي اصطبغت بها تلك الميادين ومع ذلك لم يقطف المجاهدون الصادقون فيها الثمار لأسباب يجب علىٰ القائمين علىٰ الجهاد دراستها وتأملها وإعادة النظر فيها؛ جعلت سعي المسلمين وجهاد المجاهدين والشهداء لا يخرج في خاتمة المطاف عن قتال النكاية إلىٰ قتال التمكين.

ومن هذه الأسباب كما قدمنا استنكاف أو عجز أوعدم مقدرة المجاهدين الصادقين عن قطف ثمار الجهاد؛ لضعفهم أمام موازين قوىٰ أخرىٰ في تلك البلاد أو لنزولهم -ويا للأسىٰ- عند رغبات الأغلبية والجمهور الذين قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ

(١) **تنبيه هام**: نلفت نظر القاريء إلىٰ أن تاريخ كتابة هذا الكلام كان في بداية الاحتلال الأمريكي للعراق وقبل أن يصبح للمجاهدين قياداتهم ومرجعياتهم المعروفة والمزكاة من كثير من قادة الجهاد كالشيخ أسامة وأيمن الظواهري وغيرهم . . نسأل الله تعالىٰ أن ينصر دينه ويمكن لأوليائه.

بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وذلك بالاحتكام إلىٰ صناديق الإقتراع كما حصل في الشيشان حيث قفز من لا خلاق لهم إلىٰ السلطة عبر تلك الصناديق..

أو لمشاركتهم وتحالفهم مع الأحزاب المهترئة والمنحرفة والتي كان لها ثقل أقوىٰ في الواقع وبين الناس مما ساعد قادتها أَمثال رباني وسياف وأضرابهم من أن يتسلّقوا علىٰ جماجم الشهداء ودماء المجاهدين إلىٰ كراسي السلطة بعد تحرير أفغانستان والقضاء علىٰ نظام نجيب فيها .. وهو أمر لم نتفاجأ به وإن تفاجأ به غيرنا، فقد كنا نحذّر من إنحرافات تلك الأحزاب ونستنكف عن القتال في صفوفها وننبه علىٰ تصريحات قادتها الذين وإن كان أكثرهم يصطبغ بالصبغة الإسلامية إلا أنهم كانوا يعلنون صراحة وليس بلحن القول؛ أنهم يسعون إلىٰ دولة إسلامية ديمقراطية!! ويصرّحون بأخوّتهم لكثير من طواغيت العرب والعجم، والمكتوب كما يقال يقرأ من عنوانه، فهؤلاء هم من سيقطف الثمار وسيتولىٰ الأمور وهذا حالهم .. إلا أن المتحمسين كانوا يأبون ويقولون: وإن، وإنْ .. أليس قتال أعداء الله عموما مشروع؟

ألم يقل الله تعالىٰ: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾؟

فقتال النكاية في أعداء الله عموما مشروع وإن لم نجن الثمار .. وهكذا كانت في النهاية طموحات القوم لا تتعدىٰ وسط الحماس هذا النوع من القتال..!!

هذه التجارب أشير إليها إشارة هنا وإن كان الواجب علىٰ الحركات الجهادية دراستها دراسة واعية، والإعتبار من دروسها وتجاوز أخطاءها وعدم تكرارها واجترارها .. وليس هذا موضوع هذه الوقفة وإنما موضوعها حث المجاهدين علىٰ التوجه إلىٰ قتال التمكين والتركيز عليه ورعاية ثمراته وتولي قطافها .. والتنبيه إلىٰ أن جهادهم وجهودهم في أكثر بقاع الأرض

اليوم مبعثرة في أعمال لا تخرج عن قتال النكاية، وإن كانت في بعض الأحيان قد تأخذ طابع السعي للتمكين أو التحرير إلا أنها في خاتمة المطاف لا تخرج عن قتال النكاية بسبب عدم نضوجهم أو مقدرتهم علىٰ قطف الثمار أو لانحرافهم وتخبطهم أو غير ذلك من الأسباب المتقدمة، وتولي غيرهم لذلك. .

أخيرًا إذا وضح الفرق بين نوعي القتال المذكورين وعلمت حاجة المسلمين إلىٰ التركيز علىٰ قتال التمكين وأهمية توجيه طاقاتهم إليه؛ ألخص بعض ما تقدم وأعرج علىٰ تنبيهات سريعة متعلقة بالموضوع. .

- لا يصح أن تنشغل الأمة كلها أو أكثرها بقتال النكاية وتهمل قتال التمكين أو التحرير، بل يجب أن تركز الجهود علىٰ بقعة من بقاع الأرض للمسلمين فيها نوع من أنواع الشوكة أو القوة ولهم فيها مرجعية أو قيادة ذات بصر في الشرع والواقع تصلح أن يلتف الناس حولها، ويسعون لتمكينها في الأرض ليقيموا للمسلمين دولة يأوون إليها وينطلقون منها. .

- من الخطأ أن تلهب عواطف الشباب ومشاعرهم لتوجيههم إلىٰ قتال النكاية ويدفعوا بدافع الحماس إلىٰ جبهات يُزمّر لها الإعلام ويُطبل دون دراسة لواقعها والثمرات المرجوّة منها، ويُصرفون بذلك عن جبهات قد يكون التمكين ثمرة حقيقية لها لو أنها وجدت الإمكانات والأنصار. .

- من باب ميزان المصالح وفقهه ووجوب تقديم أعظم المصالح علىٰ الأدنىٰ عند التعارض؛ لا يجوز أن يُحبط قتال التمكين أو يُعطل أو تُبطل ثمراته بتقديم بعض أعمال النكاية عليه أو معارضته بها، أو تعريضه للضرر بسببها، عند من كانت عنده خطة وبرنامجًا لذلك، وكان يحترم جهاده وطاقات المسلمين وجهودهم وأعمار شبابهم ودمائهم.

• فالنبي ﷺ ترك قتل كثير من المنافقين الذين أظهروا بعض الأذىٰ في المدينة، وقتلهم لا شك من النكاية في أعداء الله الممدوحة، كما أقرّ اليهود فيها علىٰ خبثهم وأذاهم وذلك قبل الإثخان في الأرض واكتمال التمكين مع أنهم لم يكونوا ذمة ولا صاغرين، فترك قتل أولئك وأجَّل هؤلاء، حفاظا علىٰ التمكين الذي كان في أوله . . وهذا فيه من الفقه الذي يجب أن يتنبه إليه ما فيه، فلما أعز الله المسلمين في بدر قام بعدها ببعض أعمال النكاية في اليهود فقتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود ولكن لم يتوسع في ذلك وإنما اكتفىٰ بقتل من كان يؤذيه ممن لا مفسدة علىٰ أهل الإسلام ودارهم في قتلهم إلىٰ أن حصل له الإثخان في الأرض وتغيّرت الموازين فأنزل الله تعالىٰ عليه قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ ونحوها من الآيات. .

• ومن جنس ذلك أيضًا أمره لحذيفة لما بعثه يستطلع أمر الأحزاب حين أحاطوا بالمدينة (أن لا يحدث فيهم شيئًا) وفي رواية مسلم (لا تَذعِرهم عليّ) وامتناع حذيفة عن قتل أبي سفيان سيد القوم مع أن قتله آنذاك من أعظم النكاية في أعداء الله، فتركه مع تيسره له وسهولته عليه عملا بوصية رسول الله ﷺ ألا يَذعرهم علىٰ المسلمين، ففيه ترك قتال النكاية دفعًا ودرءًا للمفسدة التي قد يستجلبها ذلك علىٰ المسلمين ودارهم قبل اكتمال تمكينهم وإثخانهم في الأرض. .

ففي هذا الهدي تقديم مصلحة المسلمين الراجحة ومصلحة دفع الضرر البالغ عنهم وعن تمكينهم علىٰ قتال النكاية. .

- بل إن التضحيات التي تبذل في قتال النكاية لا ينبغي أن تعادَل بتلك التي تبذل في سبيل تحقيق التمكين. .

فأنا أستوعب أن يترك الدعاة دعوتهم ومشاريعهم التربوية والدعوية والعلمية والدراسية في بلادهم ويفرغوا الساحة من الدعاة وطلبة العلم

ويتوجهوا ليرجحوا كفة القتال في بلد تعقد الآمال فيه علىٰ التمكين أو التحرير . .

أما أن يتركوا دعوتهم أو يُعيَّروا بلزومها، وتستنفر الطاقات وتفرغ الساحات من العاملين وأنصار الدين لأجل قتال لا يخرج عن كونه من نوع قتال النكاية فليس هذا من فقه ميزان المصالح والمفاسد الشرعي . .

فقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، أي: أصلح.

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ فهذا أمر لعباده أن يتبعوا أصلح الأعمال وأحسنها نفعًا لدينهم ودنياهم . . ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾.

- وكذا لا يصح أن يُهيّج الشباب لترك دعوتهم ويُعيّروا بلزومها ويستنفروا ويزج بهم في معارك خاسرة بدعوىٰ مؤازرة بعض من لا صبر لهم علىٰ الدعوة إلىٰ الله ممن تعجل مصادمة غير محسومة مع أعداء الله، أو تورط ببعض الأخطاء الأمنية فطورد من قبل النظام، أو أي عمل آخر لا تخرج حقيقته عن قتال النكاية ما دام أولئك الشباب قد اختاروا برنامجًا دعويًا متئدًا، فمثل تلك الأعمال لا يصح أن تعارض بها البرامج الدعوية الصحيحة التي تكون علىٰ منهاج التوحيد فضلًا عن أن تكون سببًا في إهمالها أو تدميرها، بخلاف قتال التمكين فله حساباته المختلفة.

- وفي قتال النكاية قد يتساهل في أشياء لا يجوز أن يتساهل بها في قتال التمكين، خصوصًا في شأن اختيار القيادة التي يقاتل معها، فقد يكتفىٰ في أعمال النكاية بالقائد العسكري مع قصوره في العلم الشرعي وقد يتساهل ببعض معاصيه أو انحرافاته التي لا تصل إلىٰ الكفر، أما في قتال التمكين فينبغي علىٰ العقلاء أن لا يسلموا أزمة الجهاد إلا للقيادة الربانية

الموحدة العارفة بالشرع الواعية بالواقع والتي تصلح للحكم بما أنزل الله ولقطف ثمار جهاد المجاهدين، حتىٰ لا تتكرر نكسات المسلمين هنا وهناك. .

وهذا أمر لا ينبغي التفريط به ما دام الإختيار بأيدي المجاهدين، ومجاله واسعًا . . أما إذا ضاق الأمر فجواز القتال مع الأمير الفاجر -الذي فجوره علىٰ نفسه- لدفع الكافر مشروع من باب دفع أعظم الشرين أو المفسدتين باحتمال أدناهما. .

فإن أمكن بعد ذلك خلع الفاجر وتولية البرّ وجب ذلك. .

لكن حذار ثم حذار من عدّ اختيار الديمقراطية نظامًا للحكم أو موالاة طواغيت الشرق والغرب منهجا أو التكالب علىٰ الشرعية الدولية الكفرية والمشاركة بمؤسساتها؛ أقول حذاري من اعتبار ذلك ونحوه من الطوام فجورًا وحسب، فتختل الموازين وتنحرف التصورات وتتخبط الحسابات.

هذه بعض الأمور التي أردت التنبيه عليها في هذه الوقفة . . ولم يكن مرادي بحال التقليل من شأن قتال النكاية المضبوط بضوابط الشرع المراعي لمصالح المسلمين الأهم منها فالأهم، الواعي والمُظهر للجهاد الإسلامي بصورته المشرقة، كما لم يكن قصدي أبدًا الطعن في المجاهدين في سبيله، فكل من يعرف خطابي ويتابع ما أكتب يعلم دفاعي عن الجهاد والمجاهدين عمومًا، بل وذبي عن غزوات نيويورك وواشنطن وأبطالها مع أنها لا تخرج عن هذا النوع كما قدمنا . . ومعاذ الله أن أطعن في زمن الخنوع والإنبطاح في أيّ مجاهد باع نفسه وروحه لله . . ولكنه الحرص علىٰ جهاد المسلمين وجهودهم وإمكاناتهم أن توجه إلىٰ الأنفع والأصلح والأحسن لدين الله. .

ولذا أرجع وأختم هذا بأن أقول؛ إنه وإن كان أكثر جهاد شباب الأمة اليوم متجه إلىٰ قتال النكاية، وكان هذا النوع من القتال لا يثمر تمكينًا عاجلًا، وربما كان أكثره لا يكسر أعداء الله كسرًا قاضيًا، بل وبعضه لا ينال منهم في كثير من الأحيان إلا نيلًا يسيرًا؛ ولكنه إذا كان وفق خطةٍ واضحة وضمن اختيارات واعية وبوصلة أو وجهة صافية غير مغبشة أو مشوشة؛ فإن له ثمراته الكثيرة والعظيمة، وقد يصير إن وفق أهله إلىٰ وعي حقيقي في الواقع والإختيارات؛ مدرسة يتربىٰ فيها أبناء المسلمين ويتخرج منها من سيتولون بإذن الله تعالىٰ شأن قتال التمكين..

فإن هؤلاء لن يهبطوا علينا من السماء، كما وأنهم لن يأتوا من حضن جماعات الإرجاء، ولن يخرجوا من داخل صناديق الإقتراع..

بل لن يخرج أكثرهم إلا من خلف البنادق ومن حفر الخنادق ومن رحم جهاد المسلمين هنا وهناك..

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

الوقفة السادسة عشر

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾

يقول الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤]

فهذه الآية العظيمة نزلت في رجل مرّ بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعىٰ غنمًا له فسلم عليهم؛ فقالوا: لا يُسلّم علينا إلا ليتعوّذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية..

وفي رواية تفرد بها أحمد أن الذي قتله؛ قتله بعد أن أظهر الإسلام لشيء كان بينه وبينه في الجاهلية .. وعند ابن جرير أنه حيّاهم بتحية الإسلام وكانت بينهم إحنة في الجاهلية فرماه رجل منهم بسهم فقتله..

وروىٰ البخاري تعليقا أن رسول الله ﷺ قال للمقداد: (إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فقتلته، فكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة من قبل) وروىٰ البزار أن سبب قول رسول الله ﷺ هذا للمقداد أن المقداد كان في سرية فأتوا علىٰ قوم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد .. وفيه أن الآية نزلت بسبب ذلك.

وقال ابن كثير عن قوله تعالىٰ ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾: (أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم علىٰ قتل مثل هذا الذي

ألقىٰ إليكم السلام وأظهر لكم الإيمان فتغافلتم عنه واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أهـ.

ففي هذه الآية وسبب نزولها عبرة وعظة يحذرنا الله تعالىٰ فيها من بعض أهواء النفس الإنسانية وشهواتها الخفية التي قد تميل إلىٰ المكسب والغنيمة أو تنساق وراء الثارات النفسانية وغير ذلك من حظوظ النفس البشرية ورغباتها وتتعامىٰ في خضم ذلك ولميلها إليه عن بعض ظواهر أو علامات العصمة وموانع الإباحة، فتهجم علىٰ أهداف سهلة وقد تتجنب أهدافًا ذات شوكة لا لمصلحة الجهاد؛ وإنما انسياقًا وراء حظوظ النفس وميولها ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ . . فنهانا الله عن ذلك وحذرنا منه وبين سبحانه أنه هو الذي منّ علىٰ المسلمين بالهداية وإظهار دينهم وعقيدتهم فإذا كان بعض المستضعفين لا زالوا في بعض الأماكن والأوقات لا يقدرون علىٰ إظهار دينهم ومفارقة دار الكفر فكذلك كنتم أنتم من قبل فمنّ الله عليكم بفضله وكرمه فأعزكم وأظهركم؛ فتبينوا إذن ولا تتعجلوا بالحكم علىٰ أمثال هؤلاء ولا تهجموا علىٰ استباحة أموالهم ودمائهم معرضين عما يظهرونه لكم من علامات الإسلام، فعند الله مغانم كثيرة ورزق وفير فأبواب الجهاد كثيرة، والله قبل ذلك وبعده بما تعملون خبير لا يخفىٰ عليه شيء من دوافع النفس وخفاياها، وهذا تهديد ووعيد كي يتقي المسلم الله في جهاده وقتاله فيضبطه بضوابط الشرع ويصفيه من حظوظ النفس وشهواتها . .

فالنفس قد جبلت علىٰ كراهية القتال وما يكتنفه من مخاطر، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ . . ولذا فهي تميل إلىٰ تجنب القتال وتحب المغانم وتتخيّر

الأهداف السهلة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

قال تعالىٰ عن المؤمنين في أول معركة خاضوها: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ هكذا أخبرنا الله عن خفايا نفوسنا وما تميل إليه وتوده من المغنم السهل الخالي من العناء والأذىٰ والمخاطر وما تكرهه من القتال والمغامرة بالأرواح، ولأن الله سبحانه أعلم منا بما ينفعنا وينفع ديننا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾؛ فقد وجّهنا سبحانه واختار لنا ما يحبه لنا ولديننا وما يريده شرعًا منا مما فيه إعزاز دينه وأوليائه وكبت الشرك وإذلال أهله..

فقال ﷻ: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧، ٨].

والخلاصة .. أن الله يريد لجنده المجاهدين أن يتخيروا من الجهاد..

- الأنفع للمسلمين والأنقىٰ لدينهم ودعوتهم الذي يرفع راية الحق نقية واضحة من غير لبس، إذ أن من أهم غايات الجهاد وثمراته إحقاق الحق والتمكين لأهله ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾

- والأنكىٰ في الشرك والمشركين الذي يقطع دابرهم ويبطل باطلهم ويستأصل شركهم..

وجعل في ذلك أيضًا الخير والمغنم الذي تحبه النفس (الخيل معقود في نواصيها الخير إلىٰ يوم القيامة الأجر والمغنم) رواه البخاري.

فلا داعي إذن أن يتتبع المجاهدون شيئًا من الأهداف المشبوهة سعيا وراء المغنم السهل، فإنهم سيجدون في خضم هذا الذي أحبه الله واختاره

لهم مغانم كثيرة ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾..

وهكذا فباتباع المجاهدين لأمر الله وما يحبه سبحانه لهم ويختاره يجمعون بين نصرة دين الله وإحقاقه وبين قطع دابر المشركين وإبطال باطلهم، ويشفي الله صدورهم بإباحة أموال أخبث وألد أعدائهم لهم..

وقد جمع الله ذلك للمؤمنين الأوائل وجعله من ثمرات جهادهم لما أحبوا ما أحبه واختاروا ما اختاره لهم، فقال تعالىٰ: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾

فلا ينبغي للمجاهد أن يستبدل الذي هو أدنىٰ من الأهداف التي تميل إليها أهواء النفس -وإن كانت مشروعة في كثير من الأحيان- بما يحبه الله ويرتضيه لأهل هذا الجهاد ودينهم مما فيه إحقاق للحق وإبطال للباطل وقطع لدابر الكافرين.. أقول هذا علىٰ ضوء آيات الأنفال المتقدمة مع أن المفاضلة فيها بين ما يريده الله من القتال الأنكىٰ والأقطع لأعداء الله المبطل لباطلهم وبين ما ودّه المؤمنون آن ذاك وكان أمرًا مشروعًا غير مستنكر لا من أهل الإسلام ولا من غيرهم وهو غنيمة أموال كفارٍ حربيين أخرجوا المسلمين من ديارهم وِأموالهم وآذوهم وعذبوهم؛ فكيف إذا ترك المقاتل الجهاد الأنقىٰ والأنفع لدين الله والأنكىٰ والأقطع لأعداء الله، وذهب يتتبع لا أهدافًا سهلة مشروعة، بل سهلة مشتبهة أو معصومة محرمة في كثير من الأحيان؛ لا شك أن هذا يدخل تحت وعيد وتهديد آية النساء المتقدمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾..

واليوم نرىٰ كثيرًا من الشباب الفقراء من العلم الشرعي يتركون أهل الأوثان ويقاتلون أهل الإسلام شعروا أو من حيث لا يشعرون إذ يرغبون عن قتال أعداء الله المحاربين لأن في قتالهم كره وأذىٰ ومخاطر ودماء،

ويتخيرون أهدافًا سهلة، لا أقول إن أكثرها من عوام مجتمعاتنا الذين قد يتلطخون ببعض المكفرات المحتملة غير الصريحة ولا الظاهرة وحسب، بل أكثرها من فسّاق المسلمين يغيرون علىٰ محالهم وحوانيتهم وبيوتهم ليغنموا أموالهم ويستحلوها لأدنىٰ شبهة ويكفرونهم لأدنىٰ سقطة دون مراعاة لواقع الإستضعاف ودون نظر في موانع وشروط التكفير هذا علىٰ فرض أن سقطاتهم تمت إلىٰ المكفرات بصلة فكيف وقد رأينا من يستحل أموال النساء لتبرجهن أو لشبهة تحوم حول سلوكهن، ومنهم من يختبر سائق سيارة أجرة بأن يوجهه إلىٰ محل بيع للخمور فإن توجه استحل سلب ماله .. ومنهم من يخون الأمانة ويجحد الدَّين أو يتهرب من سداده إستحلالًا لمال من يخالفه بعدم تكفير فلان من الطواغيت أو فلان من علماء السلاطين!!

وأخيرًا بلغني عن بعض المتهوّرين الغلاة في ظل الفوضىٰ العارمة اليوم في العراق تحت ظل الإحتلال الأمريكي؛ أنهم تركوا قتال الصليبيين الأمريكان وتحولوا إلىٰ الإغارة علىٰ عوام الشعب العراقي بدعوىٰ لا أسخف منها؛ حيث زعموا أن تركيبة الشعب العراقي تتوزع ما بين ٦٠٪ رافضة وهم يكفرونهم رؤوسا وعواما و٢٠٪ ما بين صابئة وآشوريين ويزيديين من عبدة الشيطان و٢٠٪ ما بين نصارىٰ وبعثيين .. أو شيئا قريبا من هذا التقسيم السطحي العبثىٰ الذي إضافة إلىٰ اعتماده علىٰ دعاوىٰ وإحصائيات الرافضة الكاذبة المضخمة لهم؛ فإنه إحصاءٌ ظالم للمسلمين السنة إذ لم يبقىٰ لهم وجود..

وهو قبل ذلك إحصاء وتقسيم متبع لشهوات النفس التي تقدمت الإشارة إإليها ليسوغ به أصحابه الإغارة علىٰ كل بيت من بيوت العراقيين ممن لا شوكة لهم لتحصيل مغانم ومكاسب سهلة .. وهو تقسيم لا أظنه

صادر إلا عن اللصوص وقطاع الطرق الذين انتشروا في العراق ببركات الغزو الأمريكي لأراضيه..

فليتق الله المنتسبون لهذا الدين أن يصير هدف جهادهم أو قتالهم مجرد جباية الأموال دون التفات إلىٰ كونها من حلال أو حرام .. وليعلموا أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ولو كانوا عصاة فجارًا؛ معصومة بعصمة الإسلام لا يجوز استحلالها، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة) فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرًا يا رسول الله؟ فقال: وإن قضيبًا من أراك).

وفي صحيح البخاري أنه ﷺ قال: (إن رجالا يتخوّضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة)

وقال في خطبته في حجة الوداع: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض) متفق عليه.

والعالم بأصول هذا الدين الفقيه بقواعده يعلم أن مبناه في الدماء والفروج والأموال علىٰ الاحتياط، حتىٰ أنه درأ الحدود بالشبهات، وجعل شبهة الأمان أمانًا، ومنع من زوال اليقين الثابت سواء كان إسلامًا أم عصمة أم ذمة أم أمانًا؛ بالشك أو التخرص .. ومنع من التكفير بالمحتملات والظنون أو بلازم القول ومآله .. وغير ذلك مما أقامه لصيانة الدماء والأموال..

وأيضا فالجهاد إذا أراد له أهله أن يكون كما يحب الله ويرضىٰ فيجب أن تقدم فيه مصلحة الإسلام ويجرد من أهواء النفوس وتراعىٰ فيه السياسة

الشرعية والحرص علىٰ سمعة الجهاد فلا تطرح مسائله فقط علىٰ ضوء الحلال والحرام والمسلم والكافر والمعاهد؛ والحربي بمفهومه الإصطلاحي أي غير المعاهد ولا المستأمن ولو لم يكن من المقاتلين . . بل يجب علىٰ من كان حريصًا علىٰ الجهاد ومصلحته خصوصًا قبل الإثخان في الأرض أن ينظر في ثمرات العمل والمصالح المترتبة عليه ويدرس المفاسد المترتبة عنه إن وجدت ويرجح بين هذه وتلك، كما يجب التركيز علىٰ المحاربين المقاتلين دون غيرهم وكذا الطاعنين في الدين، وتجنب قتل غير المقاتلين ممن لا يظهرون العداوة للمسلمين في ظل ديار الكفر بحيث لو وجدت دار الإسلام لكانوا أولىٰ الناس بالذمة وأولىٰ الناس بقوله تعالىٰ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ فأي مصلحة للمسلمين باستهداف مثل هؤلاء واستعدائهم وهم يحترمون الإسلام وأهله ولا يطعنون في شرائعه مع أنهم ليسوا تحت سلطان الإسلام . . .

هذه أمثلة ولفتات أردت بها توسيع آفاق ومدارك الشباب وتبصيرهم بها، ففي ظل استضعاف المسلمين وشح مواردهم وإمكاناتهم يجب دائمًا أن يركزوا كما قلنا مرارًا علىٰ الأنقىٰ من القتال الأنفع لدين الله والأنكىٰ في أعداء الله . . وهذا الأمر يحتاج إلىٰ علم بالشرع وبصر بالواقع وفقه لميزان المصالح والمفاسد، ولا يبرر التخبط في هذا الباب أو يسوّغ إقدام البعض علىٰ أهداف غير مشروعة أو مضرة بالجهاد وسمعته وبمصالح المسلمين؛ دعاوىٰ السعي وراء تمويل جهاد المسلمين أو نحو ذلك من الحجج والمبررات، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، والغاية عندنا نحن المسلمين لا تبرر الوسيلة، بل للوسائل أحكام المقاصد؛ ولذلك فلا بد أن تكون الوسائل الموصلة لتحقيق غايات الجهاد مشروعة ونظيفة كنظافة جهاد المسلمين ونقاوة دينهم . .

فليتق الله كل عامل لهذا الدين في هذا الجهاد العظيم . . وليضع نصب عينيه دائمًا ما قاله الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: «إن الله بعث محمدًا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا».

الوقفة السابعة عشر

الخطاب الإعلامي للدعوة والجهاد بين الإفراط والتفريط

في سيرة نبيّنا عليه الصلاة والسلام من الفوائد العظيمة ما يثري ويغني الدعوة والجهاد، ويُسدّد طريق الداعية والمجاهد ويُوفقه لما فيه خير الدعوة والجهاد، ويعود عليه بالثمرات العظيمة، كما يجنّبه المفاسد والثمرات الضارة المشوّهة أو الخبيثة..

والدارس الواعي لهذه السيرة العطرة العظيمة علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، المتأمل فيها يعلم أن الله ﷻ كان يوجّه نبيه ﷺ كي ينتقي من الخطاب الدعوي والأعمال والاختيارات والأولويات ما يراعي به تارة:

- طبيعة المخاطب وخلفيته العقائدية أو الفكرية والأخلاقية وهذا يلزمه معرفة في الناس والرجال وعشائرهم وطبائعهم.

- ويراعي طبيعة المخاطب من حيث كونه معاندًا للدعوة محاربًا للدين أو غير محارب ولا معاند..

- وتارة تراه يراعي إمكانات الدعوة والطائفة المؤمنة أو طبيعة المرحلة والظرف والواقع والزمان..

يفعل ذلك كله وفقًا لميزان شرعي يراعي ويقدم أعظم المصالح عند تعارضها ويدرأ أعظم المفاسد عند تزاحمها دون إخلال بالثوابت الشرعية والعرىٰ الوثقىٰ والأركان الركينة للدين والتوحيد..

خذ علىٰ سبيل المثال في مراعاة طبيعة المخاطب وخلفيته الأخلاقية أو الاجتماعية أو الفكرية وما يعظمه ويحبه من المكارم والمحاسن . . خطابه ﷺ الدعوي مع قومه في مطلع دعوته والذي يحدث به أبو سفيان يوم كان عدوًا له وينقله عنه إلىٰ هرقل عظيم الروم لما سأله هرقل: ماذا يأمركم؟ فقال بعد أَن ذكر أصل خطاب النبي ورأسه وأسه وهو التوحيد؛ قال: (ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة).

فتأمل هذا الخطاب الذي رسخ في أذهان أعدائه آنذاك، وفي أحاديث أخرىٰ ورد أمره لهم بوفاء العهد وأداء الأمانة وإحياء الموؤودة وإنكار قتلها ونحو ذلك من محاسن الأخلاق التي يجمع علىٰ حسنها جميع العقلاء وتمتدحها الفطر السليمة ليعرّفهم ويظهر لهم محاسن دينه وأنه ما جاء إلا ليكمل محاسن الأخلاق التي يتباهىٰ ويفاخر بها ويجلّها عقلاؤهم وأشرافهم . .

ومن جنس ذلك خطابه لهم بملة إبراهيم وأنه ﷺ ومن معه من المؤمنين أولىٰ الناس بإبراهيم الذي تعظمه قريش وتنتسب إليه . .

ومثله قوله ﷺ لهرقل في كتابه إليه بعد أن ذكر التوحيد: (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين).

فإن فيه إشارة وتنبيه للأريسيين وهم أهل مملكة هرقل إلىٰ حرصه ﷺ علىٰ هدايتهم وبيان أن هرقل مسئول عن إضلالهم . .

وهذا النوع من الخطاب أعني إظهار الأنبياء حرصهم علىٰ هداية أقوامهم وإظهارهم خوفهم عليهم من العذاب الأليم مقرّر في دعوة الأنبياء ومن ذلك قول نوح لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

فأي حرج بعد هذا في مثل هذا الخطاب الذي يُظهر حرص الداعية أو المجاهد علىٰ هداية الناس أو حب الخير لهم أو نصرة المستضعفين وتخليصهم من تسلّط وإضلال الطغاة والظلمة لهم أو الحرص علىٰ نشر الأمن والعدل والإحسان ومحاربة الظلم والفساد والطغيان، والله لا يتحرج من هذا وينكره إلا أصحاب العقول الضعيفة الجاهلون بسيرة النبي ﷺ ودعوة سائر الأنبياء..

فديننا جاء لهداية الناس أجمعين ولإخراجهم من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله رب العباد .. ورسولنا بعث رحمة للعالمين..

وليس في هذا الخطاب تحريف للأصول أو تمييع للثوابت أو مداهنة للكفار أو ركون إليهم، بل هو حق مشرق وثابت من ثوابت ديننا يجب علىٰ الداعية بيانه وإظهاره وإبرازه للناس كافة، ولا مانع من التركيز عليه وتعمد الدندنة حوله مع من يحب مثل هذه المحاسن أو يعظمها من الكفار..

ومن جنس هذا ما رواه البخاري في قصة الحديبية لما جاءه من طرف قريش رجلٌ من بني كنانة فلما أشرف علىٰ النبي ﷺ وأصحابه قال ﷺ: (هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له) فبعثت له، واستقبله الناس يُلبون، فلما رأىٰ ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلىٰ أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرىٰ أن يُصدوا عن البيت)..

فتأمل معرفة رسول الله ﷺ وتفرّسه بأحوال الناس عمومًا في زمانه، ومن جنس ذلك قوله ﷺ: (الإيمان يمانٍ والكفر قبل المشرق والسكينة في أهل الغنم، والفخر والرياء، وفي رواية والخيلاء في الفدادين أهل الخيل والوبر)، ليُعرّف أصحابه بأحوال الناس وخلفيات من يتعاملون معهم، ولذلك لما أمر حسّان بهجاء قريش أمره أن يأتي أولا أبا بكر ليحدثه عنهم

وعن أيامهم وأخبارهم . . ولما بعث معاذًا إلىٰ اليمن قال له: (إنك تقدم علىٰ قوم أهل كتاب) فعرّفه أولًا بخلفيتهم العقائدية أو الثقافية سمها ما شئت، ثم دله كيف يتعامل معهم والأولويات التي يخاطبهم بها وبماذا يبدأ بدعوتهم، تأمل هذا كله وسجّله في فوائدك ثم تأمل خطابه وتعامله مع الناس علىٰ قدر عقولهم ومراعاته لما يعظمونه وإظهاره لهم وإبرازه وإعلانه ما دام من ديننا . . وإياك أن يضيق عقلك عن استيعابه أو تعدّه تلوّنًا أو مداهنة أو نحوه من جهل الجاهلين ففي البخاري عن علي رضي الله عنه: (حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذّب الله ورسوله).

ومن مراعاته ﷺ للمخاطب من جهة كونه معاندًا محاربًا أو مهادنًا غير محارب ولا معاند . . تطبيقه الحكيم وعمله في سيرته بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ﴾ . . .

ومن جنس ذلك قوله تعالىٰ لموسىٰ وهارون في شأن الطاغية فرعون في أول خطابٍ لهما معه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ . . فلما عاند الآيات الواضحات وجحدها واستكبر عنها . . قال له موسىٰ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

فتأمل طبيعة خطابهم معه ابتداء وطبيعة الخطاب معه بعد عناده . .

وخذ علىٰ سبيل المثال مراعاة إمكانات الدعوة والطائفة المؤمنة وطبيعة المرحلة والواقع في موضوع التدرج في تشريع الجهاد . . حيث كان الأمر

أولًا بالكف والعفو والصفح والإعراض عن المشركين والصبر علىٰ أذاهم..

ثم لما هاجر المؤمنون ووجدوا المأوىٰ والنصرة وكانوا في أوائل عهد دولتهم أذن لهم بالقتال لدفع أذىٰ المشركين ولم يوجب عليهم القتال إيجابا..

وفي هذه الفترة كان ﷺ يأخذ بالعفو الذي أمره الله به ويترك قتل من قد يترتب علىٰ قتله مفسدة علىٰ المسلمين فكان يسمع أذىٰ المنافقين ويبلغه أذاهم ويطلب منه أصحابه قتلهم فيقول: (دعهم لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه) وتارة يقول: (إذًا تُرْعَد له آنُفٌ كثيرة بيثرب).

وعاهد اليهود ووادعهم وأقرهم علىٰ أحلافهم التي كانوا عليها حتىٰ إنه ﷺ عاهدهم علىٰ أن يعينوه إذا حارب.. وكانوا بعد ذلك يؤذونه ويقولون راعنا وهو سب قبيح عندهم من الرعونة، ويقولون (اسمع غير مُسْمَع) ونحوه مما كان يصبر عليه ﷺ في حقه الشخصيىٰ وكانوا يُسلّمون عليه بالسام عليك، فيقول (وعليكم) ولا يزيد علىٰ ذلك ولا يتعرض لهم ويترك قتلهم لأذاه ونهىٰ أصحابه عن قتلهم لما استأمره بعضهم في ذلك، بل كان خطابه معهم رفيقا، ونهىٰ عائشة رضي الله عنها عن سبّهم مقابلة لذلك وقال لها: (الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه) وكل ذلك لا شك فيه عبرة يستفاد منها في مراعاة المرحلة التي تمر بها إمكانات المسلمين ودولتهم الناشئة وتمكينهم الذي في بداياته..

ثم كان الأمر بعد ذلك برد الاعتداء بمثله وقتال من أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم.

ثم أعز الله المسلمين ببدر وكان ذلك بداية عزتهم، حيث أذل ذلك رقاب أكثر الكفار الذين بالمدينة وأرهب سائر الكفار.. فقام ﷺ في هذه

الفترة ببعض أعمال النكاية في بعض اليهود الذين لم يكن في قتلهم مفسدة علىٰ أهل الإسلام ودارهم، فقتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود وأمثاله ولكنه لم يتوسع في ذلك بل اكتفىٰ بقتل من كان يؤذيه ممن لا يحصل في قتله مفسدة، إلىٰ أن استتب له الأمر أكثر في المدينة فأجلىٰ من أجلاه منهم وقتل من قتله، كل ذلك فعله بعد غدرهم أو نقض عهودهم ليكون فعله جامعًا لأهل المدينة ومن فيهم من حدثاء الإسلام ممن كانت بينهم وبين اليهود تحالفات ومصالح، ولو فعله قبل ذلك ودون أن تبدر منهم بادرة لأرعدت لهم آنفٌ كثيرة، ولكنه تدبير الله وتوفيقه إلىٰ الفقه السديد والسياسة الشرعية الحكيمة التي من حُرمها تخبّط وأضاع مصالح المسلمين وضيّع من استرعاه الله أمرهم . .

ثم لما حصل له الإثخان في الأرض أمر بقتال المشركين كافة وقتال اليهود والنصارىٰ حتىٰ يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . . وأمر بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . .

وهذا كله من مراعاة حال الفئة المؤمنة أو الدولة المسلمة وإمكاناتها وقوتها . .

ولذلك فخطاب الفئة أو الدولة المسلمة حال ضعفها للأعداء الداخليين والخارجيين ليس هو كخطابها بعد زوال ضعفها وليس هو كخطابها بعد قوتها، وهذه القوة أيضا يختلف الخطاب والنهج فيها بحسب وزنها فخطاب الدولة المسلمة واختياراتها في زماننا قبل أن تمتلك السلاح النووي الرادع مثلا ليس كخطابها واختياراتها بعد أن تمتلكه . . وهكذا . .

كل ذلك كما قدمنا دون مس بالثوابت أو تمييع للعرىٰ الوثقىٰ . .

فالإحسان والمداراة التي هي من أخلاق المؤمنين وهي كما هو معلوم غير المداهنة، وكذا العفو والصفح والإعراض عن أذىٰ المشركين وعدم بداءتهم بالقتال كل ذلك جائز حال ضعف المسلمين أو إذا اقتضته مصلحة الجماعة أو الدولة ولا يناقض أو يعارض ثوابت التوحيد والولاء والبراء ونحوها من العرىٰ الوثقىٰ..

ولأهمية هذا الأمر وكثرة النصوص فيه أخرج بعض العلماء التدرّج فيه من المنسوخ وعدّوه من المنسأ الذي يجوز للمسلم أن يختار منه ما يناسب حاله وقوته وضعفه وظرفه..

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (.. وصارت تلك الآيات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه، وصارت آية الصغار علىٰ المعاهدين في حق كل مؤمن قوي يقدر علىٰ نصر الله ورسوله بيده أو لسانه، وبهذه الآية ونحوها كان المسلمون يعملون في آخر عمر رسول الله ﷺ وعلىٰ عهد خلفائه الراشدين، وكذلك هو إلىٰ قيام الساعة، لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمين علىٰ الحق ينصرون الله ورسوله النصر التام، فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف أو في وقت هو فيه مستضعف فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) أهـ. الصارم المسلول.

ومن مراعاته ﷺ لسمعة الدعوة حرصه علىٰ نقاوة الجهاد وطهارته من كل شائبة أنه كان يعلن براءته من الأخطاء الصريحة الواضحة التي صدرت من بعض أصحابه دون أدنىٰ حرج من ذلك، فإن في ذلك تعظيم وتقديم

لسمعة الجهاد والدعوة ومصلحتها علىٰ كل اعتبار آخر، وذلك كقوله لما قتل خالد ﵁ بعض من اعتصموا بالسجود وقالوا صبئنا ولم يحسنوا أن يقولوا آمنا، قال ﷺ: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد) وتنبه أنه بريئ من صنعه وخطئه ولم يبرأ منه هو، ومن جنس ذلك إنكاره علىٰ أسامة لما قتل الرجل الذي أقر بشهادة التوحيد فقال له: (أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟) أو (كيف تفعل بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟). أو نحو ذلك، وجعل يرددها حتىٰ تمنىٰ أسامة ﵁ أنه لم يكن أسلم قبل ذلك اليوم لما رأىٰ من عظم إنكار النبي ﷺ لذلك.

ومن جنس ذلك أيضًا قصة قتل ابن الحضرمي في أول الشهر الحرام وتعيير الكفار للمؤمنين بذلك حيث لم يتضرر المؤمنون بهذا التعيير ولا جادلوا -حاشاهم- في ذلك بالباطل كرد فعل لتعيير الكفار لهم به، بل علمهم الله تعالىٰ أن يقروا بالحق دومًا في خطابهم ويبرءوا من الخطأ ولو علىٰ أنفسهم حرصًا علىٰ سمعة الجهاد ونقاوته وتقديمًا لمصلحته علىٰ أنفسهم ومصالحهم؛ فقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ فعلمهم الله تعالىٰ أن لا يماروا في مثل هذا وأن يسلّموا بالحق لأنهم أولىٰ الناس بالحق وأسعدهم به، وأن لا يبرؤوا منه في أي ظرف من الظروف بل يبرؤوا من الخطأ ولو صدر منهم أو من إخوانهم لأن الحق مقدم عندهم وهو أحب إليهم من أنفسهم ومن الناس أجمعين، فيكون الرد علىٰ الكفار لا بالجدال بالباطل أو تمييع أمر الحق أو ترقيع الخطأ، بل بالإقرار بالحق والتبري من الخطأ وبيان أن جرائم الكفار أعظم من هذه الأخطاء التي يتصيدونها علىٰ المؤمنين وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾.

إذا تقرر هذا فإننا نفتقد اليوم الخطاب الإعلامي الناضج للدعوة والجهاد، وإن ما نراه اليوم من خطاب إعلامي للدعوة والقتال في نهج كثير من الطوائف المقاتلة وغيرها مضيّع بين طرفي نقيض..

فطائفة مالت به إلىٰ التفريط فميّعت بخطابها الثوابت الدينية وأذابت الأصول ودكت الأركان والعرىٰ التي لا تجوز المساومة فيها أو التنازل عنها..

فمنهم من آخىٰ الكفار والملحدين واتخذ النصارىٰ والملاحدة وأعداء الدين بطانة من دون المؤمنين..

فسمعنا ورأينا الموالاة والمؤاخاة بين قادة منتسبين للإسلام والجهاد وبين الملاحدة أو الطواغيت ورؤوس الكفر بحجج الخندق الواحد والعدو المشترك، والمصلحة المشتركة، وصارت الموالاة وفقا للحدود الجغرافية التي رسمها وحدّها سايكس وبيكو لا وفقًا لحدود الله.

وسمعنا الطعن في الجهاد والمجاهدين المخلصين والبراءة منهم ومن جهادهم وتولي طواغيت الحكم والنصارىٰ ونحوهم والركون إليهم في ظل الوحدة الوطنية ومصلحة الوطن وأمنه و .. و .. إلخ..

وسمعنا خطاب التسيّب والتخبّط والتحلّل من عرىٰ الدين وهدم أعظم أركانه وتحريف ثوابته والمشاركة بالشرك وتزيينه في خطابهم، واختياره نهجًا ومسلكًا سياسيًا تحت مسمىٰ الحسبة والشورىٰ أو الجهاد الدستوري والكفاح البرلماني والنضال القانوني التشريعي، فاقترفوا الشرك الصراح والكفر البواح والموبقات بدعوىٰ الخطاب الإعلامي الجامع والموحّد للأمة، وأحيانًا بدعوىٰ مصلحة الدعوة التي هدموا أعظم ثوابتها وذوّبوا أهم عراها..

وإذا تكلموا في الجهاد حرّفوا أسسه وأصوله وغاياته إرضاء للأعداء، ولوّنوا خطابهم ومسخوه ليأتي مسايرًا لثقافة العولمة التي اندحر أمامها هؤلاء الأقزام وانهزموا، فتارة يمسخونه ويقلّمون مخالبه ليدجّنوه ويجعلونه دفاعيا، ويفرغون خطابهم من ثقافة الجوارح ليصبغوه بثقافة الدواجن بدعاوىٰ التسامح والمحبة والخطاب الإعلامي المعتدل أو الموحد للقوىٰ الوطنية!! ونحوها من الدعاوىٰ والمسميات التي تذوّب عرىٰ الولاء والبراء..

وتارة يقصرون أهدافه علىٰ التحرير من العدو الخارجي ويؤاخون في ظل جهادهم الوطني الجاهلي الذي يجمع تحت رايته الكفار والفجار؛ يؤاخون العدو الداخلي الذي غالبا ما يكون أخبث وأكفر من العدو الخارجي..

ومعلوم الفرق الواضح المبين بين السياسة النبوية الشرعية في الإعراض عن بعض الكفار والمنافقين أو موادعتهم ومعاهدتهم أو تأجيل قتالهم بل والتحالف معهم في بعض الظروف والأحوال دون إخلال بثوابت التوحيد وعرىٰ الإيمان، وبين مؤاخاة أو موالاة أو موادّة عدو عدوي، أو ابن عشيرتي ووطني الذين برؤوا من الدين وناقضوا التوحيد بدعوىٰ التخندق بخندق الوطن ومصلحته المشتركة ووحدته الوطنية ونحو ذلك من العلائق والوشائج والمرتكزات الجاهلية..

وفرّعت بعض الجماعات الثورية أو الجهادية المتميعة علىٰ ذلك وبنت عليه تعريفا وطنيا للمجاهد في سبيل الله حيث جعلوه كل من قاتل معهم ضد الدكتاتور دون قيد أو شرط مهما كان توجهه ودينه وعقيدته وغايته؛ فأدخلوا في جملة المجاهدين في سبيل الله والشهداء؛ فطساء الوطنية ومجاهدي العلمانية ومناضلي الديمقراطية وآخوهم وقرّبوهم وأمّنوهم

ووالوهم تحت الراية الثورية؛ فماذا تتوقع بعد ذلك من ثمرات مثل هذا الجهاد! التخليطي التخبيصي الوطني؟!

وتجاوزت ذلك طوائف من المتخبطين من أهل الخطاب الانهزامي الاندحاري ممن باعوا التوحيد الذي جاء فرقًا بين ملل الكفر وفرقانًا بين الكفر والإيمان؛ واستعاضوا عنه بالوحدة الوطنية وأخوّة النضال التي آخوا بها بين اليهود والنصارىٰ وملل الكفر كلها في ظل الإيمان المائع الممسوخ الذي اخترعوه وجمعوا به بين أتباع الديانات السماوية وسموها الديانات التوحيدية!!

ومعلوم الفرق العظيم بين مداراة الطوائف المختلفة أو مهادنتهم ومعاهدتهم ومسايستهم أو معاشرتهم بالمعروف ما داموا لا يطعنون في ديننا، أو محالفتهم للحاجة والمرحلة، وترك قتالهم ولو طعنوا في ديننا وآذونا لأولويات أخرىٰ أو لضعف الإمكانات ونحو ذلك من السياسة الشرعية؛ والتسويف والترتيب؛ فرق بين هذا ومؤاخاتهم وتولّيهم وموادتهم والركون إليهم أو مظاهرتهم وتقديمهم علىٰ المسلمين وهدم الثوابت والعرىٰ الوثقىٰ لسواد عيونهم ولتطييب خواطرهم والظهور بمظهر الدين (الكيوت؛ أو الموديرن) المرضي عنه عند الكفار . . . ! فهذا كله من الاندحار والسقوط والانهزام والسياسة الشيطانية الطاغوتية وليس من السياسة الشرعية في شيء.

وفي مقابل هذا الخطاب الإنبطاحي الإنهزامي الذي ينسحق تحت بساطير الثقافة الغربية ويندحر أمام إرهاب أذنابها الفكري في بلادنا.

يقابل هذا التفريط خطاب قوم أفرطوا فلم يراعوا ما كان يراعيه النبي ﷺ من ظروف وأحوال وأولويات، ولا يراعون إمكاناتهم وقوتهم

وعدم إثخانهم في الأرض، ولا يقدمون حاجات أمتهم الماسة الراجحة ولا يلتفتون إلىٰ ميزان المصالح والمفاسد الشرعي.

فالبعض منهم ورغم إمكاناته المحدودة المكشوفة يتصرف ويواجه العالم بخطاب من يملك أسلحة الدمار الشامل، ويطلق تهديده ووعيده للدنيا كلها فيذعر العالم كله ويؤلبه علىٰ المسلمين في كل بقاع الأرض؛ لا أولوية عنده ولا مرحلية ولا سياسة شرعية .. ولا يهمه ما يترتب علىٰ خطابه الحماسي الأجوف من أذىٰ وتضييق وتشديد علىٰ المسلمين.

ولا يلتفت أو يضع في حساباته معرفة واقع اليوم ومكائد الأعداء والأولىٰ بالجهاد منهم، فلا يفرق بين جهة وجهة وبين نظام ونظام حيثما تيسرت له بعض الأسلحة والمتفجرات اختار ما يسهل من الأهداف دون أن ينظر في الفوائد والعوائد والمصالح والمفاسد.

وليس في برنامجه ولا في حساباته النظر في واقع البلد التي يتحرك فيها، وحال المسلمين فيها وموقفها من قضاياهم، ولا يفكر بدراسة حال أهلها ليختار من الخطاب الشرعي الناضج ما يناسب المرحلة والظرف والحال وما يحقق أعظم المصالح للإسلام والمسلمين ويدرأ عنهم أعظم المفاسد؛ فذلك كله لا يعنيه، وإذا راجعته بإطلاق أطلقه؛ أو تصريح قذف به هنا أو هناك استغلته وسائل الإعلام لتشويه الدين والتأليب علىٰ المسلمين .. اكتفىٰ في محاجته لك بقوله: أليس هذا من الدين!؟

ولم يراع مصلحة أو مفسدة .. ولا نظر في مهم وأهم وراجح ومرجوح أو فاضل ومفضول..

وفي الأثر الذي يرويه مسلم عن عبد الله بن مسعود: (ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة).

وعن عبد الرحمن بن مهدي: (لا يكون الرجل إمامًا يُقتدىٰ به حتىٰ يمسك عن بعض ما سمع).

وسُئل بعض أهل العلم عن شيء من العلم فلم يجب. فقال السائل: أما سمعت حديث (من علم علمًا فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار)؟ فقال: أترك اللجام واذهب! فإن جاء من يفقه وكتمته، فليلجمني به.

والعمل الجهادي أو الدعوي إذا لم يهيمن عليه عقل ناضج؛ ويوظف بخطاب إعلامي واعٍ واضح وبرنامج محدد معلوم للأنصار ولعموم الناس؛ فقد يوظفه أعداؤه لمآربهم ويصبغوه باللون والصبغة التي يريدون؛ ويقطفون بخبثهم وبسطحية أهله من الثمرات الخبيثة ما يشتهون.

وقد سمعنا ورأينا من ذلك أمثلة كثيرة.

فرأينا من المتحمسين من تُسلّط عليه الأضواء وتُسخّر له منابر الإعلام من صحافة وتلفاز وغيره ما دام خطابه مصبوغًا بما يخدم بعض مصالح الأعداء كتهييج الناس علىٰ المسلمين وتأليبهم علىٰ الدعاة وحشد المبررات التي تسوغ قمعهم وتساعد علىٰ التضييق عليهم واستئصالهم، حتىٰ أننا رأينا من تُسخّر له وسائل الإعلام ليتحدث عبر الفضائيات عن الألغام الطائرة التي اخترعها تنظيمه، والبعض الآخر يتكلم عن خططه لامتلاك قنابل نووية أو جرثومية؛ وغيره يتوعّد بضربة مزلزلة في أمريكا ستحصد مائة ألف قتيل، وغيره يتكلم عن ضربة مذهلة ورد صاعق؛ ونسمع هنا وهناك جعجعة يستغلها الأعداء ولا نرىٰ طحناً.

والناظر إلىٰ سياسات الدول التي تحترم مصالحها يرىٰ من يمتلك منها مثل هذه القدرات حقًا وفعلا؛ يراوغ كي لا يعترف بامتلاكها، وهؤلاء الشباب يلقون دون مبالاة بأمثال هذه التصريحات الرنانة وذلك الخطاب

الناري الذي لا يخدم مصالح المسلمين ولا جهادهم؛ ولا يراعي استضعاف مستضعفيهم في كل مكان ويصبح وسيلة وذريعة يتخذها الأعداء لتحقيق مآربهم المختلفة.

كما رأينا من يُستغل ويُستعمل عبر وسائل الإعلام لبث خطابه المصبوغ بالطعن بالدعاة المخلصين ورموز الإسلام ومشايخه العظام كابن تيمية أو محمد بن عبد الوهاب أو سيد قطب ونحوهم لبعض الهنات التي أفنىٰ عمره في التنبيش عنها بين طيات كتاباتهم العظيمة، فينطلق بغبائه بدافع تصفية الحسابات مع بعض الإتجاهات أو الجماعات المخالفة له ويسخّر جهده ووقته للطعن في أهل الدعوة والجهاد من العلماء والدعاة ويستغلّه ويستعمله الطواغيت في ذلك فينشرون له كتاباته ويسخّرون له منابرهم ووسائل إعلامهم، كل ذلك منهم لحرب الإسلام والجهاد وتشويه العلماء والمجاهدين وينساق الغر معهم بحماس وغباء لحسابات عنده خاصة وهو يحسب أنه يحسن صنعا.

وأحيانًا تُسخّر صفحات الجرائد لمقابلات مع بعض المتحمسين أو الغلاة ويمكنوا من نشر عقائدهم التي تحوي علىٰ كثير من التخليط عبر وسائل الإعلام ويُركز فيها عن عمد ويظهر تحديدًا تكفيرهم لبعض المشايخ أو العلماء المشاهير أو تكفيرهم لبعض عوام الناس أو بعض أقطاب المعارضة للنظام ليحرف الطواغيت بذلك المعركة ويبعدون حربها وحرابها عنهم إلىٰ أولئك المشايخ أو المعارضين أو عامة الشعب..

ثم ما يفتأ أن ينقلب الطواغيت إلىٰ مدافعين عن الشعب وعن العلماء بل وعن المعارضين وحامين لهم من هذه الأفكار التكفيرية والخارجية!! الضالة ونحوه مما يصفون به عموم الدعاة، وينبرون لقمعهم هم وغيرهم من الدعاة والمجاهدين تحت هذا الغطاء ويُسهّل لهم بعض السذج ذلك

بانشغالهم بأشياء مرجوحة أو بمكفرات غير صريحة أو بفتح جبهات مع فجار أو كفار غير محاربين للدين فيشتتوا بذلك دائرة الصراع ويخلّطوا الأوراق. .

ولو تأملوا سيرة نبيهم ﷺ وخطابه المراعي للمرحلة والحالة التي تمر بها الفئة المؤمنة وتدبروا قوله في بعض المراحل: (دعهم لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه) لعرفوا الأولىٰ فالأولىٰ . . ولفقهوا كيف تورد الإبل . . ومن أين تؤكل الكتف.

وما أفقه الحسن يوم أنكر تحديث أنس للحجاج بحديث العرنيين وما عاقبهم النبي ﷺ به! لأن الحجاج سيتخذها، بل اتخذها فعلًا وسيلة وذريعة إلىٰ ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي!!

ولذلك أعتقدت جازمًا أن تصنيف بعض العلماء واجتهادهم في إثبات جواز كشف المرأة للوجه والكفين في زمن التحلل والتفسخ والتبرج والسفور، وتصديه بكل ما أوتي من قوة للرد علىٰ كل من خالفه وقال بوجوب سترهما؛ ذلك منه غفلة عن مراعاة واقع أهل العصر؛ قد حرم صاحبه هذا الفقه بغض النظر عن صحة مذهبه أو خطئه.

ومن هذا القبيل ما شُنّع علىٰ بعض المشايخ في فتواهم بخصوص قتل نساء وصبيان جنرالات الجزائر الذين كانوا يفعلون بنساء وصبيان المجاهدين الأفاعيل. ومن يعرف طبيعة الجزائريين وشدّة الغالبية منهم إلا من رحم الله يرىٰ أنه لم يحالفه التوفيق في إخراجها لهم وخطابهم بها.

وقد صارت هذه الفتوىٰ عقبة يواجه بها في كل حين، بل أطلقها خصومه غير المنصفين وعمّموها فصاروا يدّعون أنه أفتىٰ بجواز قتل أطفال ونساء الجزائر هكذا عمومًا، ولو كنت محله لأعلنت تراجعي عنها من غير حرج ولا غضاضة.

وقد قال بعض الأدباء: إذا نطقت فاحسب كلماتك، وجَلِّها وأَبِنْ مقاصدها، ولا تجعلها حمّالة أوجه، ولا تُطلق ما قد يُساء فَهمه ويستشكل ويحتاج إلىٰ شرح وتوضيح، فإن الخصم لا يذكر لك تأويلا .. وإن كان في قلبه مرض صرّف قولك ووجّهه كيف شاء.

ومن أمثلة الخطاب الإعلامي الذي لا يراعي إمكانات الفئة المجاهدة ولا يحسب لمعطيات الواقع حساباته ولا يراعي الأولىٰ والأهم ولا يتعاطىٰ مع المرحلة بأولوياتها .. ما قرأناه وسمعناه في بيانات بعض المجاهدين حديثا؛ ففي الوقت الذي كان القتال فيه محتدمًا بين فئات الشعب العراقي المختلفة وفي مدنه المتفرقة وبين المحتل الأمريكي، والذي كانت تخرج علينا فيه طوائف الضلال التي فعلت ولا زالت تفعل بأهل السنة الأفاعيل، ليعلن رؤوسها ومرجعياتها وقادتها بل وعوامها علىٰ شاشات التلفزة أنهم يقفون إلىٰ جنب أهالي الفلوجة -مع أنهم لم يقفوا ولن يقفوا- وأن مصاب الفلوجة مصابهم والدم النازف فيها دمهم.

خرج علينا بعض المجاهدين الذين لا نشك في إخلاصهم وولائهم للدين، ولكن بنضوج خطابهم وخبراتهم وحسن اختيارهم وتوقيتهم؛ ليعلنوا للدنيا كلها بخطاب ساذج لا يراعي ظروف المجاهدين ولا إمكاناتهم ولا واقع البلد وطبيعة المرحلة يدعون فيه إلىٰ إشعال الحرب علىٰ تلك الطوائف ويعلنون استهدافها وسعيهم لقتل رؤوسها ومرجعياتها بل وتبنيهم قتل من قتل منهم سابقا مع أن ذلك كان قد ألصق بلسان الطائفة والإعلام بالأمريكان، وإخواننا بدلًا من أن يُصدّقوا ذلك ويؤكدوه توجيها للصراع إلىٰ الأمريكان يُبرّئون ساحتهم ويتحملون ويُحملون المجاهدين وإخوانهم الأسارىٰ في إيران ومن ثم أهل السنة تبعات دمه ودماء العشرات الذين قتلوا معه.

ليفتحوا المجال بذلك أمام أعداء الله من الصليبيين وغيرهم لاستغلال هذا الخطاب، وجعل أصحابه مشجبًا ومبررا لانتقام الطوائف من أهل السنة، كما قد حاولوا من قبل جعلهم رابطًا بين القاعدة وصدام، ويحرصون علىٰ أن يصبغوهم بالصبغة الإرهابية المستهدِفة لعوام الشعب العراقي بل ولعوام الشعب في بلدهم من خلال استغلال بعض العمليات المحبطة التي يعترف بها أحيانًا بعض الشباب في التحقيقات أو ينسبها النظام لهم تلفيقا وتزويرًا وبتشويه كبير في أحيان أخرىٰ، وكم أتمنىٰ أن ينضج خطاب إخواني وأن يوفقوا في اختياراتهم ليضيّعوا علىٰ أعدائنا الفرصة ويمسون رموزًا من رموز الجهاد وأبطالًا من أبطال مقاومة الاحتلال الصليبي يلتف حولهم عموم المجاهدين بل وعموم أهل السنة هناك..

ولكن هذا لا يكفي له الإخلاص والورع ولا الجرأة والشجاعة وحسب، فهذا قد يكفي للقادة الميدانيين وما أكثرهم أما القائد العام والرمز الذي يحرك الناس ويقود الجماهير والأمة بأمس الحاجة إليه اليوم فتلزمه خصال وصفات أخرىٰ في مقدمتها نضوج الخطاب الإعلامي وحسن الاختيار ومعرفة الواقع لمراعاة ظروفه ومعطياته في كل خطوة واختيار، ويلزمه فهم سيرة النبي ﷺ وكيف كان يخاطب كل أناس خطابًا يوائم خلفيتهم ويراعي ظروف المرحلة وإمكانات المسلمين وأهم احتياجاتهم وأولوياتهم دون مس بالثوابت والأركان كما قدّمنا.

ولا يخرج ذلك الخطاب من السذاجة والسطحية أو يُبرّرهُ كون تلك الطوائف فعلت في أهل السنة الأفاعيل من خطف للنساء وقتل للعلماء واحتلال للمساجد ونحوه؛ فهم لخبثهم يفعلون ذلك وأكثر منه كما بلغنا عن الثقات ولكن بدهاء يمنعهم من أن يعلنوا عنه -لا كما يفعل أصحابنا- بل علىٰ العكس فهم يفعلون هذه الأفاعيل في مختلف مناطق العراق

ويفعلون أشياء منها في إيران كما فعلوا مثلها من قبل في أفغانستان علىٰ أيدي حزب الوحدة الذي كان يتحالف مع جميع أعداء أهل السنة ولو كانوا من الشيوعيين، وكما فعلت منظمة أمل في لبنان في تل الزعتر وغيره . . وهكذا هم كلما سنحت لهم فرصة في التنكيل بأهل السنة لا يضيّعوها، أعرف هذا ولا يخفىٰ عليّ، ولكن الحاصل اليوم لأهل السنة في العراق علىٰ أيديهم لا يتبنونه ولا يعلنون عنه أو يتخذون منه خطابا؛ بل علىٰ العكس فإن الصبغة المعلنة والظاهرة لخطابهم السياسي أن لا فرق بين السنة والشيعة وأن السنة إخوانهم ويعلنون هم وأعوانهم في إيران ولبنان عن وقوفهم إلىٰ جنب أهل السنة واستنكارهم لما يحصل لهم في الفلوجة وفي فلسطين وغيرها ولا يثيرون في إعلامهم الخارجي السياسي قضية السنة والشيعة بل يحاولون في خطابهم السياسي المعلن -خلافًا للحقائق علىٰ أرض الواقع- ادعاء تذويب هذه الفروق، وجعل طائفتهم مذهبًا خامسًا مضافًا إلىٰ المذاهب الأربعة لأهل السنة لا طابورًا خامسًا متآمرًا عليهم منذ زمن هولاكو إلىٰ اليوم، وهذا الخطاب لا تسمعه بالطبع في أماكن نفوذهم وتسلطهم علىٰ أهل السنة، لكنهم لا يعلنون عن أفاعيلهم كما يفعل السذج من أهل السنة، ولذلك ترىٰ الأغرار من الناس اليوم يتهمون أهل السنة بالفتنة والتفرقة والسطحية، بينما يصفون تلك الطوائف بالاعتدال والنضوج الفكري والحرص علىٰ الوحدة، حتىٰ إنهم لأجل ذلك ولتكريسه في أذهان الجهال كانوا لا يبثون عبر فضائيتهم أذانهم المخالف لأذان أهل السنة بألفاظه وأوقاته. . !!

وإذا كان دينهم القائم علىٰ التقية يجيز لهم هذا النفاق والتلون والخداع كتلون وخداع الحرباء؛ فنحن لا نطالب مجاهدينا بالتقية أو التلون، بل نطالبهم بمراعاة إمكاناتهم وحجمهم وحاجات أمتهم وتقديم الأولويات

في خطابهم الإعلامي وفي اختياراتهم العملية، وأن يفعّلوا فقه النبي ﷺ الذي يفهم مما تقدم في قوله: (إذًا تُرْعَد له آنُفٌ كثيرة بيثرب) وقوله: (دعهم لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه) فهذه الطائفة شاء المجاهدون أم أبوا محسوبة إعلاميا وعالميا علىٰ الإسلام كما كان المنافقون في زمن النبي ﷺ محسوبون علىٰ الإسلام، ولم تقتلعها الخلافة حتىٰ يتمكن أولئك المجاهدون من استئصالها ببعض عمليات النكاية، فهي واقع يجب التعامل معه بالسياسة الشرعية والحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا . . فالأصل أن يكون خطاب المجاهدين الإعلامي متجنبًا الدعوة للصدام مع هذه الطوائف وإن احتيج لمثل ذلك طرح علىٰ سبيل دفع الصائل الذي يجوز حتىٰ مع المسلمين ولا يطرح علىٰ أنه استراتيجية أو نهج يحرَّض عليه المسلمون؛ فيحسب عند المراقبين ويستغل عند الأعداء علىٰ أنه فتنة ودعوة من أصحابه إلىٰ الحرب الأهلية في الوقت الذي يعلن فيه المعتدون الحقيقيون من أهل تلك الطائفة رفضهم للفتنة والحرب الأهلية ويدندنون في إعلامهم علىٰ أخوّتهم لأهل السنة ونبذهم للفرقة كذبًا وزورًا . .

ويمكن دفع عدوان وصيال مثل هذه الطوائف ورد أذاها بل واغتيال رؤوس الكفر والفتنة منها إن لزم الأمر دون أن يتبنىٰ أو يتخذ خطابًا عاما وإعلانا لا يفرق بين المعتدي منهم وغيره ولا بين الرؤوس الضلال والعوام المضللين.

وكما أنه لا يعقل أن يصطبغ مثلًا خطاب المجاهدين الإعلامي العام بالدندنة حول جواز قتل النساء والصبيان في البيات، وهو خطاب خاص استثنائي فرعي خاطب به النبي ﷺ خواص المجاهدين ليرفع عنهم الحرج في الجهاد؛ فلا يصح ولا يعقل أن يتخذ هذا الخطاب الخاص ويُحوّل إلىٰ خطاب إعلامي عام، فيطنطن علىٰ سبيل المثال حول جواز قتل النساء

والذرية وتخاطب به الصحافة العالمية ويدندن حوله في الفضائيات والبيانات والإعلانات التي يخاطب بها العالم، بل يخاطب الناس بالخطاب الإسلامي العام الذي هو الأصل في الجهاد الإسلامي من النهي عن قتل النساء والأطفال والشيوخ والزمنىٰ والرهبان ونحوهم ممن لا يقاتِلون ولا يعينون علىٰ قتال. فلا يصح بحال ولا يعقل أن يُهمل الأصل ويخاطب الناس بالاستثناء..

ومثل ذلك ما تقدم من خطاب النبي ﷺ مع قومه، فقد كان إظهارًا وإعلانًا لمحاسن ديننا الأصيلة التي تنسجم مع الفطرة ويجمع عليها جميع العقلاء ومن ذلك الصدق الذي ذكره أبو سفيان ونقله لهرقل؛ لا يعقل أن يُترك هذا الخطاب الأصيل في ديننا الذي يحث علىٰ الصدق ويحرم الكذب؛ ويستبدل بخطاب إعلامي عام يدندن علىٰ جواز الكذب في الحرب مثلا، ويجعل ذلك صبغة للخطاب الإسلامي أو يُساء استعماله ويتمادىٰ به ويفتح علىٰ مصراعيه لغير حاجة حتىٰ يوصم الدعاة بالكذب مع أن نبيهم ﷺ كان يعرف عند أعدائه بالصادق الأمين!! فيتحول الفرع والاستثناء الذي خوطب به خواص المجاهدين لرفع الحرج عنهم في الحرب؛ ويصير أو يتخذ خطابًا عاما للناس والمدعوين..

صغار العقول والسطحيون يقولون: يا أخي هذا من ديننا ولا نستحيي أو نخجل منه، ولذلك فلا مانع عندهم ولا حرج من صبغ خطابهم العام به.

وأنا أقول: والله لا يستحيي منه إلا من كان في إيمانه دغل؛ ولكن سيرة نبينا وسياسته -إضافة إلىٰ مراعاتها لواقع المرحلة وظروف المسلمين وإمكاناتهم- فرّقت في الخطاب الدعوي بين الأصول والقواعد المقررة التي يجب أن تتخذ خطابًا إعلاميا دعويًا عاما؛ وبين الفروع والاستثناءات أو الأحكام التي وردت أو شرعت لظروف مخصوصة وفي مراحل أو أحوال

معينة أو هي من الخطاب الإسلامي الخاص ولا يصح أن يُشحن بها الخطاب العام . . ولا يفقه هذا ويتسع له صدره إلا من هداه الله ووفقه وعلّمه وبصّره.

ويناسب أن أختم هذا بلطيفة وقعت لأحد إخواننا مع طبيب للأسنان في السجن، وهي ترمز إلىٰ واقع أكبر لكثير من المجاهدين والدعاة اليوم في عدم مراعاة خطابهم للواقع والمرحلة والظرف.

فقد كان ذلك الطبيب نصرانيًا وكان أخونا محتاجا للعلاج عنده إذ لا طبيب غيره، وجرىٰ حوار بينهما عما تقوم به القاعدة ومجاهدوها من أعمال هنا وهناك؛ فكان فيما ردّ عليه الأخ أن قال له: أصلًا أنت لو وجدت الدولة الإسلامية فليس لك إلا الجزية أو السيف!! وذكر ذلك بطريقة عصبية استفزازية.

أقول: هذا الخطاب الاستعلائي الذي واجه به صاحبنا ذلك الدكتور النصراني المعالج له!! يناسب قائدًا من قادة المسلمين كعبادة بن الصامت أو المغيرة بن شعبة أو قتيبة بن مسلم يتقدم جيشه الجرار ليخاطب به طاغية معاندًا متعجرفًا كعظيم الروم أو الفرس أو ملك مصر أو الصين؛ يواجهه به بين يدي الجِلاد والقتال وضرب الرقاب وقطع الأوصال . . ولا يناسب أبدًا أو يراعي الظرف والمرحلة والحال التي يسلم فيها صاحبنا فكّه ورأسه وفمه لمبضع ذلك الدكتور النصراني ليعالج له ضرسه!!

أيُضير صاحبنا شيء شرعًا أو يُعد مداهنا أو متنازلًا عن بعض الأصول أو مميّعًا لشيء من الثوابت لو أنه خاطب ذلك النصراني المعالج له والذي ليس بيننا وبينه في هذا الظرف إلا الدعوة؛ أقول: أكان يضيره شيئًا أن يخاطبه بخطاب التأليف والترغيب والتبشير والتيسير الذي هو من ديننا ونحن مأمورون به أصلا مع من لم يحاربنا في الدين، ويتأكد ذلك كما تقدم حال استضعافنا . . ؟

فيقول له مثلا: إن النصراني في ظل دولة الإسلام لا يُجبر ولا يكره علىٰ تغيير دينه، وإذا احترم ديننا ولم يطعن فيه ورضي بأن يكون مواطنًا للدولة بأن يدفع الجزية كانت له ذمة الله ورسوله ﷺ وصارت له من الحقوق والأمن والأمان علىٰ نفسه وماله وعرضه ودينه ما لا يجده اليوم في أشد الدول تعصّبًا للنصرانية. ثم يبيّن له أن حقيقة الجزية أنها مبلغ زهيد لا يذكر في مقابل ما يأخذه طواغيت اليوم من مكوس وضرائب ومظالم في شتىٰ مناحي الحياة، وهو أيضًا مبلغ لا قيمة له مقارنة مع ما يُعطىٰ لصاحبه من استحقاقات ومواطنة وحماية في ظل دولة الإسلام، ويعفيه من زكاة المال التي تجب علىٰ المسلمين، كما يعفيه من المشاركة في الدفاع عن الوطن فلا تجنيد عليه ولا عسكرية أو جهاد بل يجب علىٰ الدولة حمايته وحماية ماله وذريته ما دام مواطنًا فيها، ومَنْ آذاه فقد خفر ذمة رسول الله ﷺ ما دام الذمي محترمًا لقوانين الدولة المسلمة غير محارب للمسلمين ولا مظاهر لعدوهم أو طاعن في دينهم، وأن هذه الجزية كثيرًا ما كانت ترد إلىٰ النصارىٰ أيام الخلافة عندما كانت الدولة تعجز عن حمايتهم في بعض أقطارها وكان كثير من الخلفاء يُسقطونها عمّن كبر وشاخ من أهل الذمة، وأن كثيرًا من النصارىٰ كانوا يقاتلون إلىٰ جنب المسلمين طوعًا واختيارًا ضد الروم والصليبيين من أبناء ملتهم لما عايشوه ورأوه من عدالة الإسلام، وما يعرفونه من ظلم أقوامهم الذين يأخذون منهم أضعافًا مضاعفة لتلك الجزية مكوسًا وضرائب ومظالم .. إلىٰ آخر ذلك من الخطاب الإسلامي الدعوي الأصيل، والذي هو حق لا مرية فيه في ديننا وليس فيه أدنىٰ تحريف للأصول ولا تمييع للثوابت.

أقول: ألا ترىٰ معي الفرق الشاسع والبون الواسع بين هذا الخطاب الذي يعرض الجزية بهذه الصورة المشرقة دون تنازل عن الثوابت، فهو

خطاب لا يجعل النصراني أخًا حبيبًا، بل مواطنًا آمنًا له حقوقه المحفوظة والمكفولة . . وبين ذلك الخطاب الاستعلائي الذي يظهر الجزية كمسبّة، وربما عدّه ذلك النصراني صادرًا عن الكبت السجوني كعادة أعداء الله في دعواهم أن خطاب الشدة والعنف من الإفرازات السجونية . . إذ هو خطاب يظهر الجزية لا كرسم مواطنة، بل كضريبة استرقاق وإهانة الشيء الذي لا يتناسب مع واقع استضعاف أخينا ولا يلائم خطاب التبشير والدعوة إلىٰ الدين الذي لا يملك في ظل القيد غيره.

وعلىٰ كل حال فلا زال أخونا إلىٰ ساعة كتابة هذه السطور يدفع جزية أو ضريبة ذلك الخطاب الاستعلائي الذي جاء في غير محله ولا زال إلىٰ اليوم يسعىٰ في إصلاح ذلك الضرس الذي أتلفه ذلك النصراني علىٰ إثر ذلك الخطاب!! وقد قرأت عليه هذا واستفاد منه وأقرّه ليستفيد منه غيره.

والخلاصة . . أننا اليوم بحاجة إلىٰ خطاب إسلامي ناضج واعٍ يهتم برفعة الدعوة والجهاد ويراعي حال المسلمين وأهم ما يحتاجونه ويقدم الأولويات ويرجح أعظم المصالح فيقدمها وأعظم المفاسد فيدرأها، خطاب لا يكون صاحبه بمعزل عن واقع الأمة وظروفها وإمكاناتها عموما وإمكانات المجاهدين خصوصًا . . ويعرف كيف يخاطب الأعداء كل بحسب حاله من خلال تبصّره بواقعهم وخلفياتهم الأخلاقية والسياسية والتاريخية والعقائدية وطبيعة شعوبهم ونقاط الضعف عندهم ومواضع الحساسية والتأثير؛ ليتوائم خطابه ويتلائم مع ما يحقق مصالح المسلمين ويكبت عدوّهم أو يضعضعه ويشتت شمله. فلا يميل إلىٰ خطاب أهل التفريط والتمييع الذين حطموا الأصول وتنازلوا عن الثوابت وهدموا الأركان بل وتبرّؤوا من الشرائع بحجة الاعتدال في الخطاب وإرضاء الأعداء أو عدم إسخاطهم، وحقيقة ذلك

انسحاق تحت بساطير إرهابهم الفكري واندحار أمام عولمتهم وثقافتهم الفاسدة.

ولا إلىٰ خطاب أهل الإفراط في عدم مراعاتهم لأولويات الجهاد وسمعته المشرقة ومصالح الأمة وظروفها وإمكانات المجاهدين ومعطيات الواقع والمرحلة، وخلفيات الأعداء وأحوال شعوبهم.

والله الهادي إلىٰ سواء السبيل

الوقفة الثامنة عشر

عقوق الدعوة

(الفصاميون)

كم أحزنني أن يخاطبني أحدهم وأنا معتقل في سجني وكان للتو راجعًا من أحد البلدان متحمسًا للقتال هناك بقوله مستنكرًا: «أنتم إيش جالسين تعملون عندكم في هذه البلاد!!»

وكان ذلك ردًا متشنّجًا منه علىٰ تحفّظات ذكرتها له حول تهييج الشباب وتحميسهم للسفر إلىٰ ذلك البلد وتفريغ الساحة بذلك من العاملين والدعاة.

فقلت له: (لو قلتها لي وأنا في بيتي ومع زوجاتي وأولادي لما أحزنني هذا أبدًا) مع أني بفضل الله قد جعلت حياتي كلها للدعوة، وزوجاتي يعرفن أن دعوة التوحيد هي شريكتهن الثالثة، والتي لها التقديم والصدارة ونصيب الأسد وأرجو من الله تعالىٰ أن ألقاه وأنا مائل إليها، وهو ميل لا يزعج أهلي بحال بل يقر أعينهن بفضل الله.

(أما أن يُخاطبني بها وأنا خلف أشباك الأسر وقضبانه فأظن أن ذلك غفلة منه وعيب..)

وأنا هنا لا أمنّ علىٰ ديني ودعوتي بسجني وبلائي، وأعوذ بالله من ذلك وأستغفره سبحانه وأسأله أن يتقبل أعمالنا كلها .. فلولاه ﷻ ما اهتدينا ولما دعونا ولما جاهدنا ولما ثبتنا في الأسر ولا في غيره ولكني

أردت لفت نظر ذلك المخاصم إلىٰ أن البديل عن النفير إلىٰ تلكم الجبهات التي يحرّض عليها ونتحفظ نحن علىٰ تحريضه المفتوح، ليس البديل دومًا هو النوم والقعود والركون إلىٰ الأولاد والزوجات والدنيا، كما يراه أو يظنه هؤلاء الذين سميتهم بالفصاميين، أو الخصاميين؛ لأنهم ابتدعوا لنا فصامًا نكدًا وخصامًا غريبًا عجيبا بين الدعوة والجهاد**!!**

لذلك فإن ألمي من خطاب ذلك الصاحب ليس لأجل شخصي بقدر ما هو لأجل الدعوة التي أحتسب عند الله أني بسببها خلف القضبان ويستخف صاحبي بالاشتغال بها.

وكم آلمني ويؤلمني هذا الفصام والخصام النكد بين دعوة التوحيد والجهاد والذي استشرىٰ بين هؤلاء الشباب المتحمسين، بدعوىٰ عجيبة ذكرها ذلك الصاحب حين قال: (يا صاحبي بعد أحداث أيلول لم يعد هناك دعوة الآن لا دور إلا للقتال**!!**).

عجيب هذا التقرير والتأريخ من صاحبي هذا وأحمد الله تعالىٰ أني لم أسمعه إلىٰ الآن من غيره، فبادرت إلىٰ الكتابة فيه فورًا وعجلا كي أستأصل شأفة هذا الفصام وأقطع دابره..

أيها الصاحب العزيز لن أقرّعك أو أرميك بالجهل وضحالة التكفير وضيق الأفق وقصر النظر وسطحية الفهم، وإن كنت بفهمك ذلك ليس بعيدًا من هذا كله .. لن أقابلك بذلك في مقابل رمي أمثالك من الفصاميين لأصحاب الدعوة بالقعود والركون إلىٰ الدنيا والأولاد والزوجات .. فما هكذا تُعالج الأمراض وما هكذا يُستشفىٰ من العلل .. ولكني سأقول لك اجلس معي نتحاور بهدوء، وافتح لي قلبك وصدرك ودعنا من التعنّت والمناكفة.

أسألك أولا أيها الصديق؛ من أين خرجت أنت وإخوانك وقادتك المجاهدون فلان وفلان وفلان..؟

أليس من رحم الدعوة إلىٰ الله قد خرجوا؟

ومن الذي بفضل الله أخذ بيدك واستلك من بين مناهج دعوات الضلالة والتفريط والإرجاء وجنبك مزالق الغلو والإفراط في التكفير ووجهك إلىٰ هذه البصيرة في الفهم والتوحيد؟ أليس ذلك كله ببركات دعوة التوحيد المتميزة ودعاتها..؟ فلماذا هذا التنكر والعقوق؟! ثم ما الذي أوجد هذا الجهاد المتميّز المبارك الذي كنا نتطلّع إليه ونحلم به منذ عقود، أليست هي الدعوة المتميزة إلىٰ الله؟

أيها الحبيب والله الذي لا إله غيره لقد رأيتني في بيشاور مرات ومرات وفي أفغانستان مثل ذلك وعرض عليّ أثناء ذلك مرارًا لقاء بعض قادة الجهاد الذين أعد بعضهم اليوم من سادات المجاهدين في زماننا وزينة أهل العصر، فكان عندي آنذاك -كما قال عبد الله بن المبارك في بعض الرواة المتكلم فيهم- (أن ألقىٰ بعرة أحبّ إليّ من ألقىٰ أحدهم..) لأن بصائرهم وقتها كانت زائغة في طواغيت الحكم وأنصارهم وكانوا يتخبطون في العلاقات أو التحالفات مع كثير من رؤوس الضلالة ممن قد بصّرنا الله تعالىٰ فيهم وفي انحرافاتهم في وقت مبكّر كان فيه بعض هؤلاء الفصاميين يسهرون في حراسة أولئك الرؤوس الضلاّل ويبذلون مهجهم لحمايتهم والقتال معهم، ثم افتضح أمرهم اليوم للقاصي والداني .. أقول: ما الذي نقل أمثال أولئك في قلوبنا من مقام البعرة إلىٰ مقام الدرة؟ أليست هي بركات الدعوة وثمراتها وكتاباتها ومصنفاتها وشيوخها؟

الدعوة التي يجب أن تبقىٰ مواكبة للجهاد مسايرة له لا تعطله ولا يعطلها .. فمن أين جئتنا أيها الصاحب بهذا الفصام النكد؟

أيها الحبيب . . ما أردت إفهامك إياه ولم تحسن الاستماع والإنصات وقتها إليه - كما هو شأن أكثر الفصاميين فإنهم للأسف لا يحسنون السماع، مع أن من أهم آداب طالب العلم وأول ما يتعلمه حسن الاستماع؛ هو أمر في غاية الأهمية فافتح قلبك لعلك تعيه . .

إذا ما أردنا أيها الأخ المفاضلة بين الدعوة والجهاد . .

سألنا أولا : ما نوع الدعوة التي توضع في الكفة المقابلة للجهاد؟

وثانيا : ما نوع الجهاد الذي نريد وضعه في الكفة الأخرىٰ؟

فإذا كان الكلام عن دعوة من الدعوات المنحرفة أو الإرجائية أو دعوة مسخّرة للأنظمة، مدجّنة للطواغيت، مطوّعة لسياساتهم، أو دعوة برلمانية دستورية تشريعية؛ فسحقا ثم سحقًا لهكذا دعوات . . ولا مجال للمقارنة والموازنة بينها وبين أدنىٰ أنواع الجهاد.

وكل عاقل يعرفنا يعرف أننا بفضل الله وتوفيقه أبعد الناس وأبرئهم من هذه الدعوات . . وأننا حين نتكلم عن الدعوة أو نذكرها فلا نعني شيئًا غير دعوة التوحيد المباركة المتميزة الجامعة الشاملة التي لا تفرّط بجانب من جوانب التوحيد ولا تميّع أو تلمّع نوعًا من أنواع الشرك، الدعوة التي أوثق عراها الحب في الله والبغض في الله والموالاة في الله والمعاداة في الله، ملة إبراهيم ودعوة خاتم الأنبياء والمرسلين . .

فضع أيها الحبيب هذه الدعوة في كفة الميزان الأولىٰ، وتعال والتفت معي الآن إلىٰ الكفة الأخرىٰ . .

فأي جهاد أو قتال ذاك الذي تعنيه . . ؟

أقتال متخبّط تحت رايات جاهلية؟ لا أظنك تعني هذا فهذه ليست أبجدياتنا ولا يعنينا مثل هذا القتال ولا نعمة ولا كرامة لمثله أن نضع له

اعتبارًا؛ فضلا عن أن نقارنه ونوازنه بدعوة التوحيد.

أم قتال يخلط بين الإسلام والوطنية الجاهلية، مسحة إسلامية ممزوجة بمسخة دخن وزيغ جاهلية، يظلل تحت لوائه وفي ظل وحدته الوطنية المسلمين والمجرمين والكفار والفجار، ويجعل العلاقة بينهم علاقة الأخ مع أخيه أو الابن مع أبيه في ظل المصلحة والعدو المشترك الذي عليه تتوحد الصفوف المتخبطة وتجتمع الرايات المتناقضة؛ ولأني أعرف محدثي، فهو قطعًا لا يقصد هذا، ولو قصده لطاشت كفته وطارت ولرجحت به دون أدنىٰ شك كفة دعوة التوحيد.

بقي أن نقول أن صاحبنا الفصامي الخصامي؛ يقصد جهادًا نظيفًا من كل هذا؛ جُنده من رحم دعوة التوحيد قد خرجوا، وفي ظلالها قد تربّوا ودرجوا، جهاد يكفر بطواغيت الكفر كلها ويبرأ من الرايات الجاهلية والتوجهات الضلالية؛ فعلىٰ الرأس والعين وحيّ هلا بمثل هذا الجهاد الذي ما نعد أنفسنا ونربي أبناءنا وإخواننا إلا لمثله، ولم نخاصمه ولن نفصمه عن الدعوة في يوم من الأيام.

لكن ومع هذا كله وما دام صاحبي ومثله قوم كثر للأسف قد ابتدعوا خصامًا وفصامًا بين هذا الجهاد والدعوة التي أثمرته.

ولذلك فطالما سمعنا منهم أشياء من قبيل ما أسمعنيه ذلك الصاحب، وإذا كان هو قد خاطبني به من خلف قضبان سجني علىٰ حدة وابتدع لهذا الفصام ذلك التأريخ (أيلول)؛ فغيره قد أطلقوه بلا تاريخ وأعلنوه في أشرطة مسجلة وجهوها للأمة بثتها الفضائيات، أو في بيانات طنانة وتصريحات رنانة ضربت بها أكباد المطي في كل وجه من أرجاء المعمورة عبر الشبكة العنكبوتية وغيرها؛ فعيّروا إخوانهم لزومهم لدعوتهم ورموهم بالتقصير، واعتبروا لزوم الدعوة قعودًا وتخلّفًا عن الجهاد، مع أن هؤلاء الفصاميين

لولا دعوة التوحيد لما كان جهادهم وكلامهم وأشرطتهم وبياناتهم علىٰ الجادة، ولولاها لما ساووا عندنا بعرة كما تقدم، إذ أنهم في أحضان دعوة التوحيد شبّوا وترعرعوا، ومن كتابات مشايخها ودعاتها قد رضعوا؛ فعلام إذن يعضون ثدي هذه الدعوة المباركة التي من ألبانها نبتت أجسادهم وصحت توجهاتهم وبما اغتذوه منها نمت عضلاتهم واستقامت علىٰ الجادة مناهجهم؟! ولولا تلك الحضانة وتلكم الرضاعة لأصابهم ما الله به عليم من الآفات والتشوهات والإعاقات المنتشرة بين الفرق والطوائف والجماعات في زماننا.

وإذا كان الواقع كذلك فيحق لنا هنا أن نوقفهم ونسألهم: عن نوع الجهاد الذي فضّلوه علىٰ دعوة التوحيد الحقة وابتدعوا بينها وبينه هذا الفصام والخصام النكد!!

فإن أجابوا بأنه جهاد دفع؛ قلنا لهم: الدنيا كلها اليوم دار كفر، والمسلمون فيها مستضعفون وديارهم كلها مسلوبة محتلة مغتصبة إما من كفار خارجيين أو من كفار داخليين موالين للكفار الخارجيين ولا أستثني من ذلك مكة والمدينة في ظل تغلب المرتدين عليها، ولذلك فجهاد كل مسلم في ظل هذا الواقع يمكن لصاحبه أن يُخرجه علىٰ أنه قتال دفع .. ولكن سؤالنا تحديدًا عن نوع هذا الجهاد من حيث ثمرته وفائدته وعائدته المرجوة علىٰ الإسلام والمسلمين، ولا أعني هنا الحديث عن ضمان النتائج أو اشتراط قطف الثمرات، فهذا أمر بيد الله وليس بأيدي المجاهدين، ولا أعنيه، فلا داعي لخلطه بمرادي وسؤالي الذي لا يحسن أن يجيبني عليه متحمس قصير النظر.

فهو سؤال يُميّز ويبحث وينبش عن أهداف القتال وغاياته والثمرة التي من أجله أعد برنامج هذا القتال وله أعد جنده ودربوا ووجهوا.

ولذلك فلن يجيبني علىٰ هذا السؤال بتؤدة ونضوج؛ إلا امرؤ متبصر بواقع الأمة وتآمر أعدائها علىٰ شرائع الإسلام وتوحّدهم في وجه تمكينها وتحكيمها، وعظم حاجة المسلمين اليوم لهذا التمكين والتحكيم، ويتحرق علىٰ تبعثر جهد أبنائها ويتألم علىٰ تشتت إمكاناتها ويؤرقه الحرص علىٰ توجيه مواردها إلىٰ أنفع الأعمال وأعظم النتائج؛ امرؤ يُحسن الموازنة بين المصالح والمفاسد ويعرف أن إقامة دين الله والتمكين له في مثل هذا الواقع لا تتم بمجرد تفجير خمارة أو دار للسينما أو نحوه من أعمال الحسبة التي يمارسها بعض الشباب المسلم اليوم، أو بعملية أو بضع عمليات يقتل فيها بعض المحاربين هنا وهناك، وإنما يحتاج مثل هذا الأمر العظيم إلىٰ عمل متكامل وجهد متواصل، ومتصل بالعلماء والدعاة الربانيين الذين تجتمع عليهم الأمة غير مفاصم ولا مخاصم لهم أو لعلمهم ودعوتهم، ويحتاج إلىٰ جانب العمل العسكري إلىٰ عمل دعوي تربوي خاص يحتضن العصبة المؤمنة والطائفة التي ستوجه وتقود الناس، وعمل دعوي آخر جماهيري عام إلىٰ جنب جهد سياسي شرعي وخطاب إعلامي دعوي ناضج بصير ونحو ذلك من دعائم ولوازم مثل ذلك الهدف الجليل والغاية العظيمة.

فإذا ما ظفرت بامرئ ذي بصر وبعد نظر ويتمتع بمثل هذا الفهم الشامل والعميق؛ فأظنه سيقول لك بعد أن يتأمل يمنة ويسرة في واقع أكثر جبهات القتال اليوم والعمليات الجهادية المتفرقة هنا وهناك، ويتدبّر موازين القوىٰ وحال مرجعيات أهل السنة ورؤوسهم؛ سيقول لك بأن القتال في أكثرها -ومن ذلك ما خاصمني فيه محدثي بالاتفاق- لا يعدو قتال نكاية في أعداء الله، ولا يتأمل هو ومن معه أن يقطفوا منه في واقع الحال ثمرة تمكين . . حتىٰ إنه قال جوابا علىٰ سؤالي عن ثمار ذلك القتال، وهل يعّول فيها علىٰ التمكين . . قال: هذه الثمرة أقرب إلىٰ تل أبيب منها إلىٰ تلك

البلاد، وذلك بسبب ما شاهده من بعد أهلها عن الدين وانحراف دعاتها وعلمائها وتهلهل وتخبّط الجماعات المنتسبة إلىٰ الإسلام فيها، وتولي كثير من الناس للأمريكان وكون موازين القوىٰ التي تؤهل لقطف الثمار في أيدي طوائف الكفر والضلال، وهي تنتظر وتتربص وتمارس العمل السياسي والإعلامي والتنظيمي والشعبي، وتعمل علىٰ توجيه قواها الشعبية وتنظيمها ضاغطة لتحصد هذه الثمار.

بينما أعظم ما يأمله صاحبنا ومن معه ويتطلعون إليه بعض أعمال النكاية في أعداء الله وفي عملائهم وأن يكدروا علىٰ أعداء الله الصليبيين استقرارهم بأمان في تلك البلاد، وقد يتمكنوا من التسبّب بانسحابهم علىٰ المدىٰ البعيد لكن بعمل مضن وجهد مركز ومتواصل وتضحيات كثيرة، هذا أقصىٰ ما يتأملوه!! لكنّهم يسلمون بأن ذلك إذا حصل فلا قدرة لهم ولا للمنتسبين لأهل السنة هناك علىٰ قطف ثمار ذلك والقبض علىٰ زمام الأمور بل سيقطفها غيرهم من فرق الضلالة أو أهل الإلحاد في ظل المعطيات الحالية وموازين القوىٰ .. أسأل الله تعالىٰ أن ينصر جنده ويمكن لعباده الموحدين

إذن فهذا القتال الذي يخاصم صاحبي وكثير من الشباب به دعوة التوحيد ويفاصمها حقيقته كما يقر أصحابه لا يعدو عن كونه قتال نكاية، ولا يؤملون منه تمكينًا لأهل الإسلام ودينهم .. ومثل هذا القتال موجود في أكثر أصقاع الدنيا اليوم، ولا مزيّة أو خصوصية للبقعة التي يتحمس لها صاحبي عن غيرها في هذا القتال بل علىٰ العكس فلقتال النكاية في بقاع أخرىٰ كفلسطين مزية وخصوصية لأجل المسجد الأقصىٰ وكأفغانستان لأجل شوكة الطالبان التي قد يؤمل رجوع تمكينها بها أو الشيشان حيث لامزاحم للمجاهدين هناك ولطبيعة البلدين الجغرافية فلذلك كله مزية وتقديم في

حسابات من يعوّل علىٰ قتال النكاية ويؤمل منه بعض الثمرات المفيدة لأهل الإسلام من جهة التحرير أو التمكين ولو علىٰ المدىٰ البعيد إن سلمت واستقامت تلك الثمرات للمجاهدين عند قطافها.

أضف إلىٰ هذا ضعف الخطاب المرافق لذلك القتال الذي يتحمس له صاحبنا وتهلهله، وقتال النكاية إن لم يرافقه خطاب ناضج واعٍ يبين عن الجهاد ويسمع أهدافه النظيفة للناس وينقل غاياته المشرقة للعالم وينقيه مما قد ينسب إليه أو يشوبه من التخليط والتشويه؛ وإلا فقد يستغله ويستثمره الأعداء ويصير وسيلة يشوهون بها الدين والدعوة ويحرضون بها علىٰ الإسلام والمسلمين ولذلك فإن بعض أنواع القتال أو الأعمال الجهادية التي لا تندرج قطعًا تحت قتال التمكين وربما لا تنكأ عدوًا أيضا؛ تقدم قطعًا عندي علىٰ هذا القتال الذي يتحمس له صاحبنا ويخاصم الدعوة لأجله إذا كان في تلك الأنواع ثمرات وآثارًا من جنس آثار التمكين كتخليص لبعض المستضعفين وفك للعناة وتحرير لأسارىٰ المسلمين من قيد الأسر ومن تعذيب الكفار لهم وإذلالهم وقهرهم وتسلطهم، فهذه الثمرات التي هي من جنس آثار التمكين الذي يخرج العباد من سلطان الكفر إلىٰ سلطان الإسلام؛ أعظم دون شك من النكاية المجردة في أعداء الله وأعظم من كثير من أعمال الحسبة التي يمارسها كثير من الشباب كتفجير خمارة هنا أو تدمير ملهىٰ هناك.

أما دعوة التوحيد المباركة التي تعمل وفق برنامج ناضج وتوجيه حكيم وعمل مثابر ودؤوب فلها حساباتها الأخرىٰ، ولاشك أنها تقدم علىٰ ذلك كله وترجح عليه لأنها جزء لا يتجزأ من جهاد التمكين الذي هو أمسّ ما يحتاج إليه المسلمون اليوم ليخرجوا به العباد من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده، ولذلك فلا بد للمسلمين من تقديمه وجعله من أولوياتهم ولا بد لهم

من توجيه جهودهم إليه وتركيز جهادهم عليه وحشد طاقاتهم من أجله.

ولكن مع الأسف الشديد وفي ظل الحماس الأجوف المنتشر بين هؤلاء الفصاميين يُخرج كثير منهم الدعوة ويفصمونها عن مفهوم الجهاد ولا يفهم كثير منهم من الجهاد إلا (الطخطخة) المجردة التي لا ترتبط بدعوة أو برنامج أو منهاج .. وكم يؤلمني هذا، وأشد منه إيلامًا أن يوجد في مرجعيات هؤلاء الشباب ورؤوسهم وموجهيهم من يكرس ذلك ويؤكده في أفهامهم.

ولذلك قلت للمجموعة التي أنا موقوف معها الآن في هذه القضية الجديدة وقلت لأمثالهم في قضايا سابقة أيضا يوم شاوروني ببعض أعمال النكاية التي يزمعون القيام بها رغم قلة خبرتهم العسكرية وتهلهل أحوالهم الأمنية.

فنصحت بعضهم أن يشتغلوا بدعوة التوحيد وحاولت بيان قلة جدوىٰ بعض الأعمال التي ذكروها وعدم شرعية البعض الآخر.

وقلت لمن كنت أعقد عليهم آمالًا في الدعوة إلىٰ التوحيد: (لقد خيّبتم آمالي..!!) لأني كنت أرىٰ أن اشتغالهم في الدعوة بين عشائرهم وفي مناطقهم أنفع للدين ولدعوة التوحيد والجهاد أيضا عند من يفقه الجهاد بشموليته وأركانه واحتياجاته خصوصًا وأن فيهم إمام المسجد والخطيب والمعلم ويحسنون الدعوة أكثر من غيرها، ولكن للأسف فإن الشحنات الحماسية التي يحقن بها هؤلاء الشباب أنفسهم ويحقنهم بها كثير من أمثال صاحبنا الفصامي تطغىٰ علىٰ الفهم الجيد والحكمة والنظر السديد أضف إلىٰ هذا تأثر هؤلاء الشباب وأمثالهم بأخبار عمليات المجاهدين المتقنة هنا وهناك وسعيهم لمحاكاتها دون أن يكون عندهم إمكانات أولئك المجاهدين وخبراتهم وإتقانهم هذا كله مع قصر نظر هؤلاء الشباب وسذاجة نظرتهم

للجهاد وثمراته، وسطحية تعاملهم معه ومع الدعوة، وعدم استيعاب وجوب مواكبة الدعوة ومرافقتها للجهاد بل وتقديمها عليه في كثير من الأحوال والظروف، خصوصًا عندما لا يتعدىٰ القتال قتال النكاية المتفرقة والمبثوثة هنا وهناك أو أعمال الحسبة المحدودة المقطوعة.

وللأسف فإن هذه النوعية المتحمسة من الشباب يقل فيهم من يحسن السماع للناصحين والموجهين من أهل الخبرة والتجربة والنظر، وربما يظن بعضهم أن مخرج هذه النصائح انهزام أو اندحار أمام أعداء الله أو جبن عن تحمل تكاليف القتال أو خوف من تبعات الجهاد لا خوفًا عليه وحرصًا علىٰ نهجه وثمراته، وأكثرهم لا يستوعب هذه التوجيهات والنصائح والدروس إلا بعد أن يخوض التجربة والخطأ بنفسه مع أن السعيد من وعظ بغيره واعتبر.

ولذلك فعندما رأيت بعضهم وبسبب تخبّطهم الأمني وتهلهل عملهم يعترفون أمام أعداء الله علىٰ أنفسهم وعلىٰ بعضهم البعض بسهولة ويسر، ورأيت آباءهم يُدلون بشهاداتهم في المحاكم ممجّدين النظام مظهرين ولاءهم له ونحو ذلك من الأمور التي ما كانوا ليتعاطوها إلا أن يشاء الله لو أن أبناءهم ركزوا واجتهدوا معهم بدعوة التوحيد المباركة .. عندما رأيت ذلك تذكرت قول الشاعر:

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوىٰ فلم يستبينوا الرشد إلا ضحىٰ الغد

علىٰ كل حال فهؤلاء قد صدر ذلك عن بعض آبائهم وأقاربهم ولم يصدر عنهم أنفسهم لفهمهم التوحيد وبراءتهم من الطواغيت.

أما غيرهم ويا للأسف ممن كانوا يخططون لأعمال حسبة أو نكاية أو نفذوها ثم تورطوا وابتلوا دون رصيد من الفهم والدعوة والعقيدة والتوحيد فقد صدر عن كثير منهم ما يندىٰ له الجبين ويشوّه الجهاد والدين،

فلا أدري أي جهاد أو قتال هذا الذي لم يترَبّ أبناؤه علىٰ العقيدة الراسخة والتوحيد؟

وأيُّ فصام نكد هذا، أدىٰ والله إلىٰ مخازٍ وفضائح أمام أعداء الله وفي تحقيقاتهم ومحاكمهم.

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيّه وخطاب من لا يفهمُ

وودت لو أن صاحبي الخصامي الفصامي ومن علىٰ شاكلته ممن يقلّلون من شأن دعوة التوحيد، كانوا حاضرين مستمعين لشيء من ذلك؛ ليتعرّفوا بأنفسهم إلىٰ بعض آثار هذا الفصام أو الإهمال النكد للدعوة، وليحمدوا الله علىٰ نعمة الهداية والتوفيق إلىٰ التوحيد ببركات هذه الدعوة، فيحفظوا لها عهدها ولا يبخسوها حقها.

والخلاصة أن إقامة دين الله والتمكين لأهله في زماننا كما أنه لن يتأتىٰ من الدعوات المنحرفة المتخبطة، ولا من صناديق الاقتراع ومجالس التشريع الشركية، وكذلك لن يتأتىٰ من تحت رايات ممسوخة أو جاهلية.

فكذلك لن يتأتىٰ من أعمال قتالية أو عمليات تفجيرية أو عسكريه محدودة مبتورة يقوم بها المجاهدون هنا وهناك لا تخرج عن مجرد النكاية في أعداء الله ويتأكد ذلك إذا كانت مفاصمة مخاصمة للدعوة..

بل يحتاج هذا الأمر إلىٰ جهاد جاد متواصل ومتكامل، لا يخاصم دعوة التوحيد أو ينفصم عنها بل يسير معها وترافقه جنبًا إلىٰ جنب، بحيث تكون خطابه الذي يمهد له الطريق ويتكلم ويبين عن الجهاد وغاياته وأهدافه، وتبقىٰ رأس ماله وزاده الذي يُخرّج له الرجال المخلصين الموحدين الذين هم وقود هذا الجهاد، وتوفر له القادة الربانيين والعلماء العاملين الذين يوجهون هذا الجهاد ويرعون ثمراته ويحفظونها من الانحراف

ويتعاهدونها إلىٰ أن يقطفها المجاهدون بأيديهم المتوضئة النظيفة.

جهاد لا يفاصم أو يخاصم أو يستخف بجهد الشاب المتفرغ لتدريس أبناء إخوانه المجاهدين أو الدعاة أو الشهداء أو السجناء الذي يعمل علىٰ تعليمهم وتحفيظهم كتاب الله وتربيتهم أو يتابع ويرعىٰ أمور أسرهم المادية والاجتماعية أو يخلفهم في أهليهم.

ولا يخاصم أو يستخف بالداعية الذي يعمل بهدوء بين أهله وعشيرته ويجتهد في تبصيرهم بالواقع وإخراجهم من ظلمات الشرك إلىٰ نور التوحيد .. أو يتفرغ في قرية نائية يدعو إلىٰ ذلك بهدوء بين أهلها ويربي شبابها علىٰ التوحيد ويوعيهم ويهيئهم للجهاد في سبيله.

ولا يخاصم طالب العلم الذي يبذل وقته يسهر ليله في الرد علىٰ الطاعنين في التوحيد المروجين أو المرقعين للشرك والتنديد، كتابةً أو خطابةً أو دعوةً ويوجه إخوانه ويعدهم علميًا وفكريًا ويوعيهم ليكونوا مجاهدين صالحين ناضجين يصلحون لقيادة الأمة وتسيير دفة الجهاد إلىٰ ما يحبه الله ويرضاه.

ولا يخاصم من يتفرغ لنشر ذلك وبثه طباعةً ونشرًا وتوزيعًا في الكتب والأشرطة أو عبر الإنترنت أو غيره.

جهاد يحترم القائمون عليه أرواح إخوانهم وأعمارهم فلا يفرطون بها في أعمال مرجوحة أو غير واعية ومدروسة ويحرصون علىٰ موارد المسلمين وأموالهم فلا يبددونها بأعمال مفضولة أو متخبطة وعندهم من الوعي والنضوج ما يجنبهم خصام أحد ممن تقدم ذكرهم أو الاستخفاف بأعمالهم ودعوتهم وجهودهم أو الاستنكاف عنها أو فصلها وفصمها عن الجهاد، بل استيعابها كلها وجعلها تحت مظلته وضمن برنامجه وخطته وضروراته.

فإذا وجد مثل هذا الجهاد وكان علىٰ هذه الصورة الناضجة التي يرتجىٰ ويؤمل منه التمكين ولو بعد حين؛ رجّحناه دون شك علىٰ الدعوة المجردة عنه، ولو كانت نظيفة موحّدة، إن كانت مفصومة عن الجهاد مخاصمة له!!

لكن إذا لم تتيسر مثل هذه الصورة المشرقة وكان الموضوع في الكفة المقابلة لدعوة التوحيد الناشئة علىٰ سبيل المثال، بعض أعمال النكاية المجردة المبتورة هنا وهناك؛ فلا ينبغي ترجيح مثل هذا القتال أو تقديمه عليها بحيث تفرغ الساحات من الدعاة النشطين ويجعلون وقودًا لمثل هذا القتال بحجة فرضية الجهاد فتهمل الدعوة ويحبط جهد الدعاة لأجل قتال لا يخرج عن هذه الصورة يمكن القيام بمثله في أي وقت وفي أي مكان.

أو تحبط دعوتهم وتقوّض برامجهم التي تعقد عليها الآمال ويزج بالدعاة في السجون لأجل بعض أعمال الحسبة التي لن تؤتي ثمارها الحقيقية إلا في ظل التمكين وسلطان المسلمين.

ولذلك يجب علىٰ الداعية العاقل الناضج أن يكون فطنًا حازمًا فلا يسمح لهؤلاء الفصاميين أو غيرهم أن يحرفوه عن برنامجه المتئد أو يعطلوا له دعوته بالتورط معهم في بعض هذه الأعمال المرجوحة، أو يخرجوه عن نهج دعوته وخطها المحكم النظيف الطموح ما دام مقتنعًا برجاحة هذا الخط وثمراته، عارفًا بسطحية هؤلاء الفصاميين متبصرًا بآثار فصامهم النكد.

ختامًا . . لم أكن مضطرًا لكتابة هذا، خصوصًا وأنا أخشىٰ أن يساء فهمه، وهناك ما هو أولىٰ منه، لولا هذا الفصام والخصام النكد الذي ابتدعه بعض الشباب فقلبوا به لدعوة التوحيد ظهر المجن، مما دفعني للتصدي لهذا الفصام واستئصاله . . وإلا فكل من يقرأ ما أكتبه يعرف

وقوفي بفضل الله دومًا في عدوة المجاهدين في كل مكان، ودفاعي عن جهادهم المبارك بكافة صوره المشروعة، وحرصي علىٰ توجيه هذا الجهاد إلىٰ أحسن وأكمل الثمرات ما استطعت إلىٰ ذلك سبيلا، وتنقيته من الشوائب والأخطاء والانحرافات، وهذا الذي كتبته هنا لا يخرج إن شاء الله عن هذه الغايات .. وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ .. فتأمل كيف سمّىٰ الله التفقه للدعوة والإنذار نفيرًا في السورة ذاتها التي دعا فيها إلىٰ النفير العام ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

وبيّن سبحانه في هذه الآية أن الواجب علىٰ المؤمنين أن يكمل بعضهم بعضًا؛ فطائفة تنفر للقتال وطائفة تنفر للتفقه والدعوة والإنذار، وكلا الطائفتين معًا تمثلان الجهاد بصورته المتكاملة ولا يعيب هؤلاء علىٰ هؤلاء أو يخاصموهم أو يفاصموا جهودهم .. حتىٰ روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن هذه الآية نسخت عموم قوله تعالىٰ ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ ... الآية

ومعلوم أن بعض السلف ومنهم ابن عباس كانوا يطلقون النسخ ويريدون به التخصيص، فلا حاجة للقول بالنسخ بصورته الأصولية بمعنىٰ إلغاء الحكم، بل جميع الآيات محكمة يكمل بعضها بعضًا، فالأمر بالنفير العام وعدم التخلف عن نصرة الدين إذا أخذ بصورته المتكاملة يجمع بين الآيات ويُعملها كلها، وإعمال النصوص جميعها أولىٰ من تعطيل بعضها، وهذا ما أوضحته الآية ونبهت عليه حين بينت أن النفير العام المطلوب من المؤمنين أعم وأشمل من مجرد القتال، ولذلك سمىٰ الله فيها التفقه

في الدين للدعوة والإنذار نفيرًا تمامًا كما سمىٰ القتال نفيرًا . . . فالمطلوب من المؤمنين الجمع بين النفيرين. .

فلا يصح أبدًا أن نوقع الخصومة والفصام بين الدعوة والجهاد بل هذه تكمل هذا، والأصل أن أهل الدعوة علىٰ ثغر من ثغور الدين وأهل الجهاد علىٰ ثغر، وكل يجب عليه حفظ ثغره أن يؤتىٰ الدين منه، وكل يكمل الآخر ولا غنىٰ لأحدهما عن الآخر،

وإلىٰ هذا أرشدنا ربنا في كتابه فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

وفي الأثر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه خرج علىٰ بعض أصحابه حاملا السيف في يد والمصحف في يده الأخرىٰ وقال: (أمرنا أن نضرب بهذا من خرج عن هذا).

فهذا يكمل هذا، ولا ينفصل عنه، ولم يكن سلفنا لسعة علمهم وعمق فهمهم يوقعون الخصومة بين السيف والكتاب. .

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قوام الدين بكتاب يهدي وبسيف ينصر، وكفىٰ بربك هاديًا ونصيرًا».

الوقفة التاسعة عشر

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾

بين الجائز والأصلح .. وبين المشروع والأنفع..

سألني صاحب من أصحاب سجني عن رأيي في «إعلان» تبني بعض المجاهدين ذبح أسير) مدني (أمريكي و«إشهار» ذلك أمام الكاميرات و«نشره» عبر شبكة الإنترنت ليشاهده العالم كله فيصير حديث الساعة للقاصي والداني حتىٰ كاد يغطي علىٰ حديثهم عن فضائح الأمريكان أدعياء حقوق الإنسان في سجن أبو غريب!!

فقلت: لا أؤيد ذلك ولا يعجبني، مع معرفتي بحرقة من فعله علىٰ دين الله وحرصه علىٰ إعزازه وتألمه لما آلت إليه أوضاع أمته وتغيظه من تكالب الأعداء عليها وذلك كله مما دفعه إلىٰ الاستعجال بإعلان ذلك وإشهاره، ومع ذلك كله أؤكد أن ذلك لم يعجبني وتمنيت لو أنه لم يعلنه ولا تبناه . . والأولىٰ بمن ينتمي إلىٰ مدرسة الجهاد الإسلامي العظيم أن لا يعلن أو يتبنىٰ من الأعمال إلا ما لا ينتطح عليه عنزان مما يرفع راية الجهاد نقية وينأىٰ به عن كل ما يكدره أو يمكن الأعداء من استغلاله في خلط الأوراق وتشويه المجاهدين أو توظيفه لمآرب الأعداء.

قال صاحبي: عجبا لك، ولماذا لا يعجبك أليس ذلك بجائز؟

فقلت: يا أُخيّه، عندما أقول أن ذلك لم يعجبني فليس هذا لمجرد المخالفة والمماحكة، فليس أحب عندي من الموافقة والموالفة علىٰ

الخير . . وإنما هو حرصي علىٰ استبعاد ما يضر الجهاد وسمعته في زمن لم تعد الحرب فيه موقوفة علىٰ القتال وحده، بل الإعلام له نصيب كبير في المساهمة في هذه الحرب، واختيار مني لما هو أنقىٰ وأنفع للدعوة والجهاد والمسلمين في هذه الظروف.

ولقد كررت مرارًا وتكرارًا في كتاباتي وخطاباتي ودروسي لك ولغيرك أن الدعاة والمجاهدين لن يفلحوا الفلاح الذي يرجون ولن ينفعوا أمتهم وجهادهم كما يتمنون حتىٰ يرتقوا من مستوىٰ النظر في الجائز وغير الجائز وحسب؛ إلىٰ مستوىٰ الموازنة بين النافع من ذلك الجائز وغير النافع منه في هذا التوقيت، والراجح منه والمرجوح والفاضل والمفضول، والمصالح المختلفة في العمل المختار، والمفاسد المتفاوتة في تلك الأمور المفروغ من جوازها.

يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أصلح.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾

فالله أمرنا أن نتبع أصلح الأعمال وأحسنها وأحراها نفعًا لديننا، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾.

وإننا كمسلمين فالمفروض أن موضوع تحري الجائز والمشروع والحلال منتهي مفروغ منه عندنا؛ أعني أن ذلك معلوم ومن المسلمات فلا يجوز أن نختار من العمل والجهاد إلا ما كان كذلك فإن ما عند الله لا ينال بمعصيته، ودين الله ورايته لا تنصر ولا ترفع بالحرام فضلا عن الكفر أو الإشراك، وهذا يجب أن يكون من البديهيات عند العاملين لهذا الدين ومن ألف باء أنصاره ومجاهديه . . ومن ثم فالمسائل لا ينبغي أن تعالج وتطرح علىٰ بساط البحث من هذا المنظور وحسب، بل كما قلنا

مرارا وتكرارًا يجب أن يراعىٰ في معالجتها واختيارها الأنفع للجهاد والأصلح للمسلمين والأنكىٰ لأعدائهم..

أقول .. لماذا عندما تتعلق المسألة بمطعمنا ومشربنا أو ملبسنا ومنكحنا لا نقنع في البحث والنظر فقط في الجائز والمباح والمشروع؛ بل نصطفي من ذلك لأنفسنا أطايب الطعام والشراب واللباس وحسان النساء؟

أما عندما تتعلق المسألة أو الاختيار بالدين والدعوة والجهاد نقبل له ونقنع بأي شيء، وجميل بل رائع وكثير -وربما يمن بعضنا- إذا كان ذلك في نطاق المباح أو المشروع أو الجائز وسلم من الحرام!!

أليس مباحًا وجائزًا ومشروعًا مثلًا أن تتزوج امرأة شلاء عوراء برصاء، لا شك أن ذلك جائز ومشروع ولك فيه أجر، فلماذا إذن تحرص وتفتش وتجتهد علىٰ أن تختار المعافاة بل والجميلة؟؟

وتحضرني هنا لطيفة لعلي ألطف بها جفاف الموضوع فقد حدثني أحد إخواننا الذين كانوا في البوسنة أن مجموعة من الشباب العرب طلبوا من بعض المجاهدين هناك أن يسعىٰ في تزويجهم ببعض الأخوات البوسنيات اليتيمات بدعوىٰ الستر عليهن وكفالتهن وذكروا ما تعرضت له البوسنة من مذابح واغتصاب واستباحة للأعراض وأظهروا شفقتهم وحرصهم وألحوا عليه في ذلك، فواعدهم الأخ أن يرد عليهم بعد أيام ثم أعادوا الإلحاح عليه في الأمر، فقال لهم: لقد فكرت في طلبكم وأقدّر لكم حرصكم ونخوتكم، وأنا أعرف أخوات كثيرات فقيرات ويتيمات في كثير من دول أفريقيا؛ وسأسعىٰ لكم إن شئتم للزواج منهن وكفالتهن!! فما كان من أولئك الشباب إلا أن واعدوه كما فعل هو أولًا ليردوا عليه بعد أيام؛ إلا أنهم ذهبوا ولم يرجعوا!!

أقول: لماذا خرجوا ولم يرجعوا؟ أليس ذلك الذي عرض عليهم جائز ومشروع بل وفيه أجر؟!

أم أن المسألة هنا لا يكتفىٰ ببحثها في نطاق الجائز والمشروع، بل تدقق وتحقق في مجال الأفضل والأكمل والأحلىٰ والأجمل!!

يا إخواننا أيصح أو يعقل أن لا نرضىٰ لمطعمنا وملبسنا ومنكحنا إلا بمعالي الأمور وصفوتها، ونقنع لديننا وجهادنا ودعوتنا بسفسافها..؟

حفظ الله أم نضال الفلسطينية تلك المرأة التي بعثت ابنها محمود إلىٰ مستعمرة يهودية في فلسطين فاقتحمها برشاشه وقنابله بعد أن كمن سبع ساعات ينتظر صيده فقاتل وقتّل حتىٰ قتل، وحين سئلت أمه عنه بعد مقتله، قالت فيما قالته أنها كانت تعده لمثل هذا اليوم، وكانت تمنعه من المشاركة في رجم اليهود بالحجارة كي لا يصاب بطلقة تعيقه عن القيام بما تدخره له من عمل عظيم تتمناه له، وتقول له: أنا أريدك لشيء أكبر من رجم الحجارة، وتقول: عندي ستة أولاد مستعدة كي أقدمهم في سبيل الله لكن بعمل مشرف مثل الذي قام به محمود..

متىٰ ينضج الشباب المجاهد فيعمل فكره علىٰ هذا النحو وأعظم منه؟ إن ثلاثة أرباع جهودنا وأموالنا وتضحيات إخواننا مبعثرة اليوم بسبب قصر نظرهم أو قصر نظر رؤوسهم وقادتهم في أعمال مرجوحة مفضولة بدعوىٰ أنها أعمال مشروعة!!

فمتىٰ يتوجه جهدنا ويتركز جهادنا علىٰ مراعاة الأصلح والأنفع للأمة؟ وعلىٰ اختيار الأسدىٰ والأجدىٰ لها والأنكىٰ في أعدائها؟

ولا يتوقف عند حدود الجائز والمشروع وكفىٰ، بل يغوص في أعماق الجائز والمشروع فيختار وينتقي منه الأشرف والأعظم والأنقىٰ مما يرفع راية الجهاد مشرقة ناصعة.

قلت لمحدثي -وهو ممن حكم بالسجن المؤبد لتفجير بعض دور السينما والخمارات ثم نضج وارتقىٰ تفكيره عن ذلك المستوىٰ مع طول فترة السجن وطلب العلم فيه- قلت: إذا لم يعجبك كلامي هذا ولم تقنع به فإن خرجت من السجن فارجع إذن إلىٰ تفجير دور السينما والخمارات مرة أخرىٰ، في وقت يتطلع فيه المسلمون اليوم إلىٰ عظائم الأمور ويتصدون فيه لأعتىٰ قوىٰ الأرض؛ جاهدين بأن تكون لهم دولة وكلمة في إدارة هذا العالم ودحر الكفر فيه؛ وهم بحاجة لتحقيق مثل هذه الغاية لكل جهد ولكل قطرة دم ولكل مخلص ومجاهد؛ دع أنت عنك المشاركة في هذه المعالي وارجع وافتح الحرب علىٰ فساق المسلمين وعوامهم وفجّر دور السينما التي يرتادونها.

أليس هذا جائز ومشروع وإنكار للمنكر..؟!

قال: لا أفعل هذا ولا أبدأ به فقد فهمت وتعلمت وأصبو لما هو أعظم.

قلت: إذا لم يستوعب عقلك ما قلته لك؛ ففهمك وعلمك لا زال بحاجة إلىٰ نضوج، وما فهمت بعد ولا تعلمت الفهم والعلم الذي يتناسب مع الواقع وتحديات العصر وحاجات ديننا وأمتنا..

فإذا تأملت الضجة التي حصلت علىٰ إثر إعلان نشر صور ذبح ذلك الأمريكي الذي يسمىٰ في عرف زماننا مدنيا، مع قطع رأسه عيانا علىٰ شاشات التلفزة بعد ذبحه والذي يعده بعض أهل العلم من التمثيل..

وتابعت استغلال أعداء الله وعلماء السوء لهذه الحادثة وتوظيف الأمريكان والطواغيت لها لتشويه الجهاد وأهله والتشنيع عليهم وتنفير عوام المسلمين عموما والعراقيين خصوصًا عن المجاهدين، وغير ذلك من

المفاسد دون فائدة أو عائدة عظيمة لإعلان ذلك وإشهاره وتبنيه؛ علمت أن من فعل ذلك لم يكن موفقًا في اختياره هذا، وأنه كي يفوت علىٰ أعداء الله هذا كله فيجب عليه أن يرتقي بتفكيره إلىٰ معرفة حقيقة المعركة مع أعداء الله اليوم وحقيقة أسلحتها وأدواتها؛ وأنها لا تتوقف علىٰ ذلك السكين الذي ذبح به ذلك الأمريكي وأن النضوج وسعة الأفق في فهم الجهاد وأدواته ليس في كبر ذلك السكين وعظمه وإنما في شمولية الجهاد وأدواته للإعلام وغيره وتوسع مدارك أهله له، ونضوج اختياراتهم؛ فتارة يتركون أشياء وأعمال لأمور أهم، وتارة يقدمون شيئًا علىٰ شيء لتوقيت معين، وتارة يفعلون ويختارون دون أن يتبنوا ويعلنوا وتارة يعلنون ويشهرون ما فيه مصلحة خالصة وعملا نقيًا لا ينتطح عليه عنزان ولا يماري فيه إنسان، فإن هم فعلوا ذلك وظفوا إعلام الأعداء إضافة إلىٰ إعلام المجاهدين ووجّهوه كما يريدون هم، لا كما يريد أعداؤهم إذ لم يتركوا مجالًا لهم في استغلال عثرة أو توظيفها لأهدافهم ومآربهم الخبيثة، ومثل هذا الأمر لا يكفي لتحقيقه والنجاح فيه علم الشرع وحده وإن كان ضروريًا؛ بل لا بد معه من متابعة ذكية وحثيثة للواقع ومجرياته والأعداء ومكايدهم وتأمل في ظروف الأمة وأحوج حاجاتها وأعظم مصائبها..

وإذا قلت لي يا شيخ؛ لقد أبعدت النجعة وضيقت واسعًا فرسول الله ﷺ قتل بعض الناس صبرًا (أي في الأسر) وقتل غالبية رجال بني قريظة وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

قلت: نعم، ولا أشك أن خير الهدي هدي محمد ﷺ ولو تدبرته وفهمته وحلّلته وتأملته أفلحت كل الفلاح..

ولذلك نص العلماء المحققون المتبصرون بذلك الهدي العظيم علىٰ تخيير الإمام في الأسارىٰ بين المن أو الفداء أو تبديل أسارىٰ المسلمين بهم

أو القتل أو غير ذلك من الاختيارات بحسب دين الأسير وشدة عداوته وخطره..

والاختيار في ذلك كله يرجع كما نصوا إلىٰ (ما هو أحظىٰ وأنفع وأصلح للإسلام والمسلمين).. تأمل؛ عدنا إذن إلىٰ الأحظىٰ والأنفع والأصلح؛ وهذا الذي نددن حوله ونحث عليه ونوجه المجاهدين دوما إليه في كل أبواب الجهاد اليوم..

ولو تأملت واستقرأت معي سيرة رسول الله ﷺ في الأسارىٰ لرأيت أنه لم يكن يجري فيهم علىٰ سياسة واحدة، بل كان يمن تارة كما فعل مع ثمامة بن إثال وتارة يقبل بالفداء والعوض وتارة يقتل بعضهم قودًا وقصاصًا أو غيره كما فعل مع العرنيين الذين ارتدوا وقتلوا الرعاة وسملوا عيونهم فاقتص منهم مثلا بمثل .. وقتل بعض الكفار وهو متعلق بأستار الكعبة مشهرًا قتله علىٰ رؤوس الناس تأديبًا لكل طاعنٍ في الدين محاربٍ أو هاجٍ للإسلام والمسلمين..

وهو في كل ذلك لم يقتل صبرًا وبهذه الطريقة المعلنة إلا أشد الناس عداوة له ولدينه..

فعبد العزىٰ أو عبد الله بن خطل الذي قتله ﷺ وهو متعلق باستار الكعبة كان من بين بضعة نفر أهدر ﷺ دمهم يوم فتح مكة من بين سائر الناس الذين كفروا بدينه وحاربوه، وذلك لشدة عداوة هؤلاء النفر وحرابتهم وهجائهم للإسلام والمسلمين..

فعبد الله بن خطل كان قد أسلم فبعثه رسول الله ﷺ وبعث معه رجلا من الأنصار فقتل الأنصاري وارتد مشركًا وصار يهجو رسول الله ﷺ وكان له قينتان تغنيان بهجائه علىٰ مسامع المشركين فقتله النبي ﷺ صبرًا وقتل إحدىٰ قينتيه كذلك..

ومنهم مُقيس بن صبابة وكان قد ارتد بعد إسلامه وقتل ولحق بالمشركين يطعن برسول الله ﷺ ويحاربه أشد الحرابة . .

فتأمل تميّز جرائم من قتلهم صبرًا عن سائر أهل مكة الذين أمنهم جميعًا . . فؤلئك قد جمعوا بين الردة والقتل وخصوصية الحرابة والعداوة والطعن ولذلك استدل شيخ الإسلام بقتلهم صبرًا من بين سائر مشركي مكة علىٰ وجوب قتل ساب النبي ﷺ . .

ومع ذلك فمن فرّ من هؤلاء وأسلم واستؤمن له عفىٰ ﷺ عنه كهبّار بن الأسود الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت فنخس ببعيرها حتىٰ سقطت علىٰ صخرة وكانت حامل فأسقطت جنينها . . وكعكرمة بن أبي جهل وكقينة ابن خطل الأخرىٰ وغيرهم . .

ومن أسارىٰ بدر لم يقتل صبرًا من المقاتلين الأسارىٰ إلا النضر بن الحارث الذي كان يسبه ويؤذيه بالقول والفعل أذىٰ شديدًا ومثله عقبة بن أبي معيط والذي كان إضافة إلىٰ مبالغته في أذىٰ وتعذيب أصحاب النبي ﷺ يكثر الطعن في القرآن والنبي وآذاه وخنقه بردائه خنقًا شديدًا ليقتله ووضع علىٰ ظهره سلىٰ الجزور وهو ساجد.

فلم يقتل رسول الله ﷺ من بين الأسارىٰ صبرًا غيرهما . .

أما بنو قريظة فقد كانوا كما يقول ابن القيم في الزاد: أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ وأغلظهم كفرًا ولذلك جرىٰ عليهم ما لم يجر علىٰ إخوانهم من يهود بني قينقاع والنضير.

فقتل مقاتلتهم كما في البخاري وذلك بعد أن نقضوا عهده وأعانوا كفار قريش وظاهروهم عليه وألبوهم وألبوا غطفان وغيرهم علىٰ حربه وكانوا سببا في وقعة الخندق فلا عجب أن يعاملهم ﷺ بذلك من بين سائر اليهود

ومع ذلك فمن عظيم فقهه ﷺ ومراعاة منه لحدثاء الإسلام من أصحابه من الأنصار ودفعا لأي مفسدة؛ لم يبادر هو إلىٰ الحكم بقتلهم بل رد حكمهم إلىٰ حلفائهم ومواليهم من الأوس، فاختار بنو قريظة بأنفسهم وقبلوا أن ينزلوا علىٰ أي حكم يحكمهم به حليفهم سعد بن معاذ فحكم رضي الله عنه بقتل مقاتلتهم..

وهكذا وبالاستقراء لم يؤثر عن النبي ﷺ أنه قتل «صبرًا» من الكفار غير مقاتل أو مدني كما يسمونه اليوم بل لم يقتل حتىٰ من المقاتلين صبرًا إلا من تميّز منهم بغلظ كفره وشدة عداوته وحربه وسبه وهجائه له ﷺ وللمسلمين، ولا شك أن في ذلك حكمة منه بالغة ووسطية في الاختيار وعدم اكتفاء منه بالنظر في شرعية ذلك وجوازه وحسب، بل اعتباره لمصلحة الإسلام والمسلمين واختياره للأنكىٰ في أعداء الله المحاربين، فيؤدب بذلك ويشرد به من خلفه من كل عدو محارب خبيث، ويميّز غيرهم ممن هم ليسوا بشديدي المحاربة له ولدينه ويدفعهم بذلك إلىٰ التزام خطهم وعدم التعدي بالحرابة والعداوة .. إلىٰ غير ذلك من المصالح التي تحققها هذه الوسطية والحكمة في الاختيار..

وسطية تختار أنكىٰ وأشد أنواع القتل لأخبث الأعداء وأشدهم ضراوة ولا تساوي بهم في ذلك سائر الكفار فضلا عن غير المقاتلين ومن ذلك تجنبه في غالب أمره للمثلة ونهيه عنها وكفّه عن التمثيل بالمشركين الذي كان قد عزم عليه بعد أن رأىٰ تمثيلهم بعمه حمزة رضي الله عنه .. مع أن العقوبة والجزاء والقصاص بالمثل جائز ومشروع لكنه ﷺ علّم أمته الأخذ بالأعلىٰ والأصلح والأنقىٰ والأكمل من العمل والجهاد كما وجهه ربه بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ثم أرشد للأفضل والأكمل فقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾

وقال سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ثم قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾

وقال ﷻ: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ ثم قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾

أقول: هذا الطموح الذي أحب دومًا لفت أنظار إخواني المجاهدين والدعاة إليه وأسعىٰ جاهدًا لتوجيه هممهم وآمالهم إليه، وحث خطاهم نحوه، وتركيز جهودهم عليه، والارتقاء بتفكيرهم إلىٰ مستوىٰ الجهاد الإسلامي العظيم ونقاوته، واعتبار أعظم حاجات أمتهم ودينهم، لتصبح اختياراتهم لا محكومة فقط بفلك الجائز والمشروع تدور وتتردد فيه وحسب، بل كما أسلفت تغوص في أعماق الجائز والمشروع لتستخرج من الدرر ما هو أنفع للأمة والجهاد وأصلح وأجدىٰ وأسدىٰ، وتربي قادة ودعاة ومجاهدين لا ينظرون إلىٰ الجائز والمشروع والمباح نظرة سطحية؛ بل يجيلون النظر فيه ويمحصونه ويدققونه ليرجّحوا منه الأنفع لهذا الوقت أو ذاك، والأصلح من الأعمال والأجدىٰ من الاختيارات والأنكىٰ بل والأقطع للأعداء..

بل إني أذهب إلىٰ أبعد من هذا فأقول أن الواجب عليهم أن يتعاملوا بذلك، مع الواجبات والفرائض أيضا خصوصًا عند تزاحمها وتعدّدها علىٰ أهل الإسلام اليوم..

فيقدمون الواجب المضيّق أو الراجح والاهم علىٰ الواجب الموسع أو المرجوح..

ففي الجهاد الذي ندندن حوله في حديثنا هذا لا ينبغي أن يحرّض الشباب بدعوىٰ فرضية الجهاد علىٰ أي ساحة وعلىٰ أي عمل وتحت أي

قيادة . . بل الواجب عليهم مع تزاحم ميادين الجهاد وتعدد ساحاته وكثرة مآسي المسلمين والحروب المستعرة عليهم والأعداء المحاربين لهم والمستبيحين لحرماتهم، أقول يجب عليهم في خضم هذا الواقع أن يختاروا الأولىٰ والأهم والأرجح من الميادين التي يعوّل عليها نصر الإسلام والمسلمين والتمكين لهم ولدينهم، ويصطفوا أنقىٰ الرايات وأنضج القيادات، ولا يكون انتقاؤهم مبنيًا علىٰ الحماس الأجوف أو مدفوعًا ومتأثرًا بتطبيل مشايخ وعلماء الحكومات أو تزمير إعلامهم وصحافتهم وفضائياتهم، والذين لا يفعلون ذلك إلا حين يعطيهم أولياء نعمتهم الضوء الأخضر الذي أخذوه بدورهم من أوليائهم الغربيين لمصلحة يحققونها أو عدوا ينكؤونه؛ بل يكون محكوما كما قدمنا وكررنا بالأحظىٰ والأنفع للإسلام والمسلمين والأنقىٰ لجهادهم والأنكىٰ والأقطع لأعدائهم. .

وأن يقدموا ما كان من جنس جهاد الدفع علىٰ ما كان من جنس قتال الطلب، لأن جهاد الطلب فرض كفاية، أما جهاد الدفع ففرض عين، ولذلك اشترط العلماء في جهاد الطلب إذن الوالدين وإذن الدائن، بخلاف جهاد الدفع الذي لم يشترطوا فيه هذه الأشياء . . وهو أيضا يتفاوت بين جهاد دفع لدهم؛ فهو يقدم علىٰ جهاد دفع علىٰ صورة الطلب.

وليعلموا أن من جنس جهاد الدفع القتال الذي يختار تحرير بعض بلاد المسلمين من طغاة الكفر الداخليين أو الخارجيين والتمكين لأهل الإسلام ودينهم هدفًا لبرنامجه وغاية وأولوية في حساباته، ولذلك يقدم مثل هذا القتال علىٰ أي قتال آخر يكون طابعه النكاية المجردة أو أعمال الحسبة المبتورة والمنقطعة. .

بل يقدم علىٰ هذا النوع الأخير ويقارب قتال الدفع السعي في فكاك أسارىٰ المسلمين والقتال من أجل تخليص المستضعفين كما قال تعالىٰ:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

وفي صحيح البخاري عن أبي موسىٰ الأشعري مرفوعًا: (فكوا العاني..) أي: الأسير.

ولذا قال النووي: (إذا أسر الأعداء مسلمًا أو مسلمين فالراجح أن المسألة كدخول العدو ديار الإسلام (يعني كقتال الدفع) لأن حرمة المسلم أعظم من حرمة الدار، فيجب العمل علىٰ استخلاص الأسير أو الأسيرين) أهـ.

والعلم بهذا التفاضل والفقه به، والبصر بالواقع ومدىٰ تفاوت الأعداء في خبثهم ودرجة عداوتهم وحرابتهم للإسلام والمسلمين يعين المجاهد علىٰ الترجيح بين الواجبات والفرائض المتعددة والمتزاحمة، فيقدم الواجب العيني منها علىٰ الكفائي والمضيّق الذي لا يحل السكوت عليه أو تأخيره كأن يكون في تأخيره هتك للأعراض أو استباحة للدماء المعصومة أو نحو ذلك فيقدم ذلك علىٰ ما هو أوسع منه.

ولا يكتفىٰ في الاختيار مع هذا التزاحم والتعدد بمجرد دعوىٰ الوجوب أو الفرضية..

أسأل الله العظيم أن يهيئ للمسلمين من أمرهم رشدًا وأن يسددهم لما يحب ويرضىٰ .. هو ولي ذلك والقادر عليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قال لي بعض الإخوان ممن قرأوا بعض هذه الوقفات فحصروها علىٰ أشياء محدودة في أذهانهم: رفقًا ارحم قلمك أيها الشيخ..

فأقول: إنما أرحمه وأسعده بالدفع عن جهاد المسلمين وتنقيته من كل ما قد يشوبه أو يشوهه أو يحرفه ويحيد به عن الجادة..

فهذا الجهاد ليس ملكًا لأحد من الناس يستأثر بتوجيهه كيف شاء؛ بل جميع المسلمين فيه شركاء ويجب أن يحرصوا علىٰ تميزه ونقاوته ويعملوا علىٰ تسديده ويجتهدوا في ذلك بالمشاركة فيه وبالنصح والتوجيه والدعاء، وعلىٰ من يحسبون كرؤوس ومرجعيات للجهاد كفل عظيم من ذلك..

ولا يجوز لهم بحال أن يداروا أو يداهنوا أو يقروا الانحراف أو التشويه فيه أو الخطأ؛ ولو صدر من أقرب الناس إليهم .. وأن يقدّموا مصلحة الدين والجهاد والمسلمين علىٰ الأسماء والأشخاص..

فأقول له ولغيره تدبّر ما كتبته لك ولغيرك في هذه الأوراق فإنها أوراق ذات شجون بذلت فيها خلاصة نصحي للدعاة وللجهاد والمجاهدين، ولا تحصر تفكيرك وتحجّره وتصغره في التنبيش والبحث وقول أن الشيخ يقصد فلانًا أو علانًا أو نحو ذلك، فتحرم نفسك من خير عظيم فيها، فالأمر أكبر مما تظن ولم أعود نفسي أن أشغَلها بأشخاص معينين فضلًا عن أن أشتغل في دعاة أو مجاهدين نحسبهم إن شاء الله من أهل الصدق والإخلاص ولا نزكي علىٰ الله أحدًا..

بل إني في كتاباتي هذه التي تقطر همًا وأسىٰ علىٰ جهادهم أرحمهم وأنصرهم أشد من نصرة السلاح والمال لو كانوا يفقهون، وذلك بالحرص علىٰ تسديد هذا الجهاد وتوجيهه إلىٰ الأنفع والأحظىٰ لدين الله، وتحذيره من الانحرافات وتجنيبه للعثرات وتنقيته من مشوَّه الثمرات..

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

الوقفة العشرون

تقزيم الجهاد

يقول الله تعالىٰ: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ . . .

هذه الآية تبين عظم أجر ودرجة من عمل لدين الله وجاهد في سبيل الله بنفسه وماله قبل أن يفتح الله علىٰ المسلمين ويمكّن لهم في الأرض. .

ذلك أن الأنصار قبل الفتح غرباء قليلون (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ) أما بعد الفتح فإن الأنصار يقدمون ويهجمون ويكثرون ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾.

واليوم وبعد أن زالت دولة الإسلام ودالت دولة الردة والكفر والإشراك، ومنعت العراق درهمها وقفيزها ومنعت الشام مُدْيُها ودينارها ومنعت مصرُ إرْدَبَّها ودينارها وعدنا من حيث بدأنا كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ في الحديث الذي يرويه مسلم في كتاب الفتن.

وامتنعت سائر الدول عن شرائع الإسلام وعاد الإسلام غريبا كما بدأ، نستشعر هذه الآيات ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ . . ونذَكر بها المسلمين دوما. .

أيها المسلمون تدبّروا حال أنصار الدين قبل الفتح كيف كانوا، وكونوا كما كانوا. .

لا يشغلنكم عن نصرة دين الله وشريعته شيء من حطام الدنيا، بل ولا حتىٰ شيء من مسائل الدين المرجوحة..

فليكن همكم وشغلكم الشاغل ودأبكم العمل من أجل تحقيق الفتح، والتمكين لراية التوحيد وشرعها، وهذا يستلزم همة عالية وعملا دؤوبا وعلمًا في الشرع وفهما للواقع، وجندا واعين يحملون هم هذا الدين بكرة وعشيا، في كل وقت وزمان ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾..، وكما جاء وصفهم في الحديث لا يزالون دائبين..

(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ أمر الله لا يضرهم من خالفهم..).

يسابقون في ذلك ويسارعون، هو شغلهم وهمهم ومحياهم ومماتهم يبذلون له شبابهم وأعمارهم لا فتات جهدهم وهامش أوقاتهم..

ويحملونه معهم حيثما حلوا في كل واد وناد ويتنقلون به في كل مكان في حلهم وترحالهم ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾..

فدعوتي هي جنتي وبستاني أحملها معي في صدري وأنصرها حيثما توجهت وأنخت، أشغل الناس وأطرقهم دومًا بالتذكير بها، وأقض مضاجعهم كمنذر جيش أحذرهم من خذلان هذا الدين أو المشاركة في إقصاء شرعه وإقامة شرع أعدائه .. وأستحث همم المسلمين لنصرة دينهم ومصدر عزهم والعمل من أجل إعادة أمجاده ببذل الغالي والنفيس لأجل العمل علىٰ استئصال الطواغيت وإقامة شريعة التوحيد..

لا أهدأ ولا أتضرر بالمخالفين أو المخذلين ولا أستوعر الطريق أو أستوحشه لقلة الأنصار والمؤيدين أو أستثقله لكثرة العوائق والآلام والعقبات والابتلاءات..

أو أستطوله لكثرة الأعداء والشانئين. .

ولا أخلد إلىٰ الأرض أو أنقض هذه البيعة أو أخيس بهذا العهد حتىٰ ألقىٰ الله (فلا أخِرُّ إلا قائمًا) به. .

ويكون حالي كما تقول العرب عن اللّديغ: (السليم لا ينام ولا يُنيم) ويقولون: (لا ينام من أثأر). .

فلا أهنأ بعيش ولا تقرَّ لي عين حتىٰ أرىٰ راية التوحيد مرفوعة عزيزة خفاقة. .

هذا ومن يتدبر حال الأمة وإمكانات خواص المجاهدين فيها، وقلة أنصارهم، ثم يتأمل طبيعة الحرب العالمية المستعرة ضدهم، وتكالب الأعداء في الداخل والخارج وتوحّدهم عليهم وعلىٰ دينهم؛ يعلم أن النصرة الحقيقية التي يحتاجها الدين اليوم من أجل الفتح ليست من أي نوع، وأن الرجال الذين يصلحون لذلك ويستوعبونه ويأخذونه بحقه ليسوا أي رجال، وأن الأعمال القتالية والإختيارات الجهادية والوسائل والأدوات التي تلزم للتمكين ليست عشوائية أو حماسية لا يضبطها ضابط ولا يربطها رابط. .

بل ذلك الأمر الجلل والمشروع العظيم لا يصلح بأي صِنعة بل يحتاج كما قيل إلىٰ (صِنعة من طَبّ لمن حَبَّ).

فيحتاج إلىٰ عمل وجهاد وجهد من نوع خاص، جهاد ناضج وواع وقيادة راشدة بصيرة، تأخذ الجهاد كمشروع متكامل لا كردود أفعال وتشنجات حماسية آنية، بل تتعامل معه (كتجارة) التاجر الحاذق البصير الذي يدرس مشروعه دراسة واعية جادة من كل جوانبه ويدرس السوق أيضا دراسة واعية ويتعرف علىٰ واقعها . . ولا غرابة في هذا بعد أن سمىٰ الله الجهاد تجارة. .

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

والتجارة كياسة وشطارة وتحتاج للفطنة والخبرة والإدارة، وهي ليست كأي بيع عشوائي ولا كتلك البسطات المتنقلة أو كعمل الباعة المتجولين، يجرب أحدهم تارة ذاك النوع فيخسر ثم يجرب هذا الشيء فيربح الفلس والفلسين..

بل صارت التجارة اليوم تدرس بالمعاهد والكليات ويتخصص أهلها ويتبحروا في فنونها قبل أن يخوضوا غمارها .. ولذلك ترىٰ ربح أمثالهم في التجارة خصوصًا إن كانوا حذاقًا أكياسًا قد نجذتهم التجارب والخبرات ودرسوا واقع السوق دراسة دقيقة، وعرفوا أسرارها ومداخلها ومخارجها ومواسمها وأنواع الطلب والعرض فيها .. ترىٰ ربح هؤلاء مضاعفًا وصفقاتهم عظيمة..

والتاجر إن لم يكن حاذقًا عارفًا بضروب التجارة متبصرًا بواقعها فهو غالبا مغبون في تجارته كالمقامر في رأس ماله..

وإذا كان الأمر كذلك فتجار الآخرة المتاجرون بدمائهم وأرواحهم وأموالهم مع الله أحق بالفهم والكياسة والبصر والفطنة والعلم بالشرع والفهم للواقع من تجار الدنيا، ولا يجوز أن يكون تاجر الدنيا أحرص علىٰ رأس ماله ورأس مال شركائه من تاجر الآخرة..

ولا يجوز لتاجر الآخرة أن يخبط خبط عشواء في عمله فيغامر ويقامر في رأس ماله ورأس مال إخوانه وشركاء دربه..

إن مشروع الجهاد الجاد الذي يسعىٰ لهدف عظيم وغاية كبيرة كالتمكين؛ يحتاج إلىٰ جهد عظيم وعمل كبير يتناسب مع عظم هذا الهدف؛

عمل متكامل لا يفصم الجهاد عن جهد العلماء العاملين ولا يفصله عن جهود الدعاة المخلصين . . ولا يحجمه في الأعمال الثأرية وردود الأفعال المبعثرة. .

ولا يزري به أو يشوهه في أعمال السطو المسلح أو السرقة لعصاة المسلمين أو المشبوهين من الرجال والنساء ولا يهمشه أو يقزمه في استهداف المستضعفين من الناس وغير المقاتلين من الكفار سواء كانوا نساء أو أطفالا . .

ولا يشتته ويضيّع ثمراته بتوسيع دائرة الصراع وتشتيتها بأن يذعر العالم كله علىٰ المجاهدين ويوحد دوله عليهم، دون برنامج واضح ولا أولويات محددة أو مراحل مدروسة، فلا يرفع رأسًا بسيرة النبي ﷺ ومرحلية الجهاد فيها وبداءتها بالأقرب والأولىٰ. .

ولا يصرف شباب الأمة وطاقاتها كلها إلىٰ أعمال النكاية المبعثرة التي لا تضع في حسابها برنامج التمكين كهدف أو استراتيجية. .

فالناظر في القتال الذي ينشغل به شبابنا اليوم في كافة بقاع الأرض يراه متبعثرًا متشتتا في أعمال ذات طابع نكائي مجرد تظهر تارة هنا وتارة هناك. .

وقَل أن يرَىٰ من يعمل بجد واجتهاد وروية ودراسة عملًا متكاملًا يضع في برنامجه وأولوياته التمكين وإقامة دولة الإسلام كهدف استراتيجي كما يسمونه. .

وفي كل مرة لم نكد نفرح برائحة شيء من ذلك حتىٰ يسلم المجاهدون -بقصر نظر قياداتهم- ثمرة جهادهم ودمائهم إلىٰ صناديق الإقتراع ليقفز لنا من داخلها كل نطيحة ومتردية يثبتون أركان كراسي حكمهم فوق أشلاء الأبطال وجماجم الشهداء. .

ولما اكتسحت الطالبان عموم أفغانستان ولم يبق إلا الشمال وقف أكثر الناس ومنهم طائفة كبيرة من المتحمسين لأفغانستان والطالبان وقفوا يتفرجون، وانشغلوا في إيجاد المعاذير لترك القتال مع الطالبان، بل ذهب بعضهم يعد ويتدرب للأعمال النكائية المجردة هنا وهناك وترك أو قصّر في تثبيت وترسيخ التمكين والدولة التي تجشم الصعاب وشد الرحال إليها وكان يستظل بظلها، وأمضىٰ عمره من قبل يحلم بها..

إن النيران المشتعلة اليوم حولنا في فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وغيرها، ومناظر وأخبار القتل والتعذيب والتشريد والإهانة والإذلال علىٰ أيدي اليهود والأمريكان وأذنابهم وفي سجونهم في أبي غريب وجوانتنامو وباجرام وسائر العواصم العربية والأجنبية..

إضافة إلىٰ منظر برجي التجارة والنيران تلتهمهما وهما ينهاران .. كل ذلك دون أدنىٰ شك يؤثر بحرارته علىٰ حماس الشباب والمجاهدين ويدفع بعضهم إلىٰ المبادرة إلىٰ أي عمل يشفون به صدورهم ويثأرون به لأمتهم ودينهم وإخوانهم المسلمين..

وأنا هنا لا أريد أن أطفئ جذوة تلك الحرارة من صدور الشباب المجاهد، ولا أسعىٰ كما يسعىٰ كثير من القعدة والمخذلين إلىٰ تبريد الشباب وتجميد عواطفهم وإماتة نخوتهم وغيرتهم عياذًا بالله؛ ببث ثقافة الدواجن التي هي ثمرة عفنة من ثمرات العقيدة الإرجائية المعاصرة المنبطحة تحت أحذية الطواغيت؛ وإنما الذي أطلبه وأتبناه وأسعىٰ إليه وأنبه عليه أن يكون التأثر بهذه الحرارة إيجابيًا لا أن يكون تضررًا سلبيًا يعطل أو يقطع برامج الإعداد الجاد أو يحرف عنها، أو يعكّر المزاج الإسلامي الأصيل واختياراته الشرعية الرزينة والصحيحة، فيدفع إلىٰ اختيارات حماسية لا يراعىٰ فيها الأنفع والأكمل في الثأر للإسلام وأهله..

إذ الثأر الحقيقي والناجع إنما هو ذاك الذي يقر أعين المسلمين حقًا، ويغيظ المشركين والمرتدين صدقًا بتنكيس راياتهم وقطع طرفهم واستئصال دولتهم ورفع راية التوحيد والدين بالتمكين لها وتحكيم شرعها، وهذا لا يتأتىٰ في زماننا إلا بأن يتعامل المسلمون والمجاهدون مع الجهاد كمشروع متكامل ناضج .. له برنامجه الواضح والجاد وقيادته الواعية وخطابه الناضج والأصيل، وبوصلته الواضحة، وهدفه المحدّد غير المتقلب، ووسائله المشروعة النظيفة .. وجنده المخلصون المنضبطون بضوابط الشرع المتبصّرون بواقعهم المستبينون لسبيل المجرمين..

لقد كان رسول الله ﷺ قادرًا علىٰ أن يثأر لنفسه من أهل الطائف لما ردوه وآذوه وسلطوا عليه سفهاءهم فأدموا قدميه بالحجارة كان ﷺ قادرًا علىٰ أن ينتقم منهم ومن كفار قريش الذين آذوه وآذوا أصحابه أيضا يوم جاءه ملك الجبال وعرض عليه ذلك فأبىٰ أن يثأر لنفسه وصبر وصابر وجد واجتهد وجاهد هو وأصحابه حتىٰ مكن الله لهم فكان الثأر الحقيقي الكامل للدين بأشرق صوره حين ارتفعت راية التوحيد ونكست راية التنديد وصار كفار قريش والطائف وغيرهم في قبضته وكان الفتح فقتل منهم من قتل وعفا عمن عفا وحطم طواغيتهم ودخلوا في دين الله أفواجا..

إننا نتألم اليوم لما نشاهده من تقزيم وتحجيم بل ومسخ للجهاد بسبب التضرر بآثار تلك النيران سلبًا..

فقد حجّم الجهاد وقزم من كونه مشروعًا أعظم غاياته إخراج العباد من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده وتمكينهم في الأرض لتحقيق التوحيد والعبودية لله وحده..

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ﴾.

قزم الجهاد من هذه الصورة العظيمة..

فسُلخ أولًا عن لسانه الناطق وخطابه الناضج الأصيل (الدعوة) وفُصم عنها .. ولم يعد القائمون عليه يحسبون حسابها أو يراعون مصالحها ودرء المفاسد عنها فيما يختارونه من أعمال ويرجّحونه من أولويات..

ثم حجم في القتال النكائي أو أعمال إنكار المنكر المبعثرة التي لا تحقق أهدافها ولا تدوم ثمرتها ما مورست من غير تمكين.

ثم اختزل بحصره في الأعمال الثأرية وردود الأفعال الانتقامية غير الموزونة ولا المدروسة..

ثم حُجّم وحُجّم إلىٰ أن بلغ به البعض أن جعلوه ردود أفعال تشنجية يستفزهم ويجرهم إليها أعداؤهم، فيوجهون بذلك قتالهم ويستثمرونه فيما شاءوا..

وصرنا نرىٰ ونسمع كل شابين أو ثلاثة، يجتمعون دون أدنىٰ خبرة عسكرية أو تجربة تنظيمية ولا علم بالواقع ولا نظر في الشرع .. ولا مؤهلات تدفعهم لذلك إلا الحماس الأجوف، تراهم يجتمعون بمجرد أن تقع أيديهم علىٰ سلاح، فيؤمّرون أحدهم، غالبًا ما تكون مؤهلاته كونه أهوجًا أو كونه كان مبرّزًا عليهم في جاهليتهم قبل تدينهم وربما كان فيهم من يفضله بالفهم أو العلم، ينقادون له ويصدرونه لا مؤهل له إلا ذلك الحماس الأجوف، ثم يطلقون علىٰ تجمعهم المهلهل هذا اسمًا ولا بد، مما يعطيه كيانًا وحجمًا أكبر من حجمه، وهو شيء يستفيد منه ويفرح به أعداء الله .. ثم ينقضون في أقرب فرصة علىٰ أول دار للسينما أو خمارة

أو كنيسة أو حسينية أو نحوها . . فأي برنامج هذا؟ وأي منهج وأي ثمرة يرجونها من ذلك للإسلام في هذا الزمان؟ وأي مستوىٰ ساذج وعقل سطحي يدفع إلىٰ هدر أعمار هؤلاء الشباب ويلقيهم بعد ذلك في السجون ليكملوا بقية حياتهم فيها؟

وهل هذا التفكير والاختيار يتلاءم مع مستوىٰ الحرب العالمية اليوم علىٰ الإسلام؟؟

هذا غير من ينقض منهم علىٰ المتبرجات بدعوىٰ إنكار تبرجهن بحرقهن بالمواد الحارقة أو ضربهن . . أو يسلب النساء المشبوهات بحجة دعم أعمالهم الجهادية المزعومة!! ونحو ذلك من الغرائب والعجائب . .

ثم في أول اعتقال لأحدهم يجرجر معه من عرف ومن لم يعرف ممن ضافهم أو ضافوه، أو خدموه خدمة أو أسدوا إليه نصحًا، لتخرج علينا الأجهزة الأمنية بعد ذلك لتعلن إلقائها القبض علىٰ تنظيم إرهابي خطير، وتفاخر بإحباطها لمخططاته الرهيبة، وبرامجه المريعة، ليحصدوا بذلك الرتب والنياشين والامتيازات علىٰ ظهر هؤلاء الشباب الأغرار، الذين إن فتشتهم وجدت الخواء العقائدي والعلمي والديني والخلقي ينخر فيهم نخرًا، ولقد رأيت بعض هذه الأصناف في السجون لا يصبرون عن مشاهدة التلفزيون ولا يطيقون ترك التدخين، هؤلاء كان أعداء الله يضخمونهم ويفخمون أعمالهم وتنظيماتهم ومخططاتهم ليقطفوا بذلك مآرب لهم من أسيادهم الأمريكان، أو ليبرّروا كل بطش يمارسونه علىٰ الإسلام والمسلمين . . فبعضهم يربطونه بالقاعدة والبعض بالزرقاوي وهكذا . . ولقد رأيت بعض هؤلاء يتخلف عن صلاة الجماعة معنا في ساحة السجن في وقت من الأوقات خوفًا من الجنادب التي كانت تتواجد فيه . . أما مواقفهم بين يدي أعداء الله في التحقيقات ومواقفهم في المحاكم فلا تسل عنها . .

قسمًا يا إخواني إن هذا ليس من محض خيالي، بل هو واقع مرٌّ عايشنا أهله، ثم يسمّونه جهادًا!! يزجون بسببه بإخوانهم في السجون ويسلّطون عليهم أعداء الله، ويجعلون من أنفسهم أضحوكة وألعوبة بأيدي أعداء الله يشفون صدورهم بهم ويستعملون قضاياهم ويوظفونها في صحافتهم وإعلامهم لتشويه كل داعية ومجاهد..

أي مسخ للجهاد هذا؟؟ بل أي إزراء له وتحقير؟

وأي تشويه لجنده وأبطاله الحقيقيين..؟

والله ما هزلت فيستامها المفلسون..

حتىٰ سمعنا عمن ورّط الفتيات القاصرات ودفعهن أو استثمر حماسهن في أشياء من ذلك، أوقعتهن بعد ذلك فريسة بأيدي من لا يرقبون في مؤمن ولا مؤمنة إلاًّ ولا ذمة، ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا..

وإذا صعدنا في السلم درجة وجدنا بعض من عاش في معسكرات المجاهدين أو في جبهات القتال، وتعلّم تصنيع المتفجرات منها أو من غيرها، يمارس في شوارع المسلمين نوعًا من الجهاد عجيبًا غريبا؛ يتمثل بتفجيرات عمياء يبثها هنا وهناك، لا تعصم مسلمًا ولا يتحاشىٰ فيها من امرأة أو طفل أو نحوهم، ولا يراعي مصلحة ولا يتقي مفسدة..

دوافعها أحيانا إنكار بعض المفاسد والمنكرات التي لا تستأصل أصلا إلا بالتمكين، ولن يستأصلها تفجير خمارة أو دار للسينما أو ملهىٰ، ناهيك عمن يقتل في تفجير هذه الأماكن من العصاة ممن لا يعتبر القتل عقوبة شرعية لهم..

وأحيانا يكون بواعث ذلك الانتقام والثأر من بعض أعداء الله، وكأن ذلك لا يتم إلا بالسيارات المفخخة والعبوات الناسفة التي لا تفرّق -

خصوصًا حين توضع في شوارع المسلمين- بين المشركين والأبرار..

وغالبًا ما يكون ذلك كله محاكاة وتقليدًا لبعض عمليات المجاهدين المحكمة تقليدًا أعمىٰ من غير بصر ولا نظر، ودون أدنىٰ خبرة أو دراية، أو تحرز من دماء المعصومين والأبرياء..

ولو تأمل هؤلاء في عمليات المجاهدين التي يتحمسون لها ويحاولون محاكاتها، لوجدوا أن أكبر عمليات العصر قد قام بها أبطالها دون أن يطلقوا طلقة واحدة، بل نفذوها بكياستهم وفطنتهم وحسن تدبيرهم ورجاحة عقلهم بمشارط من ورق..

فالمسألة ليست دومًا بالمتفجرات والعضلات؛ بل هي بحسن التدبير والإعداد والتفكير .. وقد قيل (نفاذ الرأي في الحرب أنفذ من الطعن والضرب).

وأذكر أن مدربًا من المجاهدين وفي خاتمة دورة (للنسف والتخريب) وهو علم متفرع عن المتفجرات يبحث في الحسابات اللازمة لهدم وتدمير المباني والجسور ونحوها بأحجامها وخرساناتها ونوعية العبوات التي تحتاجها وكمية المتفجرات؛ سأل المتدربين عن مبنىٰ ضخم، في قواعده من الحديد والخرسانة ونحوها كذا وكذا، ويتواجد العدو في الطابق كذا منه، فكانت أجوبة أكثرهم حسابيا صحيحة بتحديد نوعية العبوات وأماكن زرعها وكمياتها التي بلغت أطنانا لإسقاط المبنىٰ وتدميره بالعدو؛ ومع ذلك كان المدرب يخطّئ كلًا منهم ويضرب علىٰ جوابه، وهم يتعجّبون، ولما سألوه عن الجواب الصحيح، قال: الجواب الصحيح أن يصعد المجاهد إلىٰ الطابق الذي يتواجد فيه العدو ويجهز عليه بخنجر أو مسدس، لأنه لا يمكنه في بلاده وفي حرب المستضعفين من توفير هذه الكمية الهائلة من المتفجرات هذا أولًا، أما ثانيًا فلأنه يعمل في بلد وإن كانت دار كفر

اصطلاحًا لأن الغلبة فيها لحكم الكفار؛ إلا أنّ جمهور أهلها ينتسبون للإسلام وتلك الكمية من المتفجرات تتجاوز حدود العدو المطلوب . . يريد هذا المدرب الفطن بهذه المسألة لفت أنظار المجاهد إلىٰ واقعه وإلىٰ ضرورة إعمال الفكر والنظر في حسابات أخرىٰ أهم وأعمق من حساب كمية المتفجرات ونوعيتها . . فالمسألة ليست دومًا محجرة منحصرة بالمتفجرات بحيث لا يصلح الجهاد إلا بها . . ولا شك أن التعامل مع الجهاد بتلك السطحية ودون اعتبار لهذه الحسابات نوع من تقزيم الجهاد وتحجيمه . .

ومن تقزيم الجهاد أيضًا أن يُصدّر للقيادة فيه أو يُسلّم قيادة العمل التنظيمي من لا يصلحون لذلك بحال، ولا يمتلكون أدنىٰ درجات الخبرة التنظيمية أو حتىٰ العمل الشرعي الذي لا يكفي وحده لمثل هذا العمل، ولا يعرفون ما يدور حواليهم في الواقع، وكيف يعرفون وقد رأيت بعض من أسندت إليهم إمارة تنظيمات مسلحة يُحرّم مشاهدة نشرات الأخبار ولا يتابعونها لا في صحافة ولا في مذياع، استؤمنوا علىٰ أرواح الشباب المجاهد دون أن تكون لهم أدنىٰ معرفة بمبادئ العمل التنظيمي، واستؤمنوا علىٰ اموال المجاهدين التي بذلها المسلمون حبًا في الجهاد ونصرة للمجاهدين ودفعًا عن حياض الإسلام والمسلمين، مميزاتهم التي أهلتهم لتولي تلك المناصب وتصريف هذه الأموال وتوجيه أولئك الشباب بتخليطهم؛ شيئان: الأول: أخذهم بالمذهب الأشدّ لا الأسدّ، ولذلك فلا يوجد عندهم في الدنيا كلها جهاد إلا جهادهم، ولا مجاهدون يتبعون للطائفة القائمة بأمر الله إلا هم . . أما الشيء الثاني: فهو عمىٰ عيونهم عن عيوب من نصّبهم في تلكم المناصب، ودندنتهم له: بنعم نعم . . وعدم مخالفتهم أو معارضتهم لشيء من اختياراته أو تخليطاته، جعله يغضّ الطرف عن تطرّفهم وشذوذاتهم، ورأىٰ فيهم بقية السلف، فغضوا الطرف عن

تخليطه وضعف خبرته . . فياحسرة علىٰ شباب المسلمين وطاقاتهم يسلمون لأمثال هذه الزعامات تشتت جهدهم وجهودهم، ثم تسلمهم وتسلم أعمارهم إلىٰ المعتقلات والسجون . . وياحسرة علىٰ أموال المجاهدين كيف توجه بتفريطهم ثم تصير في خاتمة المطاف غنيمة باردة في أيدي أعداء الله. .

ولذلك فإن من صور تقزيم وسائل الجهاد وآلياته أيضًا تعاطي البعض مع العمل التنظيمي المسلّح بدروشة وسطحية قاتلة دون خبرة سابقة ولا حس أمني أو غيره مما يحتاج إليه لمثل هذا النوع من الأعمال . . واعرف من كان يسابق مسابقة إلىٰ خطف وتنظيم أي شاب يراه معنا أو في مجالسنا لمجرد أن رأوا فيه شيئًا من الحماس وحب هذه الدعوة، ويعرضون عليه منذ اللحظة الأولىٰ المشاركة في تنظيمهم، وبالطبع يطلبون منهم بغباء وقد استلوه من مجالسنا، ويعلمون أنه أقرب إلينا؛ أن لا يطلعنا علىٰ عَرضهم، ولذلك فإن من المضحك المبكي أن يرجع ليسألنا عن أولئك المنظمين وهل هم ثقات وهل نزكيهم أم لا؟ وذلك بعد أن يكون قد عرف بما عندهم من عمل تنظيمي وخطط وأحلام بتفاصيلها المملة، فما أسهل أن ينفذ أعداء الله إلىٰ مثل هذه التجمعات، وما أسهل أن يخترقوها بسبب هذه السطحية والسذاجة، وإن لم يفعلوا هم ذلك، فما أسرع ان يسربه بعض من عرِض عليهم ذلك ولم يوافقوا عليه، هذه الدروشة التنظيمية يمارسها بعض من ينتسب إلىٰ التيار الجهادي -واثكلاه- بينما أعرف بعض من ينتسب إلىٰ التنظيمات الأرضية وأيضا الإسلامية المشوشة شرعيا والتي يزدريها وينتقصها أولئك الجهاديون!! رأيتهم يتقنون العمل التنظيمي ويضبطونه إلىٰ حد بعيد؛ فترىٰ الرجل ينتظم معهم سنين يتدرج في سلمهم التنظيمي دون أن يشعر، وتوكل إليه المهام والمسؤوليات حتىٰ يبلغ مرحلة يتعصب فيها لهم ولمشايخهم أو رؤوسهم دون أن يسمع منهم يوما كلمة تنظيم أو يسمع كلمة

أمير أو بيعة أو نحوها، ولذلك ترىٰ عشرات هؤلاء محدودة، بينما يكون الخطأ الأول للآخرين خطأ قاصمًا قاتلا ومدمرًا..

وآخرون ما زالوا متخلفين عن ركب العصر ولا زالوا بدائيين في التعامل مع الأدوات التنظيمية فبعضهم لا يحسن استعمال الحواسيب، وإن استعملها أو راسل من خلالها لم يأخذ بأي احتياط أمني أو حذر؛ ثقة بها أو جهلًا برقابة أعداء الله لها، فإذا داهموا بيته وجدوا تفاصيل تنظيمه وأسماء إخوانه ومخططاتهم جاهزة فيه..

وبعضهم لا زال يستعمل في هذه الأشياء الخطيرة الكتابة الصريحة المفصلة علىٰ الورق، واعرف من داهموا بيته عند اعتقاله فوجدوا علىٰ طاولة مكتبه التفاصيل الدقيقة والمملة لتنظيمه، بحيث لم يتمكن من إنكار شيء بعد اعتقاله، ومن شدة تهويل تلك التفاصيل والاعترافات، لم يجد أعداء الله أنسب منه كي يلصقوا به أعمالًا كانت قد قُيدت ضد مجهول بلغ بعضها إلىٰ القتل والاغتيال لا تمت إليه بصلة..

طبعًا تلك المؤهلات العجيبة والغريبة التي صدّرت هؤلاء وأمثالهم للعمل التنظيمي هي التي أهدرت أموال المسلمين في مغامرات فاشلة، وضيعت أعمار شبابهم، وأزهقت أرواح مجاهديهم فيما لا طائل من ورائه للإسلام والمسلمين، فأقرت أعين المشركين وأحرّت أعين المسلمين..

وتلك التخبطات التي يفاخر بها أهلها، لا يستحيي بعضهم معها من الطعن بالدعاة والعاملين لدين الله ممن لا يوافقونهم علىٰ تخليطهم، ولا يخجلون من رميهم بالقعود والتخلف عن الجهاد وتعييرهم بلزوم نهج الدعوة والتربية والإعداد الجاد..

ولذلك فإن من صور تقزيم الجهاد وتحجيمه أيضًا كما أشرنا سابقًا؛ اختزاله في القتال النكائي وفصمه عن الدعوة ومخاصمته لأهلها وعزل جهود العلماء الربانيين والدعاة العاملين وإخراجها من الجهاد، الأمر الذي يدعو بعد ذلك إلىٰ الاستخفاف بعلمهم والإعراض عن كتاباتهم وإهمال مناصحاتهم بدعوىٰ أن أهل الثغور أفهم وأعلم، فيحجّرون بذلك ثغور الإسلام ويقزّمون أهلها فيمن لا يحسن إلا الأعمال النكائية العشوائية بمعزل عن خطاب الجهاد الناطق وروحه النابض، ليتخبطوا بعد ذلك في الاختيارات كيف شاءوا وليهدروا أموال المسلمين وأرواح المجاهدين وأعمارهم في أعمال يجمع العقلاء علىٰ عدم جدواها أو فائدتها للإسلام والمسلمين . . ويُهمش بذلك علم وخبرة العلماء الربانيين الذين يقفون ويثبتون في وجه الطواغيت اليوم ولا يخضعون لإغراءاتهم أو يخنعون لتهديداتهم، ويتصدون لدحر شبهات أذنابهم من علماء السوء؛ فإن لم يكن هؤلاء من أهل الثغور فليس في الدنيا كلها إذًا أهل ثغور . .

ألم يكن الإمام أحمد في ثباته في محنة خلق القرآن في زمانه إمام أهل الثغور بلا منازع، يوم وقف علىٰ أعظم ثغور الإسلام وأبىٰ أن يؤتىٰ الإسلام من جهته، وما رمىٰ بسهم مريّش قط في وجه الروم ولا غيرهم، وإنما كانت أسهم القرآن والإسلام كلها بيده يرمي بها في نحر أهل الزيغ والضلال، يدرأ بها شبهاتهم ويدفع عن عقيدة أهل السنة والجماعة، فثبّت الله به أركان الملة، وحفظ به جمهور المسلمين من بدعة التجهم؛ ورفع بذلك قدره وذكره، فصار إمام أهل السنة والجماعة بلا منازع . .

هؤلاء العلماء والدعاة الربانيون القوامون لله القائمون بأمره؛ هم سادة أهل الثغور وقادتهم الذين جمعوا بين العلم والعمل وبين الصبر واليقين . .

- العلم الذي يؤهلهم للصدارة والتوجيه، وأن يتخذهم الناس رؤوسًا فيفتوا بعلم وفهم فيهتدوا ويهدوا . . ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فهم المقصود بأولي الأمر في أحد التأويلين لقوله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ . .

- والصبر واليقين الذي يؤهلهم للإمامة في الدين ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ . .

لم يخلدوا إلىٰ الأرض؛ بل خرجوا علىٰ طواغيت الأرض وكفروا بهم وبشركهم، فكانوا أحق الناس بمسمىٰ أهل الثغور، وأولىٰ الناس بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ . .

وما رضوا بأن يكونوا مع الخوالف فكانوا بذلك ممن يعلمون ويفقهون كما دل عليه دليل الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، ومفهوم قوله سبحانه: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أليس من تقزيم الجهاد وتحجيمه بل ومسخه عزله عن علمائه الربانيين ودعاته العاملين، وفصله عن علمهم ودعوتهم؟

وكما أن من تحجيم الشهادة وتقزيمها أن يندفع المجاهد إلىٰ تحصيلها دون نظر إلىٰ ما يحققه للدين بشهادته، ودون وضعها في أعظم الأعمال وأنفع الاختيارات لدين الله . .

فكذلك من تحجيم الشهادة حجرها علىٰ شهيد المعارك؛ وفصمها عمن يقتل من أولئك العلماء والدعاة الربانيين في سبيل تحقيق التوحيد والدعوة إليه، مع أنهم من ساداتها، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق حين قال: «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلىٰ إمام جائر فأمره فنهاه فقتله**» . .

أوليس من تقزيم الرباط في سبيل الله أيضًا تحجيره في بعض البلاد والميادين والساحات والثغور دون بعض، أو حصره في العمليات القتالية وعزله عن الرباط علىٰ حراسة ثغور العقيدة والدين في وجه الطواغيت وأذنابهم من علماء السوء، والسهر والثبات علىٰ ذلك رغم تهديدهم وأذاهم وتعذيبهم وسجونهم وملاحقاتهم؟

وإذا كان إسباغ الوضوء علىٰ المكاره وكثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة رباط، بل ذلكم الرباط كما أخبر ﷺ في الحديث الذي يرويه مسلم؛ فكيف بالرباط لحراسة الدين، والثبات علىٰ الحق في وجه الطواغيت والقيام علىٰ باطلهم وكفرهم؟

وكذلك أليس من تحجيم الجهاد حصره في العمليات القتالية وعزله عما لا يصلح ولا ينتهض إلا به من متممات ومكملات؟ أليس من تقزيم الجهاد تحقير تلك المكملات والاستخفاف بجهود أهلها؟ مع أن الجهاد لا يقوم إلا بها .. بل هي من الجهاد دون أدنىٰ شك .. ألم يقل الله تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؟ فقدم الجهاد بالمال علىٰ الجهاد بالنفس .. ألم يقل النبي ﷺ: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) رواه أبو داود، فهذا مثل الآية وزيادة الجهاد باللسان..

وقال ﷺ: (من جهّز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا) متفق عليه.

وفي الحديث: (إن الله يدخل بالسهم ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومُنْبِلَهُ..) رواه أبو داود، وروىٰ مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ بعث إلىٰ بني لِحيان، فقال: (لينبعث من كل رجلين أحدُهما، والأجر بينهما).

فأين من يفقه هذا ويعيه ويعلم أن الجهاد كمشروع جاد لا يكمل ولا ينجح ولا يحقق مرادَ الله كما يحب ربنا إلا باستيعاب ذلك كله، وعدم تهميش أو تحقير شيء منه، وعدم الاستخفاف بجهود أهله، لأن ذلك كله شرع من الله تعالىٰ وأوامر يجب علىٰ المسلمين إعمالها والاستجابة لها كلها، وعدم تعطيل شيء منها ما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلا..

ومن آثار هذا التحجيم أنك تتعب وتشقىٰ في توفير الدعم المادي لأي مشروع دعوي أو تربوي علمي، كإنشاء مدرسة إسلامية حقيقية لأبناء المسلمين، أو نحو ذلك من المشاريع التي لا غنىٰ للدعاة والمجاهدين وأبنائهم عنها .. بخلاف ما إذا كان العمل قتاليا أيًّا كانت صورته وكيفيته .. وإذا كان الأمر كذلك .. فمن يخلف المجاهد في أهله؟ ومن يربي أولاده ويعلمهم ويحفظهم في غيبته إن قُزّم الجهاد وحجم الرباط والاستشهاد في القتال وحده؟!

ومن يخلف المقاتلين علىٰ ثغور الدعوة، ويثبت في وجه أعداء الله وأذنابهم من علماء السوء؛ يذب عن التوحيد شبهاتهم، ويدفع عن أعراض المجاهدين رماحهم، ويتصدىٰ بنحره لسهام الطعن والتشويه والتخذيل؛ من يفعل ذلك ويقوم به حق القيام إن قزم الجهاد وفصم عنه جهد العلماء والدعاة بفصل جهاد اليد عن جهاد اللسان..؟

وكيف يتجهّز المجاهدون ويقاتل المقاتلون؟ وكيف ينبعثون ويتحركون في سبيل الله إن سلخ الجهاد بالمال عن الجهاد بالنفس ولم يجدوا من يجهزهم أو يخلفهم في أهليهم..؟

يا قومنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ .. والبنيان المرصوص كل لبنة منه تكمّل الأخرىٰ وتشدها وتتمم البناء وتقويه، وإن نقصت لبنة أو أكثر عيب البنيان ونقص وتضعضع..

اللهم ألهِمْ إخواني رشدهم . .

ومن صور تقزيم الجهاد تقزيم وسائله وآلياته وقلبها في كثير من الأحيان إلىٰ غايات وأهداف وذلك بحصره في الأعمال التي يسميها البعض انتحارية ونسميها بضوابطها جهادية؛ دون مراعاة ما وضعه العلماء من ضوابط وشروط لتجويزها، حتىٰ صرنا نسمع عمن يفجر نفسه أمام فندق أو ملهىٰ أو نحوه ولا يسفر عمله إلا عن بعض الأضرار المادية، وآخر يفجر نفسه ليقتل شرطيا أو جنديا أو نحوه يمكنه قتله دون اللجوء إلىٰ هذه الوسيلة . . بل منهم من يفجر نفسه في كنيسة أو مسجد للشيعة وهكذا!! فأي ضرورة تبيح مثل هذه الأعمال، وأي مصلحة للإسلام والمسلمين فيها . ؟ وأيّ شرع بل أي عقل يجيزها؟؟ .

ومن تقزيم الجهاد بل وجعله أضحوكة للأعداء بث التهديدات الجوفاء المتكررة هنا وهناك والتي لا يعقبها أي تنفيذ؛ بحيث تفقِد المجاهدين مصداقيتهم وتنزع علىٰ المدىٰ الطويل من قلوب أعدائهم مهابتهم، ويبدون كما يقال كالبراميل الفارغة والتي هي دائمًا أشد ضجيجًا من الملئىٰ، وتذعر العالم علىٰ المسلمين وتزيده توحّدًا عليهم دون أدنىٰ فائدة أو عائدة علىٰ الإسلام والمسلمين . .

ومن تقزيمه إشغاله بأهداف لا طائل من ورائها ولا فائدة تعود علىٰ الجهاد أو علىٰ الإسلام وأهله، بل علىٰ العكس يجني منها أعداء الله فوائد شتىٰ . . سواء من تشويه صورة المجاهدين أو تحريض الناس عليهم أو التبرير بها لقمعهم وتوظيفها لمآرب الطواغيت . .

وكثيرا ما نسمع اليوم عن مهاجمة مساجد الشيعة أو تفجير حافلات نقل الناس أو تفجير أماكن اللهو أو الفساد فوق رؤوس العصاة أو تفجير الكنائس أو تلويث مقابر اليهود أو النصارىٰ أو نحو ذلك مما يسميه أهله

جهادًا ولا فائدة من ورائه إلا تشويه صورة الجهاد واستثمار الأعداء لتلكم الاختيارات في تحقيق مآربهم وحرب الإسلام والتضييق علىٰ عموم المسلمين. .

فمن تقزيم الجهاد عزله عن اعتبار المصالح وعدم النظر في المفاسد والعواقب، واختيار الأعمال والأهداف دون الرجوع إلىٰ هذه الموازين. .

ومن ذلك حجبه عن خطابه الإعلامي الناضج واختياراته السديدة وعدم مراعاة خطاب الناس علىٰ قدر عقولهم والتحدث إليهم بما يفهمون. .

ومن تحجيم الجهاد ما يمارسه كثير من الشباب الذين لا يرون الجهاد إلا بعيدًا عن بلدانهم، من تفريغ ساحات العمل والدعوة والجهاد في بلادهم وما يليها، والنطنطة هنا وهناك . . فتارة يستنفرون الشباب إلىٰ الشيشان وتارة إلىٰ أفغانستان وتارة إلىٰ أوزبكستان أو كردستان وأخرىٰ إلىٰ الجزائر وأحيانا إلىٰ العراق أو أي مكان، المهم أن يتركوا بلادهم إما تضررًا بضغط الأجهزة الأمنية أو تأثرًا بتركيز الإعلام علىٰ بعض الساحات والميادين، أو تعذرًا بدفع الصائل علىٰ المسلمين في بعض تلك البلاد مع أن الصائل قد صال عليها وعلىٰ غيرها، وقد فرّخ وجال وصال في بلادهم علىٰ دينهم وتوحيدهم وشرعهم . . أو كما قيل: (تطلب ضبًا وهذا ضب باد مخرج رأسه)[١]

وكم تملكني العجب عندما قرأت لبعض المجاهدين في بعض البلدان يدعون إخوانهم المجاهدين في الجزيرة إلىٰ ترك جهادهم هناك واللحاق بهم، في وقت كان حرب النظام علىٰ الإخوة في الجزيرة مستعرة . . فما الذي رجح بلدا علىٰ بلد؟ أهي استراتيجية واضحة ومصالح بينة وترجيحات

(١) يضرب لمن يلتفت لعدو بعيد وعنده مثله قريب.

سديدة أم الحماس المجرد وتركيز الإعلام عليه .. أم كما سمعت من البعض لأجل أن الأسلحة والمتفجرات والقذائف من مخلفات النظام البائد كثيرة..؟!! أو غير ذلك من الأسباب التي لا تنظر في المصلحة الراجحة للإسلام والأقرب لتمكينه، ولا تراعيها في اختيار الميدان أو التوقيت أو نوعية العمل واختياراته..

وعندما كانت طائرات البي ٥٢ وصواريخ كروز وتوماهوك وغيرها تنهال على القرى والمدن وخنادق المقاتلين في أفغانستان، وكان المتحمسون يحرّضون الشباب في بلادنا للحاق بتلكم الخنادق للمشاركة بالقتال ونصرة إخواننا في أفغانستان، كنت أكتب وأتكلم بصراحة أحتسب عند الله ما كلفتني، وأقول: ألا يمكن نصرة إخواننا في أفغانستان إلا بأن نتجشم المسافات ونقطع المفاوز والعقبات كي نقف إلى جنبهم في الخنادق تحت الحمم التي تلقيها الطائرات والقنابل التي تقذفها المقاتلات..

وكنت أقول: لماذا نضيّق نصرة إخواننا بذلك ونحن نراهم في ذلك المأزق والأفغان ينحازون من مدينة إلى مدينة ويطلبون من العرب الخروج؟ ولماذا نحجّم الخنادق بهذه الطريقة البدائية؟ ألا يمكننا نصرة إخواننا وأن نكون جنبًا إلى جنبهم وفي الخندق ذاته ونحن في مواقعنا وفي بلادنا التي نحن أعرف بشعابها؟ بل ربما كان ذلك أسهل للمجاهدين وأنكى وأوجع وأقسى على أعداء الله الذين كانوا يتجولون آمنين في شوارعنا وبين ديارنا..

وأنا هنا لا أعتب على الشباب المتحمس الذي لم تنضج نظرته إلى الجهاد وسطحيته في التعامل معه وإن كنت أكتب جل ما أكتبه له ولتوجيهه؛ بقدر ما أعتب على المشايخ والرؤوس والمرجعيات الذين انساقوا خلف الحماس، وخرجوا عن خطهم الذي اختاروه عن علم ومعرفة وروية،

وتعاملوا مع الأمر بتلك السطحية فتركوا حقول دعوتهم وإعدادهم ونقضوا غزلهم وشدوا الرحال دون تدبر ونظر، متجشمين العقبات مستعملين كل ما يقدرون عليه من وسائل التزوير والمراوغة والتهريب ليقطعوا حدود بلادهم ثم حدود إيران أو باكستان للوصول إلىٰ تلك الخنادق في أفغانستان، فمنهم من وصل ففوجئ بالأوضاع ثم عاد فخرج بناء علىٰ طلب الطالبان ومنهم من اعتقل في إيران أو الباكستان..

هذه السطحية في التعامل مع الجهاد وخنادقه، وهذه الدروس المتكررة هنا وهناك ألا تحتاج إلىٰ إعادة نظر وتدبّر ونضج وتفكّر؛ كي نعطي الجهاد حقه ومكانته وحجمه الحقيقي ونتعامل معه علىٰ أكمل الوجوه وأرقاها وأقومها؟ علّنا نقطف بعد ذلك ما نصبوا ونتطلع إليه ونتمناه من الثمرات..

سألني أحد أصحاب السجن ونحن نتحدث في أحوال المجاهدين والأمة، وحديث السجون ذو شجون .. فقال: هل تظن من خلال اطلاعك علىٰ واقع الأمة أن جيلنا سيدرك التمكين وإقامة دولة الإسلام؟ فقلت: ربما يدرك أولادنا أو أحفادنا تمكينا محدودًا أو دولة ليست بمستوىٰ الطموح والآمال..

قال: ولم..؟

قلت: هذا ليس تشاؤمًا ولا تثبيطًا وأسأل الله صادقًا أن أكون في ذلك مخطئا؛ ولكنها الواقعية فالمكتوب كما يقال يقرأ من عنوانه .. والتمكين له شروطه والدولة لها رجالها .. وأنا لا أضع في حساباتي المعجزات، ولو كان كلامي مبنيا عليها فالله علىٰ كل شيء قدير، ولو شاء الله لانتصر لدينه ولمكّن لعباده من غير جهاد ولا شهداء، ولكنها سنة الله الماضية ليبلو بعضنا ببعض ويتخذ من المؤمنين شهداء، وليتميز حزبه من حربه .. وإنما أجيبك بناء علىٰ واقع المسلمين اليوم وهل هم مؤهلون للتمكين الذي نحلم

به والدولة التي نتطلع إليها!؟ دعك من الشباب المتحمس الذي نتحدث عنه ونتألم لسطحيته التي يتعامل بها مع الجهاد؛ وتأمل فقط قياداتهم ومرجعياتهم وعلماءهم ورؤوس الأمة المخلصين منهم والمجاهدين المتصدرين لقيادتها والمتصدين لأعدائها، وانظر إلىٰ مستوىٰ تفكيرهم ودرجة نضوجهم وفهمهم للجهاد، وكيفية تعاطيهم مع مشروع إقامة الدولة، لتعرف الجواب علىٰ سؤالك.

ولتعلم أن دون هذا المشروع مفاوز لم نقطعها بعد، ودون نضوج هذه الثمار التي نتحرّق لقطافها؛ وقت لا بد أن تمر فيه حتىٰ تينع، ويبدو أننا نتعجل نضوجها بحرقتنا وحرصنا قبل أوانه..

ونحاول القفز بالأمة وقياداتها علىٰ مراحل لا بد أن يقطعوها ليستوعبوا الأمور ويتعاطوا معها بنضوج وفقًا للسنن والأسباب التي وضعها الله تعالىٰ..

ومن تعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه..

نعم قد ندرك نحن دولة أو دولا إسلامية ذات طابع وطني لا تفتح ذراعيها للمستضعفين المسلمين خارج حدودها وتنأ بنفسها عن قضاياهم ولا تمثل طموح علمائهم ولا تنشغل إلا بقضاياها وهمومها الداخلية والمحلية! وهذا ليس هو ما نتحدث عنه ونطمح إليه.

فحسبنا أن نعمل جادين مخلصين في مشروعنا الذي نطمح إليه ودرسنا واقعه وتفهمنا حاجاته في الاتجاه الصحيح، خصوصًا بعد أن منّ الله علىٰ هذه الأمة بالصحوة الدعوية بعد سبات عقود، والتي أعقبتها هذه الصحوة الجهادية المباركة؛ ببركات ساحات الجهاد الأفغاني والشيشاني والبوسني وغيرها والتي جددت أفكار الشباب وأخرجت لهم كثيرا من التجارب

والدراسات والتصحيحات والتوجيهات؛ فهذه الصحوة الجهادية كانت من أعظم بركات تلك الميادين وإن لم نقطف منها إلىٰ الساعة ما نتطلع إليه من ثمرات . . ثم أعقب ذلك أحداث أيلول التي أيقظت كثيرًا من النائمين والغافلين بضخامتها وبشراسة وصراحة الهجمة علىٰ الإسلام بعدها . .

مما أنتج لنا هذا التيار الجهادي الجارف الذي يتكون أكثره من شباب مخلص متحمس قد أثأر وتعسكر تفكيره وتوجهه، وانطلق كالسيل الجارف ليثأر لدينه وأمته . .

فالواجب علىٰ المرجعيات الدينية والعلمية ورؤوس هذا التيار أن يعملوا علىٰ ترشيده وإنضاجه وأن يقودوه ويأخذوا بيده إلىٰ تحقيق الثأر الحقيقي والكامل لهذا الدين . .

لا أن يقفوا في وجهه أو يتصدوا له أملًا في إيقافه كما يحاول البعض جاهدا؛ فهذا لا شك من تحجيم الجهاد بل من وأده وقتله . .

ولا أن ينجرفوا معه كيف شاء، يجرّهم حماسه واندفاعه وسطحية بعض أفراده إلىٰ بعثرة الجهود والأعمار والطاقات والأموال في أعمال مرجوحة أو غير مبرمجة ولا مدروسة . .

ليغدوا المشايخ والعلماء مقودين منجرفين موجَّهِين لا مُوَجِّهين تابعين لا متبوعين . .

بل إن أعظم ما يقدمه المشايخ والعلماء والدعاة الواعون في هذا الزمان ترشيد -لا إيقاف- هذا التيار بعد انطلاقه . . وتوجيهه -لا تعطيله- بعد انفلاته . . وتسديده إلىٰ أسد الاختيارات وأنفعها وأصلحها وأحظاها للإسلام وأهله وأكملها للثأر لدين الله بأشرق صوره؛ بالعمل الجاد لأجل التمكين لأمة الإسلام التي نهضت لاسترداد أمجادها واستعادة فتوحاتها . .

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

ونختم بالتذكير بما بدأنا به:

﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾...

الوقفة الحادية والعشرون

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾[(١)]

عندما كنا نعزل عن العالم ونمنع من زيارات الأهل والأخبار والإتصال بالعالم لم أكن أرىٰ من الخلق في زنزانتي الإنفرادية إلا مندوبي الصليب الأحمر والحمام والعصافير التي كانت تقف علىٰ قضبان طاقة الزنزانة بحثا عن بعض فتات الخبز الذي كنت أذره لها لتؤانسني بهديلها وصفيرها.

وكذلك تماما كان مندوبو اللجنة الدولية للصليب الأحمر يفعلون فقد كانت طلّة المندوب علينا تبعث الفرح والسرور لأنها تعني أخبارا جديدة عن الأهل ورسائل شوق من الأحبة كما أنها في كثير من الحالات كانت تعمل علىٰ تخفيف الضغوط التي تمارسها إدارة السجن علىٰ كثير من المعتقلين بل وتحمل لنا في بعض الأحايين كتبا نطير فرحا بها في ظل العزلة ومنع الكتب من قبل السلطات وفي حالتي الخاصة كان لذلك وضع خاص واهتمام من قبل اللجنة بسبب طول مدة العزل التي قضيتها في الحبس الإنفرادي وكل من يعرفني ويعرف عشقي للكتب والقراءة سيعلم أن أعظم العقوبات علي في الحبس كانت حرماني من ذلك وكانت الإدارة تعرف ذلك جيدا وتمارسه معي فتحرمني من الكتب أو تقتّر عليّ بها أو تصادرها عند توفرها لأدنىٰ الأمور؛ فبذل المندوبون جهدهم لفك هذا الحصار عني

---

(١) كتب أصل هذه الوقفة في زنزانة ٥٣ في سجن المخابرات العامة ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

بصدق لن أنساه لهم، وحاولوا وسعوا بمختلف طاقاتهم وإمكاناتهم لكسره وتمكنوا ابتداء وبعد جهد من إدخال مجلة الإنساني التابعة للجنة والتي تصدر فصْليّا فكانت أول طلة لنا علىٰ العالم الخارجي المعزول عنا ولو من خلال الإشارات المبثوثة ضمن أخبار نشاطات اللجنة الدولية للصليب الأحمر ولا يقدر مقدار هذا الأمر إلا من جرب ما جربناه فصرنا ننتظر هذه المجلة بشوق علىٰ قلة الأخبار العالمية فيها إذ هي ليست نشرة إخبارية بل نشرة تعرّف بنشاطات اللجنة ولكن العزلة التي كنا فيها جعلتها النشرة الإخبارية الأولىٰ والوحيدة طبعا عندنا، ثم تتابعت محاولات مندوبي اللجنة فتمكنوا من إدخال كتيبات اللجنة ونشراتها المتنوعة كتذكار سولفرينو لهنري دونان والقانون الدولي الإنساني في الإسلام ونحوها من مطبوعات اللجنة ونشراتها ثم تمكنت اللجنة بعد جهد جهيد وحثيث من إدخال مائة كتاب متنوعة كسرت بها عزلتنا وصنعت منها مكتبة للسجن يتداول السجناء كتبها دوريا بعد منع طويل للكتب.

وهذه بعض أسماء الكتب التي أهدتها اللجنة كمكتبة للسجناء.

تفسير ابن كثير، صحيح مسلم، صحيح البخاري، دولة المرابطين، تاريخ الأندلس المصور، تربية الأولاد في الإسلام، قصص الأنبياء، صورمن حياة الصحابة، وصور من حياة التابعين، لا تحزن إن الله معنا، في وجدان القرية للعشماوي، اليوم الموعود، الطب النبوي، هبي يا ريح الإيمان، صناعة القائد، رحلة النجاح، الحرب العالمية الأولىٰ والثانية.

وغير ذلك من الكتب في قائمة طويلة ومتنوعة.

والمطالع لهذه الكتب يعلم خطأ ما يتوهمه كثير من الناس في اعتقادهم بأن هذه اللجنة تمارس نشاطات تبشيرية أو صليبية فإن بعضها يتحدث عن مآسي المسلمين في الأندلس ويبين ما تعرضوا له من إبادة في

محاكم التفتيش بعد سقوط الأندلس واضمحلال حكم المسلمين فيها، وبعضها يدين الحملات الصليبية علىٰ بلاد المسلمين ويتحدث عن المذابح التي تعرضوا لها عند سقوط القدس تحت حكمهم وبعضها يدين الإستعمار الحديث ويدافع عن الخلافة ويذم الإستشراق والتغريب والحداثة إلىٰ غير ذلك مما يدل دلالة واضحة علىٰ أن اللجنة لا تتدخل في المسائل الدينية والعقائدية وليس لها أي توجه تبشيري أو صليبي -بحسب تجربتي- ونحو ذلك مما يحاول وصفها به البعض بسبب مسماها وشعارها الذي هو أصلا معكوس علم سويسرا بلد مقر اللجنة ومنشئها . . مع أن العبرة بالحقائق وليست بالمسميات خصوصا إذا كانت المسميات مجرد شعارات ولافتات أفرغت من محتواها وحرفت أو نقلت عن مدلولاتها الأصلية، فكم من دولة أو منظمة في زماننا تتخذ من الآيات القرآنية أو الشهادتين أو التكبير أو الهلال شعارا لها وهي لا تعرف من الإسلام إلا اسمه وليس عندها من هذه الشعارات إلا رسمها بل ربما لا تفهمها ولا تعرفها بمعانيها الأصيلة ودلالاتها الحقيقية، وتحارب تلك المعاني وتعادي أهلها.

ومعلوم كذلك لكل من يراجع تاريخ نشوء اللجنة وتأسيسها أنها لم تنطلق من أسس دينية تبشيرية وأن مؤسسها الأول هنري دونان كان تاجرا ولم يكن قسيسا أو مبشرا.

وإذا كان لي أن أتحدث عن تجربتي الشخصية مع اللجنة فإني لم أعهد خلال علاقتي مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر والتي امتدت منذ عام ١٩٩٤م ولم ألحظ في أي يوم من الأيام أن مندوبيها يحاولون التبيشر بالدين المسيحي أو التدخل بديانة السجناء بل علىٰ العكس فقد كنت أنا الذي أباديء كثيرا منهم في طرح المسائل الدينية والاستفسار منهم عن عقائدهم وأدعوهم إلىٰ الإسلام ولم ينزعجوا قط من شطبي خلال مدة طويلة لشعار

اللجنة (الصليب) علىٰ رسائلي التي كنت أبعثها لأهلي وإنما الذي انزعج من ذلك واعترض عليه هي السلطات التي كنت سجينا لديها بدعوىٰ أني أفعل ذلك كترميز وإشارات أشير بها إلىٰ أهلي تشفيرا لأخبار أريد إيصالها إليهم؛ لأني كنت أشطب علىٰ الصليب وأكتب بجواره ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ فمنعت بعض رسائلي لأجل ذلك.

وقد حاولت في إحدىٰ السنوات أن أطلب من مندوبي اللجنة إحضار الكتاب المقدس لدىٰ النصارىٰ لأستعين به في بعض بحوثي في السجن فأبوا ذلك واعتذروا ولم يوفروه لي مع توفيرهم لكثير من الكتب المشار إليها أعلاه أضف إلىٰ هذا أنه من المعلوم أن كثيرا من مندوبي اللجنة هم في الحقيقة من المنتسبين إلىٰ دين الإسلام .. وغير المسلمين منهم يراعون ويحترمون اختيارات الشباب المسلم ويسعون جاهدين لتوفير مندوبين من الرجال في حال رفض السجين مقابلة مندوبة من النساء حرصا منهم علىٰ عدم قطع الاتصال مع أي من السجناء حتىٰ إن مندوبات اللجنة كن يضعن غطاء علىٰ رؤوسهن للسبب نفسه.

وعندما أنهيت قراءة جميع كتب القائمة الطويلة التي أحضرتها اللجنة للسجن والتي لا يمكن أن تقرأ في شهر أوشهرين أوثلاثة إلا إنني أنهيتها جميعها بسبب حرص السلطات وإصرارها علىٰ إطالة مدة استضافتي في زنازينهم فكنت بعد ذلك أطلب كتبا أخرىٰ من مندوبي اللجنة أسميها باسمائها فلا يقصرون بإحضارها لي وكان ذلك بعد جهدهم الطويل والمضني الذي أثمر عن كسر المنع المفروض علىٰ الكتب بل ونجحت اللجنة في نهاية المطاف وقبل الإفراج عني بأشهر من الحصول -بسبب طول حجزي- علىٰ الموافقة لإدخال الصحف إلىٰ زنزانتي في كل زيارة للجنة وهو الأمر الذي تحقق لأول مرة في تاريخ السجن بحسب معلوماتي

فأصبحت زيارتهم تعني عندي نشرة مفصلة عن أخبار العالم الذي تخلف ذهني عنه قرابة الخمس سنوات.

هذا بعض ما رأيته وشاهدته من جهود اللجنة في تجربتي الشخصية أما خدماتهم علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي.

فيقول أحد مسؤولي اللجنة الدولية للصليب الأحمر: (يلاحظ أن أكثر من نصف العمليات الجارية للجنة الدولية موجهة إلىٰ مساعدة ضحايا مسلمين سواء سجناء أو أسر الأشخاص المفقودين أو مدنيين بحاجة إلىٰ سقف يظللهم أو مياه نقية أو طعام، وبإلقاء نظرة سريعة علىٰ أنشطة اللجنة الدولية فيما يربو علىٰ خمسين دولة عضوا في منظمة المؤتمر الإسلامي يتضح وجودها القوي في العالم الإسلامي..) نقلا عن (مختارات من المجلة الدولية للصليب الأحمر ٢٠٠٥).

وبإمكان من يشك بمثل هذه المعلومات أن يسأل الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية وكذلك العراقيين خصوصا السجناء منهم وذويهم عن خدمات اللجنة.

لذلك كله وغيره فقد تملكني العجب والاستنكار عندما سمعت بتفجير مقر اللجنة الدولية للصليب الأحمر في بغداد؛ والعراق وشعبه في ظروفه الحاضرة أحوج من في الدنيا اليوم إلىٰ خدمات اللجنة الدولية الكثيرة والمتنوعة، كما تملكني الإستهجان لتبريرات البعض السطحية لذلك التفجير بدعاوىٰ أن مقر اللجنة في العراق كان وكرا للسي آي إيه وكأن السي آي إيه تنقصها الأوكار في ذلك البلد المنكوب الذي أمسىٰ ولاية من ولاياتهم؛ حتىٰ يستعيروا مقر اللجنة أو يستأجروه لإقامتهم!! وكل من يعرف حيادية اللجنة الدولية ويتعامل معها يعلم إستحالة مثل هذه التكهنات والظنون والتبريرات.. كما كنت أعجب كل العجب لإستهداف مندوبي اللجنة في

كثير من الميادين سواء بقتلهم أوبخطفهم واستعمالهم كرهائن للمساومة أو الضغط علىٰ الدول التي ينتسبون إلىٰ جنسيتها ومثل ذلك استهداف موظفي هيئات الإغاثة عموما لا لشيء إلا للون شعرهم الأشقر أو عيونهم الزرقاء أوجنسياتهم كدلالة علىٰ العداوة في الدين بل وتعدىٰ ذلك إلىٰ النساء منهم كمارجريت حسن رئيسة مكتب منظمة كير الخيرية بالعراق والتي عملت في مجال الإغاثة لثلاثين سنة في العراق معارضة للحصار المفروض عليه وهي إضافة إلىٰ ذلك زوجة لعراقي ينتسب للإسلام ومع هذا رأىٰ العالم كله خطف هذه المرأة والتهديد بقتلها وتنفيذ ذلك فعلا بدعوىٰ الضغط علىٰ الدولة التي تنتسب إليها جنسيتها كي تسحب قواتها من العراق! فأي غباء هذا وأي تشويه للجهاد وتسخيف للمقاومة وأهلها؟؟ ولا أشك طرفة عين أن مثل هذا لا يمكن أن يصدر عن مجاهد يفقه دينه ويحترم جهاده ويحرص علىٰ سمعته؛ بل لا يمكن أن يصدر إلا عن قطاع طرق ومجرمين لا يمتون إلىٰ الدين فضلا عن الجهاد بصلة؛ كما تبين فعلا فيما بعد حيث لم يكن الخاطفون من المجاهدين؛ ولقد استنكر خطفها وقتلها من يحترم جهاده ويحرص علىٰ سمعته من المجاهدين ودعاتهم وعلمائهم.

فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قتل معاهدا لم يرَح رائحة الجنة . . .**» **رواه البخاري.**

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**من قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد رائحة الجنة. .**» رواه الإمام أحمد وغيره.

ووجه الإستدلال بهذه الأحاديث أنه إذا كان هذا الوعيد قد ورد فيها لمن قتل معاهدا أو ذميا يحترم دين الإسلام وأهله ويسالمهم أويكف عن حربهم رهبة لسلطان الإسلام ودولتهم حين توجد؛ فكيف بمن يحترم دين المسلمين ويكف عن حربهم بل ويعمل في مساعدتهم وإغاثتهم رغم عدم

وجود دولة للمسلمين ولا سلطان لها يخشاه ويرهبه؛ بل يفعل ذلك من منطلقات المروءة أو العمل الإنساني والأخلاق الحميدة ونحوها؛ أوَليس هذا أولىٰ وأجدر بأن يُؤمَّن ويُحسن إليه؛ وأن لا يُؤذىٰ أو يتعرض له؟ وأن يَدخل في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فلا داعي إذن لتحرّج بعض الشباب من التعامل مع اللجنة أو هجرانها ومقاطعتها وهم أو إخوانهم المستضعفين أو المأسورين في أمس الحاجة إلىٰ خدماتها ومساعداتها ومما يستأنس به في هذا الباب ما ورد في السيرة في قصة ذهاب النبي ﷺ إلىٰ الطائف والتي أوذي فيها وأدميت قدماه فأوىٰ إلىٰ ظل حائط فجاءه غلام نصراني اسمه عدّاس بعنب فقبله ﷺ منه.

وللفائدة أنوه بأن الدولة العثمانية كانت قد انضمت إلىٰ إتفاقية جنيف لعام ١٨٦٤م دون أي تحفظات وهي الإتفاقية التي انطلقت علىٰ أساسها حماية ضحايا الحروب في العصور الحديثة؛ وعليه فقد كانت تُؤمّن وتحترم رفع شارة الصليب الأحمر كوسيلة حماية لسيارات إسعاف العدو إذ قد نصت الاتفاقية علىٰ احترام أفراد الخدمات الطبية ووسائط النقل والمعدات الطبية ووسمها بشارة صليب أحمر علىٰ أرضية بيضاء ولم تستعمل الدولة العثمانية شعار الهلال الأحمر إلا خلال الحرب بينها وبين روسيا ١٨٧٦-١٨٧٨م حين أعلنت أنها ستستخدم الهلال الأحمر كشارة مميزة لجمعيتها الوطنية علىٰ سيارات الإسعاف التابعة لها مع الاستمرار في احترام اتخاذ شارة الصليب الأحمر كوسيلة حماية لسيارات إسعاف العدو، ومنذ ذلك الحين فقط أصبح الهلال الأحمر هو الشعار المطبق في الدولة العثمانية . . ولم يدعُها ذلك إلىٰ عدم تأمين سيارات العدو التي تحمل شارة الصليب

الأحمر كعلامة علىٰ الخدمات الطبية أو التعرض لها وتعريضها للخطر بل استمرت في تأمينها.

❁ ❁ ❁

وأخيرا فأنا هنا أهمس في أذن كل أخ مجاهد بهذا السؤال: أترضىٰ أن يقال بأن المجاهد إنسان غبي لا يفرق بين عدوه وصديقه وبين من يحاربه ومن يساعده؟ لا أظنك ترضىٰ بذلك، إذن حذار من المشاركة في اللغو في الدين أو العمل علىٰ تسخيف الجهاد وتشويهه فتساعد أعداء الإسلام في أعظم وأخبث مكائدهم ومخططاتهم في حرب هذا الدين؛ فقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولذلك فإني أدعو وأنصح كل الإخوة العاملين لهذا الدين في جميع أنحاء العالم؛ الذين يهمهم أمر المسلمين ودينهم وتعز عليهم سمعة الجهاد والمجاهدين أن يؤمّنوا مندوبي اللجنة الدولية وأمثالها من المنظمات الإغاثية وأن يتجنبوا استهداف أعضائها ومندوبيها ما داموا محافظين علىٰ حياديتهم ولا يتدخلون في دين المسلمين وعقائدهم بل ويعملون علىٰ إغاثتهم ومساعدتهم وأن لا يعتبروا ذلك فضلا منهم بل هو واجب من واجبات الإحسان لأهل الإحسان قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فإنا لقوم أبت أخلاقنا شرفا أن نبتدي بالأذىٰ من ليس يؤذينا

وفي الحديث الصحيح الذي يرويه الإمام أحمد وغيره قال رسول الله ﷺ: **(لا يشكر الله من لا يشكر الناس)**.

وليس من ديننا ولا من هدي نبينا ﷺ أن يقابل من يستحق الشكر ولو خالفنا بالعقيدة والدين بالإساءة والنكر فضلا عن الخطف والأذىٰ والقتل ..

وليس أدل علىٰ ذلك مما رواه البخاري من قول النبي ﷺ بعد غزوة بدر في شأن أسارىٰ المشركين: **(لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنىٰ لتركتهم له)** أي لفك أسارهم جميعا شكرا له؛ وذلك لأنه كان قد عمل علىٰ إجارة النبي ﷺ وحمايته لما رجع من الطائف إلىٰ مكة . . وقيل أن سبب ذلك أنه كان من أشد من قام في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش علىٰ بني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حصروهم في الشعب، فهذا شكر له وثناء حسن علىٰ إحسانه إلىٰ النبي ﷺ رغم موت المطعم علىٰ الشرك وعبادة الأوثان.

وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري عن الفاكهي بإسناد مرسل أن حسان بن ثابت رثىٰ المطعم بن عدي لما مات مجازاة له علىٰ ما صنع للنبي ﷺ.

وفي ثنائه ﷺ علىٰ حلف الفضول وهو حلف أسس في الجاهلية أنشأه قوم كفار عبدة أوثان لإغاثة المظلوم ودفع الظلم؛ ففي ذلك الثناء دلالة واضحة علىٰ شرعية الثناء والشكر لأهل الإغاثة والإحسان وأن ذلك من أخلاق نبينا ﷺ ومن محاسن سنته وهديه . . وليس من أخلاقه ولا من هديه قتل أمثال هؤلاء أو خطفهم والإساءة إليهم.

أما علم المكابر أن فينا ... كتاب الله يمنحنا البيانا
يضيء لنا الوجود فنحن نبني ... علىٰ أضواء منهجه الكيانا
يقول له وللدنيا جميع ... بأنّا سوف نرعىٰ من رعانا
سنرهب بالجهاد طغاة حرب ... ونمنحهم إذا صدقوا الأمانا

هذا ما أحببت تذكير إخواني به في كل مكان وتوجيههم إليه نصحا لدين الله ونصحا للجهاد والمجاهدين وحرصا علىٰ سمعتهم وسمعة جهادهم وإظهارا للصورة الحقيقية المشرقة للإسلام والجهاد.

ويحسن بي في خاتمة هذه الكلمات أن أذكّر أيضا مندوبي اللجنة الدولية من باب حبي الخير لهم بنصيحة زميلهم حين قال في مقاله المشار إليه أعلاه: (وتحتاج اللجنة الدولية للنأي بنفسها عن القضايا الإجتماعية والسياسية الخلافية) أهـ

أقول: ومثل ذلك القضايا الاعتقادية والدينية للمسلمين مادام مبدأ الحياد مبدءا تتمسك به اللجنة وتحرص علىٰ مصداقية تؤهلها للتعامل مع جميع الأطراف دون استفزاز أو تدخل في عقائد الناس وأديانهم وهو ما نبه إليه رئيس تحرير المجلة الدولية للصليب الأحمر بقوله: (لكي تنال اللجنة ثقة أطراف النزاع يفرض عليها هذا المبدأ (الحياد) ليس فقط عدم المشاركة في العمليات العدائية بل أيضا الإمتناع عن التدخل في أي جدال سياسي أوديني أو أيديولوجي) أهـ نقلا عن مختارات من مجلة الصليب الأحمر **٢٠٠٥**م.

فإن تدخل منظمات الإغاثة في عقيدة المسلمين ودينهم وشريعتهم يعرضها دون شك للعداء ويجعلها أهدافا معادية وليست محايدة أو مساعدة . . ولقد رأيت ورأىٰ كثير من المجاهدين هيئات إغاثية أوروبية في شمال أفغانستان وهي تتدخل في حجاب النساء المسلمات وتوزع الملابس التي تحوي عبارات التنصير وقد صنفهم المجاهدون لأجل هذه الأسباب علىٰ أنها منظمات معادية . . ولم أكن أفرق آنذاك كما لا زال لا يفرق كثيرون غيري إلىٰ اليوم بين هذه الهيئات وبين اللجنة الدولية للصليب الأحمر ونهجها الحيادي.

***

ونصيحة أخيرة أهديها أيضا لمجلة الإنساني التي آنستنا في ظلام السجن وعزلته؛ أن تربأ بنفسها عن أشياء من هذا القبيل ومن ذلك ثناء

بعض كتابها غير المتحفظ علىٰ بعض الكتاب والمفكرين الذين يطعنون في قرآن المسلمين وتاريخهم وثقافتهم فإن عبارة (إن الآراء الواردة بهذه المطبوعة لا تعبر إلا عن وجهة نظر أصحابها) لا تسمن ولا تغني من جوع مع الطعن الصريح في دين المسلمين وشرائعهم كحجاب المرأة المسلمة أوتعدد الزوجات بدعاوىٰ حقوق المرأة أو حقوق الإنسان الانتقائية، أو الطعن في الجهاد والمجاهدين والمقاومة المسلمة بدعوىٰ ذم الإرهاب فذلك في حقيقته مواكبة ومسايرة للحرب العالمية علىٰ ما يسمىٰ بالإرهاب التي توسعت لتصبح في حقيقتها حربا علىٰ الإسلام والمسلمين وبلادهم!! وتورط المجلة في مثل هذا ومجاراته يتنافىٰ مع مبدأ الحيادية الذي اتخذته اللجنة نهجا لها، ومثله الثناء غير المتحفظ علىٰ أعداء القرآن فضلا عن إيراد بعض أقوالهم في المجلة.

وما دامت اللجنة تحرص علىٰ حيادها وتتجنب أمثال هذه الإشكاليات والمزالق فستنال منا دوما الشكر والثناء القولي والعملي كما تعلّمنا من ديننا وهدي نبينا محمد ﷺ. .

الوقفة الثانية والعشرون

طاعة المتغلب عند أهل السنة والرشاد خضوع للشريعة ومصلحة للعباد وليس رضا بالظلم ولا خضوع للاستبداد

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله.

موضوع طاعة الحاكم المتغلب موضوع قديم يتجدَّد كلما احتاج إليه الطغاة؛ فقد استُخدم هذا الموضوع واستُغل ولا زال يستغل لإخضاع المسلمين للطغاة، بل وللمرتدين واليهود والنصارىٰ حين يتغلَّبون علىٰ بلاد المسلمين كما جرىٰ من بعض الشيوخ زمن احتلال نابليون لمصر وزمن احتلال الطليان لليبيا .. حتىٰ زعم بعض دعاة التجهم والإرجاء في زماننا في مقطع مسموع له، عدم جواز قتل وقتال اليهود بحجة أنهم متغلبون ويستنكر علىٰ من قاتلهم ممن كان مواطنا عندهم يأخذ منهم الماء والكهرباء؛ حتىٰ فرح بمقالته اليهود وأثنوا عليه وعلىٰ كلامه المقر لحكمهم والداعي للسمع والطاعة لهم!

وهذا مما لا ينطلي أو يروج علىٰ عقلاء عوام المسلمين فضلا عن الجهاديين..

ولكننا رأينا هذا الموضوع يُستغل ويُستخدم من قبل بعض المتعاطفين مع جماعة الدولة لإخضاع الفصائل والجماعات والناس في أنحاء المعمورة وتطويعهم للغلاة، وحثهم علىٰ بيعة خليفتهم المتغلب!!

قرأت ذلك لأكثر من كاتب ووجدت أنصار الدولة يُدندنون حوله في نقاشاتهم مع مخالفيهم فأحببت أن أُحرِّره وأُحقِّقه مختصرًا قدر الإمكان ليتمكن المجاهد والداعية من مطالعته فيعرف جذره وفرعه.

- **ليس في طاعة المتغلِّب الظالم إجماع للسلف:**

مرجئة العصر وعلماء السلاطين هم من تولَّىٰ كِبَر تدجين الناس للطغيان، وذلك بدندنتهم علىٰ هذه المسألة وادِّعائهم إجماع أهل السنة والسلف عليها، حتىٰ صوَّروا علماء السلف وأئمة الأمة علىٰ أنهم كانوا أبواقًا للسلاطين، أو أوتادًا للظلم والاستبداد!

فهل فعلا كان علماء السلف كذلك؟

وهل الإجماع المُدَّعىٰ صحيح في ذلك؟

لقد ضرب علماء السلف وأئمة الدين أنصع الأمثلة في إنكار المنكر وقول كلمة الحق في وجه الحكام والولاة الظلمة، ولم يكونوا كعلماء اليوم يُرقِّعون للطغيان أو يقفون بأبواب السلطان، والمتتبِّع لسيرهم وتراجمهم يرىٰ ذلك واضحًا؛ فلا يحتاج الأمر هنا إلىٰ الاستدلال عليه بحشد عشرات بل مئات المواقف لهم، ففي ذلك إطالة تُخرجنا عن أصل المسألة.

وتكفي الإشارة والتذكير بأن الأئمة الأربعة سُجنوا أو ضُربوا وابتُلوا لأشياء أنكروها علىٰ ولاة زمانهم.

بل إن المشهور من مذهب أبي حنيفة جواز قتال الظلمة وحكام الجور؛ فقد رد الإمام الجصاص وأغلظ القول علىٰ من ادَّعىٰ أن أبا حنيفة يرىٰ إمامة الفاسق، مُستدِلًا بمذهب أبي حنيفة في إنكار المنكر بالسيف، وتجويزه الخروج علىٰ أئمة الجور.

وقال: «وهذا إنما أنكره عليه أغمار أصحاب الحديث الذين بهم فُقِد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتىٰ تَغلَّب الظالمون علىٰ أمور الإسلام، فمن كان هذا مذهبه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كيف يرىٰ إمامة الفاسق؟!» أهـ.

وأشار إلىٰ موقفه المؤيِّد لزيد بن علي في خروجه علىٰ الخليفة وفي حمله المال إليه وفتياه الناس سرًا بوجوب نُصرته والقتَال معه. وكذلك مساندته لمحمد الملقب بالنفس الزكية ودعوة الناس وحثهم علىٰ مناصرته ومبايعته، بل قال لأبي إسحاق الفزاري حينَ قَال له معاتبا: لمَ أشرت علىٰ أَخي بالخروج مع إبراهيم حتىٰ قُتل؟ قَال: «مَخْرَجُ أَخيك أَحبُّ إليَّ مِنْ مَخْرَجَك». وكان أَبو إسحاق قد خرج إلىٰ البصرة.

فقد رأىٰ أن الخروج علىٰ أئمة الجور أولىٰ من عموم الجهاد للكفار.

بل قال العلامة المعلمي في (التنكيل): «كان أبو حنيفة يستحِبُّ أو يُوجب الخروج علىٰ خلفاء بني العباس لما ظهر منهم من الظلم، ويرىٰ قتالهم خيرًا من قتال الكفار» أهـ.

وكذلك الإمام مالك؛ فقد روىٰ ابن جرير عنه أنه أفتىٰ الناس بمبايعة محمد بن عبد الله بن الحسن حين خرج، فقيل له: «فإن في أعناقنا بيعة للمنصور، فقال: إنما كنتم مكرهين وليس لمُكرَه بيعة، فبايعه الناس عند ذلك عن قول مالك ولزم مالك بيته»، وقد ابتُلي مالك وأُوذي لأجل ذلك.

وكذلك قال ابن العربي: «وقد روىٰ ابن القاسم عن مالك: إذا خرج علىٰ الإمام العدل خارج وجب الدَّفعُ عنه، مثل عمر بن عبد العزيز، فأما غيره فدعه، ينتقم الله من ظالم بمثله، ثم ينتقم الله من كليهما» أهـ.

وقال القاضي عياض: «لو طَرَأَ عليه كفرٌ أو تغييرٌ للشرع أو بدعةٌ، خرج عن حكم الولاية، وسقطت طاعته، ووجب علىٰ المسلمين القيام عليه، ونصب إمام عادل إنْ أمكنهم ذلك، فإن لَم يقع ذلك إلا لطائفة، وجب عليهم القيام بخلع الكافر، ولا يجب علىٰ المبتدع القيام إلا إذا ظنوا القدرة عليه، فإن تحقَّقوا العجز، لَم يجب القيام، وليُهاجر المسلم عن أرضه إلىٰ غيرها، ويفرّ بدينه. وقال بعضهم: يجب خلعه إلا أن يترتَّب عليه فتنةٌ وحرب». أهـ.

وكذلك الإمام أحمد؛ فقد ذكر ابن أبي يعلىٰ في (ذيل طبقات الحنابلة) عنه في رواية: «مَنْ دعا منهم إلىٰ بدعة فلا تُجيبوه ولا كرامة، وإن قَدِرتُم علىٰ خَلْعِه فافعلوا».

والمشهور من مذهبه عدم الخروج علىٰ الإمام الجائر، لكن مرادي من إيراد القول الآخر له التعريف بأنه ليس له قول واحد في المسألة، وأن المسألة ليس فيها إجماع؛ فلعلَّ المنع يُحمل علىٰ عدم القدرة وترجُّح المفسدة وزيادة الشر والدماء.

وقد أثنىٰ الإمام أحمد علىٰ أحمد بن نصر الخزاعي الذي دعا إلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام علىٰ الخليفة لبِدعته وفِسقه حتىٰ قُتل، وقال الإمام أحمد في ابن نصر بعد مقتله: «رحمه الله، ما أسخاه! لقد جاد بنفسه لله».

ولذلك وُجد في علماء الحنابلة من ذهب إلىٰ القول بالخروج علىٰ الجائر كابن رزين، وابن عقيل، وابن الجوزي.

وأما الشافعي؛ فقد ذكر التفتازاني والزبيدي وغيرهم أنَّ مذهبه كان جواز الخروج علىٰ حكام الجور.

وممن قال من مشاهير الشافعية بعزل الفاسق والخروج عليه الجويني، فقد قال عند مقالة من قال أن الإمامَ لا ينعزل بالفسق: «وهذا في نادر الفسق، فأما إذا تواصل منه العصيان، وفشا منه العدوان، وظهر الفساد، وزال السداد، وتعطلت الحقوق، وارتفعت الصيانةُ، ووضَحَت الخيانةُ، فلا بدَّ من استدراك هذا الأمر المتفاقم، فإن أمكن كف يده، وتولية غيره بالصفات المعتبرة، فالبدار البدار، وإن لم يمكن ذلك لاستظهاره بالشوكة إلا بإراقة الدماء، ومصادمة الأهوال، فالوجه أن يقاس ما الناس مُندفعون إليه، مُبتَلَونَ به بما يعرض وقوعه، فإنْ كان الواقع الناجز أكثر مما يُتوقَّع، فيجب احتمال المتوقَّع، وإلا فلا يسوغ التشاغل بالدفع، بل يتعيَّن الصبر والابتهال إلىٰ الله تعالىٰ» أهـ.

وقد رد ابن حزم دعوىٰ الإجماع علىٰ عدم الخروج علىٰ الجائر فقال: «ورأيت لبعض من نَصَّب نفسه للإمامة والكلام في الدين فصولًا، ذكر فيها الإجماع، فأتىٰ فيها بكلام، لو سكت عنه لكان أسلمَ له في أُخراه، بل الخَرَس كان أسلمَ له، وهو ابن مجاهد البصري المتكلّم الطائي، لا المقرئ، فإنه ادعىٰ أنهم أجمعوا علىٰ أنه لا يُخرج علىٰ أئمة الجور، فاستعظمتُ ذلك، ولعمري إنه لعظيم أن يكون قد علمَ أن مخالف الإجماع كافر، فيُلقي هذا إلىٰ الناس، وقد علمَ أن أفاضل الصحابة وبقية السلف يومَ الحرَّةِ خرجوا علىٰ يزيد بن معاوية، وأن ابن الزبير ومن تابعه من خيار الناس خرجوا عليه، وأن الحسينَ بن عليّ ومن تابعه من خيار المسلمين خرجوا عليه أيضًا، رضي الله عن الخارجين عليه، ولعن قَتَلَتَهم. وأن الحسن البصري وأكابر التابعين خرجوا علىٰ الحجَّاج بسيوفهم، أترىٰ هؤلاء كفروا؟ بل واللهِ من كفَّرهم فهو أحق بالكفر منهم، ولعمري لو كان اختلافًا -يخفىٰ- لعذرناه، ولكنه مشهور يعرفه أكثر من في الأسواق، والمخدَّراتُ

في خدورهنَّ لاشتهاره. ولكن يحق علىٰ المرء أن يَخطِمَ كلامه ويزُمَّه إلا بعد تحقيق وميزٍ، ويعلم أن الله تعالىٰ بالمرصاد، وأن كلام المرء محسوب مكتوب مسؤول عنه يومَ القيامة مقلّدًا أجر من اتَّبعه عليه». أهـ.

وقد عدَّد ابن حزم طوائف من الصحابة والتابعين والعلماء والفضلاء الذين لم يخضعوا للخليفة المختار حين يَحيفُ ويَظلِم، فضلًا عن المتغلِّب، فرأوا الخروج علىٰ من رأوه ظالمًا أو خرجوا فعلًا؛ فعدَّد طوائف سمَّاهم ليخرق بهم الإجماع المُدَّعىٰ، فقال:

«وهذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكل من معه من الصحابة، وقول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها، وطلحة والزبير وكل من كان معهم من الصحابة. وقول معاوية وعمرو، والنعمان بن بشير، وغيرهم ممن معهم من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، وهو قول عبد الله بن الزبير، ومحمد والحسن بن علي، وبقية الصحابة من المهاجرين والأنصار القائمين يوم الحَرَّة، رضي الله عن جميعهم أجمعين. وقول كل من قام علىٰ الفاسق الحجَّاج ومَن والاه، مِن الصحابة -رضي الله عن جميعهم- كأنس بن مالك. وكل مَنْ كان مِمَّن ذكرنا من أفاضل التابعين، كعبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، وسعيد بن جبير، وابن البحتري الطائي، وعطاء السلمي الأزدي، والحسن البصري، ومالك بن دينار، ومسلم بن بشار، وأبي الحوراء، والشعبي وعبد الله بن غالب، وعقبة بن عبد الغافر بن صهبان، وماهان، والمطرف بن المغيرة ابن شعبة، وأبي المعد وحنظلة بن عبد الله، وأبي سح الهنائي، وطلق بن حبيب، والمطرف بن عبد الله بن الشخير، والنصر بن أنس، وعطاء بن السائب، وإبراهيم بن يزيد التيمي، وأبي الحوسا، وجبلة بن زحر وغيرهم. ثم من بعد هؤلاء من تابعي التابعين ومن بعدهم كعبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، وكعبيد الله بن عمر،

ومحمد بن عجلان، ومن خرج مع محمد بن عبد الله بن الحسن وهاشم بن بشر، ومطر الوراق، ومن خرج مع إبراهيم بن عبد الله.

وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة، والحسن بن حي، وشريك، ومالك، والشافعي، وداود، وأصحابهم. فإن كل من ذكرنا من قديم وحديث، إما ناطق بذلك في فتواه وإما فاعل لذلك بسلّ سيفه في إنكار ما رأوه منكرًا.» أهـ.

ثم جعل يردُّ علىٰ استدلال المخالفين في أحاديث احتجّوا بها، إلىٰ أن قال: «ويقال لهم ما تقولون في سلطان جعل اليهود أصحاب أمره، والنصارىٰ جنده، وألزم المسلمين الجزية، وحمل السيف علىٰ أطفال المسلمين، وأباح المسلمات للزنا، وحمل السيف علىٰ كل من وجد من المسلمين، وملك نساءهم وأطفالهم، وأعلن العبث بهم، وهو في كل ذلك مُقرٌّ بالإسلام، مُعلن به، لا يدع الصلاة؟

فإن قالوا: لا يجوز القيام عليه. قيل لهم: أنه لا يَدَعُ مُسلمًا إلا قتله جملة، وهذا إن تُرك أوجَب ضرورةً ألَّا يبقىٰ إلّا هو وحده وأهل الكفر معه.

فإن أجازوا الصبر علىٰ هذا خالفوا الإسلام جملة، وانسلخوا منه.

وإن قالوا: بل يُقام عليه ويُقاتل، وهو قولهم. قلنا لهم: فإن قتل تسعة أعشار المسلمين أو جميعهم إلا واحدًا، وسبىٰ من نسائهم كذلك، وأخذ من أموالهم كذلك. فإن منعوا من القيام عليه تناقضوا. وإن أوجبوا سألناهم عن أقل من ذلك، ولا نزال نحطُّهم إلىٰ أن نقف بهم علىٰ قتل مسلم واحد، أو علىٰ غلبة امرأة واحدة، أو علىٰ أخذ مال أو علىٰ انتهاك نسوة بظلم. فإن فرقوا بين شيء من ذلك تناقضوا وتحكّموا بلا دليل، وهذا ما لا يجوز، وإن أوجبوا إنكار كل ذلك رجعوا إلىٰ الحق.» أهـ.

وقال الجصاص: «وقد كان الحسن وسعيد بن جبير والشعبي وسائر التَابعين يأْخذون أَرزاقهم من أَيدي هؤلاء الظلمة، لا علىٰ أَنهم كانوا يتولَّونهم ويرون إمامتهم، وإِنما كانوا يأْخذونها علىٰ أَنها حقوق لهم في أيدي قوم فجرة. وكيف يكون ذلك علىٰ وجه موالاتهم وقد ضربوا وجهَ الحجَّاج بالسيف، وخرج عليه من القُرَّاء أربعة آلاف رجل هم خيار التابعين وفقهاؤهم، فَقَاتلوه مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالأهواز ثَم بالبصرة ثَمَ بدير الجماجم من ناحية الفرات بقرب الكوفة وهم خالعون لعبد الملك بن مروان لاعِنون لهم متبرِّئون منهم.» أهـ.

وفي خروج عبد الرحمن بن الأشعث في زمن ولاية الحجَّاج والذي آزره أكابر الفقهاء أمثال سعيد بن جبير والشعبي وابن أبي ليلىٰ وغيرهم، وحرّضوا علىٰ القتال قبل الوَقْعة.

فممَّا قاله ابن أبي ليلىٰ حين خطب في جيش ابن الأشعث يُحرِّضه: «أيها المؤمنون إنّه من رأىٰ عُدْوانًا يُعمل به، ومُنكرًا يُدعىٰ إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ، ومن أنكره بلسانه فقد أُجر وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين السفلىٰ فذلك الذي أصاب سبيل الهدىٰ ونُوّر في قلبه اليقين، فقاتلوا هؤلاء المحلّين المُحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحق فلا يعرفونه، وعملوا بالعدوان فلا ينكرونه».

ومما قاله سعيد بن جبير: «قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بنيّة ويقين، وعلىٰ آثامهم قاتلوهم؛ علىٰ جَوْرِهم في الحكم وتجبُّرِهم في الدين، واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة».

ومما قاله الشعبي محرِّضًا: «يا أهل الإسلام قاتلوهم ولا يأخذكم حرج في قتالهم، فوالله ما أعلم قومًا علىٰ بسيط الأرض أَعْمَلَ بظُلم ولا أَجْوَرَ منهم في الحكم، فليكن بهم البِدَار».

ولذلك وصف الحافظ ابن حجر هذا المذهب بأنه «مذهب للسلف قديم»، ففي ترجمة الحسن بن صالح بن حي رحمه الله: «وقولهم: كان يرىٰ السيف، يعني كان يرىٰ الخروج بالسيف علىٰ أئمة الجور، وهذا مذهب للسلف قديم، لكن استقر الأمر علىٰ ترك ذلك لما رأوه قد أفضىٰ إلىٰ أشد منه».

واستقرار الأمر إن كان يعني به اشتهاره فنعم، أما حَمْلُ ذلك علىٰ الإجماع فخطأ؛ فقد عرفت أنَّ سادات الأمة علىٰ خلافه، ولذا قال: «وهذا مذهب للسلف قديم».

ونُقل عن ابن التين عن الداودي قال: «الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قُدِرَ علىٰ خَلْعِه بغير فتنة ولا ظلم وَجَب، وإلا فالواجب الصبر. وعن بعضهم لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء».

• مَنْ مَنَعَ الخروج علىٰ الظَّلَمَة استثنىٰ مِنْ ذلك مَنْ فَحُش ظُلمه:

تقدَّم قول الجويني تعليقًا منه علىٰ قول: أن الإمامَ لا ينعزل بالفسق، قال: «وهذا في نادر الفسق، فأما إذا تواصل منه العصيان، وفشا منه العدوان، وظهر الفساد، وزال السداد، وتعطلت الحقوق، وارتفعت الصيانةُ، ووضَحَت الخيانةُ، فلا بدَّ من استدراك هذا الأمر المتفاقم، فإن أمكن كف يده، وتولية غيره بالصفات المعتبرة، فالبدار البدار، وإن لم يمكن ذلك لاستظهاره بالشوكة إلا بإراقة الدماء، ومصادمة الأهوال، فالوجه أن يقاس ما الناس مندفعون إليه، مُبتَلونَ به بما يعرض وقوعه، فإن كانَ الواقع الناجز أكثر مما يتَوقَّع، فيجب احتمال المتوقَّع، وإلا فلا يسوغ التشاغل بالدفع، بل يتعين الصبر والابتهال إلىٰ الله تعالىٰ» أهـ.

وقال ابن الوزير اليماني: «بيان أن من منع الخروج علىٰ الظلمة استثنىٰ من ذلك من فحُش ظلمه وعظمت المفسدة بولايته، مثل يزيد بن معاوية، والحجَّاج بن يوسف، وأنه لم يَقُل أحد ممن يُعتدُّ به بإمامة مَنْ هذا حاله، وإن ظن ذلك من لم يبحث من ظواهر بعض إطلاقهم، فقد نصوا علىٰ بيان مرادهم، وخصوا عموم ألفاظهم، ويظهر ذلك بذكر ما أمكن من نصوصهم..»، إلىٰ أن قال: «ومما يدل علىٰ ذلك أنه لما ادَّعىٰ أبو عبد الله بن مجاهد الإجماع علىٰ تحريم الخروج علىٰ الظلمة، ردُّوا ذلك عليه وقبَّحوه، وكان ابن حزم -علىٰ تعصُّبه لبني أمية- ممن رد عليه، فكيف بغيره؟ واحتجَّ عليه ابن حزم بخروج الحسين بن علي عليهما السلام علىٰ يزيد بن معاوية، وبخروج ابن الأشعث ومن معه من كبار التابعين علىٰ الحجاج، ذكره في كتاب (الإجماع) له» أهـ.

• خاتمة مهمة فيها زبدة المبحث:

- لا إجماع علىٰ وجوب الخضوع للمتغلِّب إن كان ظالما أوفاسقا أو مبتدعا، وهذا الإجماع المدَّعىٰ مخروق بخروج ساداتٍ من الصحابة والتابعين والعلماء علىٰ أمراء زمانهم.

- ما ذكره بعض أئمة أهل السنة في اختيارهم الخضوع للمتغلب الذي يعجزون عن تغييره؛ هو اختيار اضطرار، ومن صحَّح ولايته لم يُصحِّحْها باعتبارها حُكمًا شرعيًا أصليًا، بل باعتبارها ضرورة لظرف طارئ.

- واختيارهم هذا هو من باب ارتكاب أخفِّ الضررين حين لا يتأتَّىٰ دفعُهما جميعًا؛ فمن قدر علىٰ دفع ظلم الظالم بمفسدة أقل من مفسدته؛ فالحكم عند ذلك ينعكس والاختيار يكون لدفعه وتغييره.

- مقصد من صحَّح ولاية المتغلب ودعا للخضوع له هو حقن دماء المسلمين، وهذا المقصد لا يتحقَّق حين يكون المتغلِّب جماعة من جماعات الغلو في التكفير أو الإرجاء تسفك دماء المسلمين وتقتل المخالفين لها وقد تكفِّرهم، وتستخفُّ حتىٰ في دماء أتباعها تُفجّر أجسادهم هنا وهناك في أعمال لا تنطبق عليها شروط الأئمة المُعتَبرين التي قيدوا بها العمليات الاستشهادية، حتىٰ صحَّ فيهم وصدق حديث المصطفىٰ: (إن شر الرعاء الحطمة).

- ما ذكره بعض أئمة أهل السنة في اختيارهم الخضوع للمتغلِّب هو فيمن لم يَفْحُش ويشتدّ جوره وفجوره، فكيف بمن ضمَّ إلىٰ جَوْرِه وسفكه للدماء تكفير المسلمين بغير المُكفِّرات الشرعية، والطعن في أعراضهم وتشويه دينهم وشريعتهم؟؟!

- أخيرًا؛ إن اختيار إقرار المتغلب وبيعته وتصحيح إمرته والخضوع له هو اختيار الضعيف الذي يكون تحت ولايتهم وتغلبهم؛ وليس اختيار ذي القدرة والشوكة.

وإذا قُدر علىٰ تغيير المتغلب الباغي أو المفضول بإقامة من هو خير منه من غير فتنة وفساد جاز؛ بل يجب حين يكون المسلم بعيدًا عن سلطان هذا المتغلب ولا ضرر أو خوف يلحقه، فالواجب إقامة العدل وترسيخه قدر الإمكان.

وعليه فمن كان ضعيفًا لا يقدر علىٰ تغيير المنكر وكان تحت سلطان مسلم متغلِّب باغٍ أو ظالم، ويعلم أن في الخروج عليه مفسدة أعظم يختار له أهل السنة أن يكُفَّ يده ولا ينازع الأمر أهله، ولذلك أفتينا من اتصل بنا من الموصل ممن عاينوا مظالم جماعة الدولة وأوصيناهم إن كانوا ضعفاء لا يقدرون علىٰ تغيير انحرافات الدولة ولا يجدون سبيلًا للالتحاق بمن هم

خير من جماعة الدولة، ويخشون علىٰ أنفسهم وعيالهم وأموالهم من بطش جماعة الدولة، أفتيناهم بأن يعملوا بما أوصىٰ به العلماء في إمارة المتغلب حفظًا لدمائهم ودماء المسلمين. كما افتيناهم بجواز قتال الروافض مع جماعة الدولة إن لم يوجد من هو خير منهم، بناء علىٰ جواز الجهاد مع الفاجر عند عدم إمكان الجهاد مع من هو خير منه؛ فيُدفع معهم عن أعراض المسلمين ودمائهم، ويُقاتل معهم من هو شر منهم وأعظم ضررًا علىٰ أهل السنة.

وأما ذوو الشوكة ومن ليسوا تحت سلطان هذه الجماعة المتغلبة فلا نقول له بايع المتغلب أو جاهد مع الفاجر والمبتدع مادام قادرًا علىٰ إقامة العادل والصالح والفاضل في أرضه، فتعدُّد الإمارات والدول لإيجاد الإمارة الصالحة والدولة السنية أهون وأقل مفسدة من تعظيم وترسيخ الإمارة الفاجرة والبِدعيَّة التي تشوّه الإسلام وتذبح المسلمين. وما دام يقدر علىٰ الجهاد تحت الراية السنية فلا يجاهد مع البدعية، ولا يجوز له أن يذوب في الإمارة الفاجرة الجائرة المغالية هو وفصيله فيُكثِّر سواد الظلم ويثبّت أركانه مختارًا، بل يعمل علىٰ إيجاد الدولة السُّنية التي تتحرَّىٰ العدل، ويقاتل مع الصالحين ويكثر سواد من هو خير من جماعة البدعة والظلم وأجدىٰ وأنفع للدين ولأهل الإسلام، ويشترط عليهم أن تكون الثمرة نصرة دين الله وتحكيم الشرع، فليس من الحكمة ولا من العقل أن يذوب الفاضل ذو الشوكة في المفضول أو الظالم وهو قادر علىٰ أن يشدّ أزر من هو خير منه ويقيم دولة عدل عوضًا عن دولة بغي وظلم وإجرام.

أخيرًا أحبُّ أن أُنوِّه إلىٰ أنَّ الذي أعتقده أنا وكل من لا يؤمن بدين الديمقراطية الشركي؛ لكونه باطلًا شرعًا وكذلك عقلًا، لأنه طريق منقطع غير موصل لأهل الحق الساعين لتحكيم الشريعة، وتجارب المتساهلين

والمميِّعين أكبر شاهد علىٰ ذلك، فقد طُردوا وحُرموا بل وسُجنوا وانقُلب عليهم حين وصلوا لسدة الحكم من خلال أغلبية صناديق الاقتراع، فكيف بغيرهم ممن يُوصَم بالتشدد أو يوصف بالتطرف والإرهاب؟

ولذلك فقناعتي أنه بعد عقود من حكم الطواغيت وإخضاعهم ومسخهم للشعوب وتشويههم لدينهم وثقافتهم وأفكارهم، وإفسادهم بشهوات الدنيا وشبهات علماء السوء، قناعتي أنه لن يُقام شرع الله بعد هذا الإقصاء ولن يُحكَّم دينه بعد هذا التَّعطيل الطويل إلا بالتغلُّب. ولا بد أن يضع المسلمون هذا في حُسبانهم، حتىٰ إذا قام قائم لله ليُحكِّم شرع الله ويرُدَّ المظالم فنصره الله وتغلَّب، فواجب علىٰ المسلمين السمع والطاعة له؛ لأن هذا هو أعظم المصالح التي يجب علىٰ كل عالم وعاقل ترجيحُها واختيارُها، وأما أن ينتظروا تمكين الشريعة وطالبيها برضىٰ أعداء الشريعة أو باختيار أهل حل وعقد رقابهم في ربقة الطواغيت، فدون ذلك خَرْطُ القَتَاد!

هذه قناعتي وقناعة كل عالم عارف لواقع اليوم وكيد أعداء الاسلام واجتماعهم علىٰ حربه والسعي في حشره وحبسه بين جدران المساجد، ولذلك تراني لم أُردّد ما ردَّده وخاض فيه بعض من ردّ علىٰ جماعة الدولة من مأخذ افتئاتهم علىٰ الأمة، لأني أعتقد أنه لا بد من افتئات أهل الجهاد في بادئ الأمر علىٰ الأمة الضائعة وعلىٰ كل من لا يريد تحكيم الشرع، ومن ظن من أهل التوحيد والجهاد أن العالَم اليوم والطواغيت وعموم الناس سيُسلِّمونه مقاليد الحكم عن طيب خاطر، أو علىٰ طبق من ذهب مع باقات الورود، فهو واهم حالم لا يعرف حقيقة الواقع وطبيعة الحرب العالمية المعلنة علىٰ الإسلام وأهله.

ولذلك فلو أن جماعة الدولة كان ما يُؤخذ عليهم هو مجرَّد هذا الأمر -أعني الافتئات علىٰ العوام والطغام وعلماء السلطان- لما خالفناهم ولما

عاديناهم، ولكنهم لم يكتفوا بأن افتأتوا علىٰ خيار المجاهدين الذين يشاركونهم بهدف تحكيم الشريعة وإقامة الخلافة، بل قاتلوهم وقتلوا خيارهم، ثم تطوَّروا فكفَّروهم، وكفَّروا كل من يقاتلهم وصار قتالهم لهم قتال ردة، ثم أبطلوا أنكحتهم وقذفوا نساءهم بالزنا إن هُنَّ بَقِيْنَ تحتهم، وكفَّروا كامل المنظومة التعليمية، إلىٰ آخر ما اجترحوه من مصائب وطوّام تجعل العالِم الفاهم يرجِّح دَفْعَ مَفْسَدتهم ورفض تغلّبهم، واختيار السعي لإيجاد المتغلِّب السُّني الأقوم والأفضل. ولا يشترط الكمال والعصمة له، فهذا لا يشترطه عاقل، لكن أن يغلب خيره شره وأن يحقق مقاصد الشريعة ويحفظ ضرورياتها ويحكم بالشريعة، ويؤدي الحقوق ويكف المظالم، فيرفع راية السنة ويقمع راية البدعة ويرحم الأمة التي طال رُسُوفها في قيود الطغيان.

هذا ما لزم التنبيه إليه حول هذه المسألة التي تُستغلُّ اليوم للتَّرويج لبيعة الظلمة ونصرة جماعات البدع التي تستغل جهاد المجاهدين وتضحياتهم وتدخلهم في طاعتها من هذه الثغرة وبهذه الشبهة.

سائلا الله تعالىٰ أن يُهيئ لهذه الأمة أمر رشد، يُعزّ فيه أولياؤه ويُذلّ فيه أعداؤه، ويؤمر فيه بالمعروف ويُنهىٰ فيه عن المنكر، ويُحكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ.

الوقفة الثالثة والعشرون

كشف الزور والبهتان في فتوى (حبالة الشيطان)
التحذير من أخطار الاستعانة على المسلمين بالكفار
وبيان أن ما يجري في كثير من الأقطار ليس استعانة بل مظاهرة للكفار

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وبعد..

فلقد كتبتُ من قبل في هذا الموضوع وحذّرتُ من أخطاره ورددتُ علىٰ من أفتىٰ بتسويغ تحالفات يزعمون أنها تستعين بالكفار لدفع صيال بعض الجماعات من خصومهم الذين وصفوهم بالخوارج؛ ظنا بأن هذا يسوغ لهم مثل هذه التحالفات التي انتشرت بمسميات مختلفة في كثير من الأقطار!

وها أنا أبين حقيقتها ومناقضتها للتوحيد؛ مع تجدّد دعوات هؤلاء المفتين المفتونين؛ لاستنساخ هذه التحالفات الكفرية؛ ضد من يصفونهم بالبغاة وتارة بالخوارج تلاعبا منهم بدين الله، وجعله مطيّة لرغباتهم وأهوائهم؛ وخيانة منهم في التوقيع عن رب العالمين.

وقد بيّنت سابقا أن الناظر بعين البصيرة إلىٰ واقع هذه الدروع والتحالفات وحقيقتها؛ يرىٰ أن من الكذب والتزوير توصيفها بالاستعانة؛ لتنزيل بعض أقاويل العلماء الإستثنائية المشروطة عليها!

وأن حقيقة هذه الدروع والتحالفات؛ أنها تعاون ومظاهرة ومناصرة للكفار علىٰ المسلمين، بل وفي بعض الحالات تبعيّة ذليلة تحت إمرة الكفار

وتوجيههم، ومع ذلك فسنتنزّل مع هؤلاء المفتين المزوّرين؛ ونناقشهم في موضوع الإستعانة بالكفار علىٰ المسلمين! كي نُظهر عوار استدلالاتهم؛ ونفضح تلبيسهم وتدليسهم.

بداية..

إعلم أن الأصل المقرّر عند أهل الإسلام؛ أنه لا يجوز الاستعانة بالكافر علىٰ المسلم؛ لأنَّ ذلك نوع من تسليط الكافر علىٰ المسلم؛ وقد نهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك؛ فقال بصيغة الخبر الدال علىٰ الطلب: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فلا يحل لمسلم أن يجعل للكفار سبيلا علىٰ المسلمين؛ ولا يجوز تسليط كافر علىٰ مسلم.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يجوز لأهل العدل عندي أن يستعينوا علىٰ أهل البغي بأحدٍ من المشركين؛ ذمي ولا حربي، ولو كان حكم المسلمين الظاهر؛ ولا أجعل لمن خالف دين الله، الذريعة إلىٰ قتل أهل دين الله» الأم **(٤/ ٢٣٢)**

- وتأمل إلىٰ قوله (لأهل العدل) فكيف إن كانوا من أهل المشاريع المنحرفة وأنصار الحكام العلمانيين ومجاهدي الإسلامقراطية؟

- وتأمل إلىٰ تشديده في قوله: (ولو كان حُكم المسلمين الظاهر)! فقد نَسَف فيه شرط من جوّز ذلك؛ وقوَّضه من القواعد.

ولا تعجب من تشديدنا في هذا فقد سبقنا بذلك أئمة.

- وتأمل لورعه في جملته الأخيرة: (ولا أجعل لمن خالف دين الله؛ الذريعة إلىٰ قتل أهل دين الله)

ثم انظر لأراذل المفتين لدروع الصليب كيف مات هذا الورع عندهم

وقال ابن حزم: «وأما من حملته الحمية من أهل الثغر من المسلمين فاستعان بالمشركين الحربيين، وأطلق أيديهم علىٰ قتل من خالفه من المسلمين أو علىٰ أخذ أموالهم أو سبيهم؛ فإن كانت يده هي الغالبة، وكان الكفار له كأتباع، فهو هالك في غاية الفسوق، ولا يكون بذلك كافرًا؛ لأنه لم يأت شيئًا أوجب به عليه كفرًا؛ قرآنٌ أو إجماع.

وإن كان حكم الكفار جاريًا عليه فهو بذلك كافر علىٰ ما ذكرنا». أهـ المحلىٰ

ويشير ابن حزم بقوله: «علىٰ ما ذكرنا» إلىٰ قوله: «من لحق بدار الحرب مختارًا محاربًا لمن يليه من المسلمين فهو بهذا الفعل مرتد، له أحكام المرتد كلها». المحلىٰ (١١/ ١٩٩، ٢٠٠)

فليتأمل طالب الحق حال الفصائل التي تقاتل مع التحالف الدولي أو تحت مظلة طيرانه أو تنسق معه في دروع الصليب ضد مخالفيها من المسلمين ولينظر إلىٰ ذلِّها! وما تمخّضت عنه المناطق المحررة في شتىٰ البلاد! وليتأمل حكم مَنْ هو الجاري والمهيمن فيها!

وهل الكفار المستعان بهم لهؤلاء المستعينين كأتباع! أم هم الأتباع والأحذية لهم؛ ليعلم من أي القسمين الذين ذكرهما ابن حزم هم!

وقال الشوكاني: (وأما الاستعانة بالكفار فلا تجوز علىٰ قتال المسلمين؛ لأنه مِنْ تعاضد الكفر والإسلام علىٰ الإسلام، وقُبْح ذلك معلوم، ودفعه بأدلة الشرع لا تخفىٰ) أهـ

- وتأمل تعليله بقوله (لأنه مِنْ تعاضد الكفر والإسلام علىٰ الإسلام)

وهل يبقىٰ إسلام بعد تعاضده علىٰ الإسلام؟

فهذا هو الأصل ولذلك ذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة إلىٰ عدم جواز الاستعانة بغير المسلمين في قتال البغاة والخوارج من المسلمين.

قال القرافي من المالكية في قتال أهل البغي: (ولا يُقتل أسراهم ولا تُغنم أموالهم ولا تسبىٰ ذراريهم، ولا يُستعان عليهم بمشرك)

وقال الصاوي: (ولا يُستعان عليهم بمشرك ولو خرج من نفسه طائعًا)

وقال النووي من الشافعية: (لا يجوز أن يُستعان عليهم بكفار؛ لأنه لا يجوز تسليط كافر علىٰ مسلم؛ ولهذا لا يجوز لمستحق قصاص أن يُوكّل كافرًا باستيفائه؛ ولا للإمام أن يتخذ جلادا كافرًا لإقامة الحدود علىٰ المسلمين)

وتأمل تركيز العلماء علىٰ عدم جواز (تسليط كافر علىٰ مسلم!) وتحذيرهم من ذلك وتعظيمه!

وقارن ذلك بتسهيل مفتي الضلالة وتهوينه وتسويغه للجماعات المقاتلة في شتىٰ البلاد حتىٰ جعلوهم أداة يستعملها الكفار في مآربهم!

وتأمل قوله (ولهذا لا يجوز لمستحقّ قصاص أن يوكّل كافرًا باستيفائه، ولا للإمام أن يتخذ جلادا كافرًا لإقامة الحدود علىٰ المسلمين) أهـ

فلا يجوز الاستعانة بالكافر لقتل مسلم قاتلٍ أو زان محصنٍ أوقاطع طريقٍ؛ فكيف بمن مكّنهم مِن قتل المجاهدين وأسرهم وإذلالهم واستعان به عليهم، بل حقيقة فعله عند التدبر مظاهرة للكفار علىٰ المسلمين.

وقال ابن قدامة: (ولا يستعين علىٰ قتالهم -أي البغاة- بالكفار بحال ولا بمن يرىٰ قتلهم مدبرين) أهـ

تأمل إلىٰ قوله (بحال) و(لا بمن يرىٰ قتلهم مدبرين).

يعني لو كان مسلما ويتجاوز الطريقة الشرعية في قتالهم؛ لم يَجُزْ الإستعانة به علىٰ البغاة!

فهل العلمانيون والمرتدون والصليبيون والناتو يقاتلون البغاة أو الخوارج بطريقة شرعية!

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله: «وأما استنصار المسلم بالمشرك علىٰ الباغي، فلم يقل بهذا إلا من شَذَّ واعتمد القياس، ولم ينظر إلىٰ مناط الحكم، والجامع بين الأصل وفرعه. ومَنْ هَجَم علىٰ مثل هذه الأقوال الشاذة، واعتمدها في نقله وفتواه، فقد تتبّع الرخص، ونَبَذ الأصل المقرر عند سلف الأمة وأئمتها، المستفاد من حديث الحسن، وحديث النعمان بن بشير ; وما أحسن ما قيل:

والعلم ليس بنافعٍ أربابه ... ما لم يفد نظرًا وحسنَ تبصرِ»

[الدرر السنية ٨/ ٣٦٧]

هذا هو الأصل المقرر، وما استدل به المفتون المفتونون من كلام بعض أهل العلم إنما هو استثناء للضرورة قيّدوه بشروط ثقالٍ؛ ميّعها وأهملها المفتونون

فتعالوا فلننظر إلىٰ ما اتكأوا عليه مِنْ نَقلٍ عن بعض الحنفية؛ ولنتدبّر ما اشترطه أولئك الحنفية؛

ثم لننظر إلىٰ تلاعب وإغفال مفتي الدولار له:

والشروط التي اشترطها الحنفية؛ بعضها مُتعَلِّق بالمستعين، وبعضها بالمستعان به، وبعضها مُتعلِّق بالواقع والزمان والحال.

وإليك بدايةً النص الذي فرحوا وهشّوا وبشّوا له؛ وطالما تناقلوه واحتجّوا به:

قال السرخسي الحنفي: (وإن ظهر أهل البغي علىٰ أهل العدل حتىٰ ألجأوهم إلىٰ دار الشرك فلا يحل لهم أن يقاتلوا مع المشركين أهلَ البغي؛ لأن حكم أهل الشرك ظاهر عليهم ولا يحل لهم أن يستعينوا بأهل الشرك علىٰ أهل البغي من المسلمين إذا كان حكم أهل الشرك هو الظاهر، ولا بأس بأن يستعين أهل العدل بقوم من أهل البغي وأهل الذمة علىٰ الخوارج إذا كان حكم أهل العدل ظاهرًا لأنهم يقاتلون لإعزاز الدين، والاستعانة عليهم بقوم منهم أو من أهل الذمة كالاستعانة عليهم بالكلاب) أهـ

فقد اشترطوا أن يكون (حكم أهل العدل ظاهرا)

- فأين ظهور حكم أهل العدل مع هيمنة الناتو والداعمين من طواغيت العرب والعجم

- وأين ظهوره عند الفصائل التي تعطّل تطبيق الشرع بحجة الإستضعاف وعدم التمكين وتعد العالم بدولة تعددية وبأن تكون ديمقراطية!

وقد شهد عليهم كثير من الثقاة أن الله يسب ورسوله ودينه في مناطقهم التي يسيطرون عليها فيتركون الساب بدعوىٰ عدم التمكين.

وعند حاجتهم للاستدلال بكلام الحنفية أعلاه يدّعون أنهم هم المسيطرون علىٰ الأرض وأن حكم الإسلام هو الظاهر

فإما أنهم كاذبون بالأولىٰ أو أنهم كاذبون بالثانية

كما اشترط النص أعلاه علىٰ المستعين بالكفار علىٰ الخوارج؛ أن يكون (من أهل العدل)

فرخصة الحنفية هذه وتجويزهم الإستثنائي بشروطه المذكورة؛ هو لأهل العدل وليس لأنصار العلمانيين، ولا لأهل التجهّم المجادلين عن

الطواغيت، ولا للمعطلين لأحكام الشريعة الممتنعين عن تطبيقها الذين يعدون بأن يردوا اختيار نوع الحكم عند انتصارهم لاختيار الشعب!.

ولا للموَجَّهين من قبل كفرة الحكام، ولا لطلاب الديمقراطية وأصحاب المشاريع المنحرفة الذين يتولون الكفار علىٰ المسلمين؛ فهؤلاء جميعا ليسوا من أهل العدل قطعا؛ بل فيهم من هم من أهل الردة والباطل والنفاق والفسق والفجور كل بحسبه؛ وهذه الفتوىٰ الحنفية ليست لهم؛ ولا تشملهم؛ ولا نعمة ولا كرامة.

وعلىٰ فرض أنهم أهل عدل فأين ظهور حكم الفصائل علىٰ من يستعينوا بهم من الأنظمة العلمانية أو الصليبية أو الطواغيت!؟

أيقال أن حكمهم هو الظاهر علىٰ حكم هؤلاء الكفار وهم تبع لهم؟ لا يزعم ذلك عاقل فضلا عن عالم فاهم.

ويكفي المنصف أن يتأمل حال الجنود المقاتلين مع التحالف وجيش العلمانيين، وينظر في المناطق التي حرّرها درع الفرات مثلا في الشمال السوري وحالها وحكمها وما آلت إليه؛ ليعرف أنّ الهيمنة والحكم الظاهر ليس لهؤلاء الذين هم ما بين مستعمل وعميل.

ثم أين هذه الصفة التي رخصوا لأجلها لأهل العدل بهذا الإستثناء المشروط وهي قولهم (لأنهم يقاتلون لإعزاز الدين)

أين هذه الفصائل المنحرفة منها!؟

- أيُقاتِل لإعزاز الدين؛ من يمجِّد العلمانية ويجادل عن الحكام المعطلين للشريعة وجيوشهم؟

- أيُقاتل لإعزاز الدين من يسعىٰ للحكم بالديمقراطية والتشريع وفقا لاختيار الشعب؟

- أيقاتل لإعزاز الدين من يسمع مسبة الدين في مناطقه المحررة فلا يغضب لها، ويسمع مسبة فصيله وأميره فيعتقل ويعذب ويقتل!

ثم تأمل إلىٰ وصف المستعان بهم هنا بأنهم (مِنْ أهل الذمة) فهل جيوش العلمانيين والصليبيين والتحالف؛ أهل ذمة عند فصائل درع الفرات يدفعون لهم الجزية عن يد وهم صاغرون!

أم أنّ الأذلاء الصاغرين هم تلك الفصائل؟

وتأمل إلىٰ وصف الاستعانة المُرخّص بها في هذه الحالة الإستثنائية بأنها (كالاستعانة عليهم بالكلاب)

فهل جيوش العلمانيين والصليبين والتحالف وغيرهم ممن يُستعان بهم علىٰ المسلمين اليوم عند المستعين بهم كالكلاب أم كالأسياد؟

ولو قلنا أنّ الفصائل المستعينة بهم هي التي كالكلاب عندهم ما ابتعدنا عن الصواب.

تنبيه: إذا تأملت هذه الشروط والتشديدات عند من ذكر هذا الإستثناء؛ علمت تهافت قول من قال: (لم يقل أحد من المخالفين للحنفية بكفر من قال بذلك أو عمل به، فلم يقل أحد من العلماء أن الحنفية كفروا بقولهم بهذه المسألة، أو قالوا كفرًا، أو قولهم يفضي إلىٰ الكفر)

فبدهي أن لا يقول بهذا عالم عارف بشروطهم الثقال التي ضيّقوا بها هذا الباب.

بخلاف الصور التي نناقشها في واقع اليوم كدرع الفرات والبنيان المرصوص والقتال مع حفتر أو مع الصليبيين أو مع العلمانيين ضد المسلمين فليس لهذه الصور الكفرية من قول الحنفية نصيب ولا قلامة ظفر.

فمقايستها بقول الحنفية قياس باطل لم يستوفِ شروطه؛ ومحاولة إلزام من كَفّر درع الفرات؛ بتكفير الأحناف أو تسويغ هذه الدروع الكفرية لعدم تكفير العلماء للحنفية رغم البون الشاسع بين المسألتين؛

فهذا في الحقيقة تهافتٌ وزَلَل، وضلالٌ وخَطَل.

ولذلك فقد قال شيخنا حمود بن عقلاء الشعيبي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه القول المختار في حكم الاستعانة بالكفار ص (٨٤): (وقد ذهب بعض العلماء إلىٰ أن من صور الاستعانة بالكفار علىٰ أهل البغي ما يكون كفرًا) أهـ.

ولم يصف من كفّر تلك الصور بالتشدّد؛ ولا أنكره عليهم؛ ولا سمّاهم بالخوارج؛ كما يفعله المفتون المفتونون

فشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ لا يخفىٰ عليه ما أفتىٰ به مبرزو علماء نجد في أواخر الدولة العثمانية من كفر من استنصر بها وبولاتها وعساكرها علىٰ خصومه من المسلمين.

ولم يكن عساكرها يومئذ في حلف الناتو ولا صرّح سلاطينها حينها بتبني العلمانية؛ أونهجٍ كنهجِ أتاتورك

ومع ذلك كتب مبرزو علماء نجد في تكفير من استعان بهم علىٰ المسلمين في نجد؛ فألّف الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتاب (الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك) الذي حشد فيه الدلائل العديدة علىٰ كفر من استنصر بعساكر الأتراك يومئذ علىٰ المسلمين ولو لم يستحل ذلك، ولم يكن يحبهم.

كما كتب الشيخ حمد بن عتيق كتابه (سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك)

وكان سبب تأليف هذين الكتابين هو تكفير هؤلاء المشايخ لعبد الله بن فيصل آل سعود ومن معه لاستنصارهم بوالي بغداد التابع للدولة العثمانية

علىٰ أخيه سعود بن فيصل الذي هزمه وسلب منه الملك؛ فهرب عبد الله إلىٰ والي بغداد مدحت باشا واستنصره علىٰ أخيه اعتمادا علىٰ فتوىٰ كفتوىٰ درع الفرات من شرعي! كشرعيي الضلالة اليوم؛ اسمه (محمد بن عجلان) وهذه الفتوىٰ سماها الشيخ عبداللطيف بن عبد الرحمن (بحبالة الشيطان) فأرسل والي بغداد التابع للدولة العثمانية آنذاك؛ مع المستنصر به جيشا عام ١٢٨٨هـ فتغلّب علىٰ أهل نجد وقتل وأسر من أسر منهم.

ويستنكر الشيخ عبد اللطيف هذه الفتوىٰ ويصفها بالخيانة لله ولرسوله ﷺ، ويصف أهلها بالجَهلة حيث يقول: (وهذا من جنس ماحصل من هؤلاء الجهلة في رسالة ابن عجلان وما فيها من الإستدلال علىٰ جواز خيانة الله ورسوله وتخلية بلاد المسلمين وتسليط أهل الشرك عليها وأهل التعطيل والكفر بآيات الله وغير ذلك من ظهور سلطانهم وإبطال الشرع بالكلية؛ بمسألة خلافية في جواز الاستعانة بمشرك ليس له دولة ولا صولة ولادخل له في الرأي. .) أهـ

فتأمل إلىٰ فقه الشيخ وتحقيقه وسداد رأيه؛ وانتقاده لمن لم يُفرِّق بين الاستعانة بالمشرك الذي ليس له دولة ولا صولة ولا تَسلُّط وتَدخُّل بالرأي؛ وبين من كان له دولة وصولة وتسلط وتدخل؛ وافهم هذا ولا يتلاعب بك مشايخ الدولار الذين استغلوا المجاهدين ووصلوا علىٰ ظهورهم إلىٰ كراسي الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله ووالوا الكفار وسلطوا الفجار علىٰ الأخيار.

ولقد رأىٰ الشيخ عبد اللطيف هذه الاستعانة رِدّة كما رآها الشيخ ابن عتيق والشيخ سليمان الذي قتلته عساكر الأتراك بعد أن أسروه وقيّدوه؛ وضربوا علىٰ مسامعه بالمعازف إغاظة لهذا الوهابي التكفيري كما يرونه؛ ثم أطلقوا عليه مدافعهم؛ ولم تكن العلمانية قد ضربت بعد أطنابها في تركيا

ولا كان جيشها قد دخل حلف الناتو؛ نعم انتشر فيها شركيات القبور، وكانت بدايات تحكيم القوانين، وما تسببت به من مفاسد.

فكان هؤلاء المشايخ يرون كفر الدولة؛ ولذلك أنكر الشيخ عبد اللطيف وأغلظ علىٰ (عبد الله بن فيصل) مكاتبته للدولة التركية، واستنصاره بها علىٰ المسلمين، واستجلابها إلىٰ ديار المسلمين!

يقول الشيخ عبد اللطيف: (فخاطبته شفاها بالإنكار والبراءة وأغلظت له بالقول أن هذا هدم لأصول الإسلام، وقلع لقواعده .. فأظهر التوبة والندم وأكثر الاستغفار؛ وكتبت علىٰ لسانه لوالي بغداد: [أن الله قد أغنىٰ ويَسّر وانقاد لنا من أهل نجد والبوادي ما يحصل به المقصود إن شاء الله؛ ولا حاجة لنا بعساكر الدولة]

وتَبرّأ مما جرىٰ فاشتبه عليّ أمرُه؛ وتعارض عندي موجب إمامته ومبيح خلعه) أهـ. عيون الرسائل (٢/ ٩٢٠)

فتأمل لهذه الواقعة؛ وكيف كانت سببا لتصنيف أشهر الكتب النجدية آنذاك؛ والتي تُكَفّر من استنصر بالدولة التركية (الرجل المريض) وعساكرها علىٰ المسلمين؛ فكيف بالدولة التركية العلمانية الواضحة اليوم وجيش الناتو وقواعده التي تُدك منها بلاد المسلمين!؟

ولتعرف أخيرا حقيقة ما يفعله بعض المتلوّنين من الشرعيين الذين لا زالوا يحاولون تهوين (حبالة الشيطان) في مسميات مختلفة كدرع الفرات وغيرها؛ والترقيع لمفتييها المفتونين؛ وذلك بتوصيف الخلاف في هذه المسائل الخطيرة؛ التي سُلِّطت بها سيوف المشركين علىٰ رقاب الموحدين؛ بأنه خلاف فقهي هيّن؛ يُعذر الضال المُضل فيه؛ ليعلموا أنهم قد مَيَّعوا بذلك أعظم مسائل التوحيد؛ وأوهنوا عراه الوثقىٰ.

فليَتوبوا وليُراجعوا وليَصطفّوا مع التوحيد وأنصاره.

وليبرأوا من (حبالة الشيطان) ومفتيها.

يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كُن في الجانب الذي يكون فيه الله ورسوله وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر) أهـ.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

الوقفة الرابعة والعشرون

توحيد الكلمة على كلمة التوحيد

من البديهيات التي يجب أن لا يماري فيها أي موحد جهادي يقاتل في سبيل الله؛ أنه ليس كل من حمل السلاح وقاتل فهو مجاهد في سبيل الله؛ ففي غزوة العسرة (تبوك) خرج منافقون بعضهم كَفَّره الله لاستهزائه بالله وآياته ورسوله ﷺ؛ وبعضهم تآمر في طريق العودة لقتل الرسول ﷺ وهؤلاء جميعا خرجوا في غزوة من أعظم غزوات الرسول ﷺ تخلّف عنها ثلاثة من خيار صحابة النبي ﷺ وقصتهم في براءة معروفة.

وهذا أمرٌ المفروض أنّه من المسلّمات والبديهيات عند أهل الإسلام بل وعند جميع العقلاء.

فهم يعرفون أنّ أنصار الطواغيت يحملون سلاحًا ويُقاتلون؛ في سبيل الطاغوت وبعضهم يُصلّي ويُربّي لحيته

وأنصارُ الديمقراطية والدولة العلمانية كذلك يحملون سلاحًا ويُقاتلون لإقامة دولتهم الكفرية وبعضهم يُصلي ويعمل أعمالا ظاهرها الصلاح!

وعملاء الأمريكان في كل مكان يحملون سلاحًا ويقاتلون لأجل الدولار وبعضهم يُصلي ويحمل لحىٰ!

ولا غرابة في ذلك فهذا أمر ذكره الله في محكم تنزيله فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾

وكذلك ليس كلّ من تَكَلّم عن إسلامية المعركة؛ أو صَبَغ قضية من قضايا الأمة؛ كقضية فلسطين أو ثورة شعب بصبغة إسلامية محبوب في ميزان التوحيد وويوالىٰ!

فالروافض وفي مقدمتهم إيران وحزبالة يجعلون قضية فلسطين قضية دينية إسلامية؛ ومع ذلك فلا يجوز أن يُحبّوا أو يُوالَوا أو يُمدحوا ويُغرّ بهم الناس

وكذلك تفعل الفصائل الفلسطينية الموالية لإيران وحزبالة في فلسطين؛ فقضيّة فلسطين عندهم قضية إسلامية كما يزعمون ويُصَرِّحون؛ بل ويُقَدّمون لها عشرات بل مئات القتلىٰ.

وكذلك تفعل كثير من الأنظمة المسماة إسلامية زورًا وكذلك يفعل علماء السلاطين

وكذلك يفعل كثير من المشايخ والمشاهير في جعل فلسطين والقدس قضية إسلامية.

فالأصباغ والقشور الإسلامية التي يستعملها هؤلاء ليست كافية وحدها لتُصنّفهم كأولياء للمسلم يُحَبّون ويُوالون؛ دون أن يخلعوا موالاتهم لأنظمة الكفر ويجتنبوا ما يرتكبونه أو يدعون إليه من نواقض الإسلام

فالولاء والبراء من أوثق عرىٰ الإيمان؛ وهما مرتبطان بالتوحيد ومن أهم لوازمه.

فالقاعدة الراسخة والجليلة في موضوع القتال والجهاد بيّنها لنا الله تعالىٰ حين قَسَّم المقاتلين إلىٰ قِسمين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾

وقعَّدَها لنا رسولنا الكريم ﷺ حين أعلن بأنّ من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو المجاهد في سبيل الله.

وكلمة الله هي (لا إله إلا الله) التوحيد

فمن قاتل وجاهد ودعا وكتب وخَطَب ليُحَقق توحيد الله في كل أبوابه ومن ذلك تجريد وتفريد باب الحكم والتشريع لله وحده فهو المجاهد في سبيل الله؛ وهو وأمثاله من يستحقون بأن يُحبُّوا ويُوالوا ويُوصفوا بأنصار الشريعة والتوحيد؛ وهؤلاء هم من يكثر سوادهم المسلم وينحاز إلىٰ صفهم ويدعو إلىٰ التوحد معهم علىٰ كلمة التوحيد.

وهذا لا يُعَكّر علىٰ دعوة الأمة عمومًا للجهاد في سبيل الله أو دفع الصائل عن أنفسهم وحريمهم وأموالهم؛ ومن ذا الذي يمنعهم من ذلك مهما كانت نيتهم فهذا شيء؛ وخلط المصطلحات الشرعية وتمييع فرقان التوحيد شيء آخر.

ولكي تستوعب تدقيقنا وتشديدنا في هذه الأبواب تأمل إلىٰ دِقة القرآن وفرقانه حين فَرَّق في المسميات بين خصوصية الجهاد في سبيل الله وتقديمها وتقديم الدعوة إليها؛ وبين عموم دعوة الناس إلىٰ دفع الصائل؛ حيث قال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ﴾

فالقرآن يعلمنا أن ندعو الأمة كلها لتصحح بوصلتها لتجعل جهادها وقتالها (في سبيل الله) أي لغاية تحقيق التوحيد وتحكيم الشريعة؛ فمن لم تَرْتَقِ نفسه إلىٰ هذا المستوىٰ؛ لا يُمْنع من القتال لدفع الصائل تحت أي نية (أو ادفعوا)

وإلىٰ الذين ميعوا الجهاد ودعوا إلىٰ تحلله من ضوابط المنهج الحق الذي يربطه بالتوحيد؛ وذلك برميهم لنا بالمثالية أو الطوباوية وتصعيب الجهاد حين دعوناهم إلىٰ تصحيح منهج فصائلهم وجماعاتهم وضبط

بوصلتهم وتنقية رايتهم وتوضيح غايتهم بجعل تحكيم الشريعة ثمرة هذا الجهاد والقتال.

نذكرهم بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «الطريقة الوسطىٰ التي هي دين الإسلام المحض جهاد من يستحق الجهاد، كهؤلاء القوم المسؤول عنهم مع كل أمير وطائفة هي أولىٰ بالإسلام منهم، إذا لم يمكن جهادهم إلا كذلك، واجتناب إعانة الطائفة التي يغزو معها علىٰ شيء من معاصي الله بل يطيعهم في طاعة الله ولا يطيعهم في معصية الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديمًا وحديثًا، وهي واجبة علىٰ كل مكلف، وهي متوسطة بين طريق الحرورية وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشئ عن قلة العلم، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقًا وإن لم يكونوا أبرارًا»

هذه الوسطية لا تعجب بعض الناس ويرونها تشددا لأنها تبطل تمييعهم للتوحيد وتحللهم من عراه الوثقىٰ حين يقاتلون تحت راية أمراء منحرفين أو مشبوهين لا يجعلون التوحيد عندهم أولا ويدعون الناس للدخول في طاعتهم رغم أنهم يصرّحون بأن غايتهم إقامة الدولة الديمقراطية أو يجمعون الناس ويوحدونهم تحت غاية اسقاط الدكتاتور وحسب؛ دون اعتبار للتوحيد ولا يهم ما يأتي بعد إسقاطه ولو أدىٰ ذلك إلىٰ استبدال طاغوت بالي بطاغوت ملمع ديمقراطي!

ولذلك يعدّون كل من قاتل الدكتاتور معهم مجاهدا! وهذا تعريف مائع غير مانع من دخول العلماني والوطني والديمقراطي والعميل للدول الداعمة فكل هؤلاء فيهم من قاتل ويقاتل الدكتاتور؛ وهم لا يقاتلون لإقامة التوحيد

ولا لتحكيم الشريعة؛ فكيف يسمونهم مجاهدين ويمنحونهم لقب الشهداء حين يفطسون تحت نية إقامة الدولة الديمقراطية!

إن القتال خادم للتوحيد ولا يمدح الخادم إلا حين يخلص لمخدومه؛ ولا يجوز أن يعظم الخادم علىٰ المخدوم فيصير المعيار والميزان هو القتال ولو تحلل من عرىٰ التوحيد الوثقىٰ!

ولا يصح أن يجمع الناس ويتوحدوا علىٰ القتال دون توحيد

بل يجب أن يكون توحيد الكلمة علىٰ كلمة التوحيد

وحين تهمل هذا الأمر العظيم والمهم؛ فلا تبك ولا تتحسر علىٰ ثمرات جهادك الفاسدة ونتائج تضحياتك الضائعة .. فيداك أوكتا وفوك نفخ.

الوقفة الخامسة والعشرون

«لا يضرهم من خالفهم»

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه وبعد . . فقد صحّ عن النبي ﷺ في الحديث المتواتر المروي عن بضع عشر صحابيا أنه قال في وصف الطائفة القائمة الظاهرة علىٰ أمر الله: (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، وفي رواية: ظاهرين علىٰ أمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم ظاهرون علىٰ الناس).

وقد تكلمنا مرارا وتكرارًا علىٰ هذا الحديث العظيم وعن الطائفة الظاهرة المنصورة جعلنا الله من أهلها، وتكلمنا عن معاني ظهورها وقيامها بالدين، وعن أهم صفاتها في كثير من كتاباتنا، لكننا سنتوقف اليوم مع صفة عظيمة مهمة من هذه الصفات نلفت انتباه الدعاة والمجاهدين إليها وننبههم عليها . . خصوصًا بعد أن رأينا من طوائف المسلمين من فرّط أو قصّر في هذه الصفة، ألا وهي قوله ﷺ: **(لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم)**.

فالتأثر بالمخالفين والتضرّر بالمخذلين آفة ومرض خطير له صور وتداعيات شتىٰ، وقد نخر في جماعات الأمة وطوائفها، وصار عائقًا من عوائق نهضتها وعقبة في سبيل نجاح جهادها وفلاح دعاتها؛ الأمر الذي يستدعي وقفة تنبيه وتذكير، ذلك أن من اختار اللحاق بدرب الطائفة القائمة بدين الله الظاهرة علىٰ أمر الله، فإنه لن يقوم بأمر هذا الدين حق القيام ولن

يظهره حق الظهور بأشرق صوره وكما يحب ربنا ويرضىٰ حتىٰ يتحرر من آفة التضرر بالمخالفين ويتطهر من جميع صورها التي تحرفه أو تصدّه عن صراط الطائفة الظاهرة المنصورة ومنهجها القويم وسبيل ساداتها المستقيم..

لذلك ولأجل خطورة هذه الآفة علىٰ الدعاة والمجاهدين وتنوّع هذا المرض وتشعّب آثاره في واقع اليوم؛ سأتناول في هذه الوقفة -باختصار أرجو أن لا يكون مخلًا- هذا الموضوع وسأعالجه بالنظر إلىٰ:

- أقسام المخالفين أو المخذلين الذين يسعون في الإضرار بالدعاة والمجاهدين ليكون المجاهد منهم علىٰ بصيرة..

- والأدوات والوسائل والأساليب التي تمارس في الإضرار بالدعاة والمجاهدين وفي تخذيلهم..

- وأنواع التضرر بالمخالفين للتنبيه عليها والتحذير منها ومن ثم إمكان علاجها..

- لأعرج علىٰ العلاج الناجع والمخرج من هذه الفتنة أعاذنا الله منها..

فاعلم أن المتأمل لروايات الحديث يتنبه إلىٰ أن العاملين علىٰ الإضرار بالدعاة والمجاهدين ما بين مخذل ومخالف..

● أما المخذلون فأقسامهم كثيرة وأساليبهم ووسائلهم في الإضرار بالدعاة والمجاهدين متنوعة..

- فمنهم طواغيت الجن والإنس يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول غرورا، وعلىٰ رأسهم سيدهم الشيطان الذي أقسم ليغوين بني آدم وليحرفنهم عن الصراط ليوردهم معه الجحيم:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

فتأمل اجتهاد عدو الله في حرف ابن آدم عن الصراط وتنوع سبله ومداخله عليه فهو يجتهد في ذلك من كل وجه وسبيل، ولا يهمه إذا تمكن من إضلال الداعية أو المجاهد أو حرفه إلىٰ أي المزالق سواء الشهوات المزلة أم الأهواء المضلة، إلىٰ الغلو أم إلىٰ التقصير، إلىٰ الإفراط أم إلىٰ التفريط، فالمهم عنده أن يحرفه ويغويه عن صراط الله المستقيم وسبيله القويم..

وكما في الحديث أن رسول الله ﷺ خط خطًا ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما، وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

وسئل ابن مسعود عن الصراط المستقيم، فقال: تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة، وعن يمينه جوادّ وعن يساره جوادّ، ثم رجال يدعون من مرّ بهم فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلىٰ النار ومن أخذ علىٰ الصراط انتهىٰ به إلىٰ الجنة، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾.. الآية.

والشيطان يتحيّن ضعف ابن آدم ويتأمل حاله ويشمه، فإن وجد فيه لينًا وتساهلا مال به إلىٰ التفريط والتقصير أو إلىٰ الشهوات والركون والقعود، وإن وجد فيه شدة أخذ بيده وحرفه إلىٰ الغلو والإفراط والأهواء، والمعصوم عباد الله المخلصين، الذين ليس لعدو الله عليهم سلطان؛ الذين يثبتون علىٰ ما تركهم عليه رسول الله ﷺ ويجتنبون تلك السبل والجواد المنحرفة، ويتحصّنون بكتاب الله العظيم ويعتصمون بحبله المتين.

- أما طواغيت الإنس من الحكام فيتعلمون أيضا من وليهم إبليس فيتحسسون أحوال الدعاة والمجاهدين ويتجسسون عليهم ويتفننون في وسائل الإضلال والتخذيل..

فخوفًا منهم علىٰ عروشهم وحماية لشهواتهم وولاء لأسيادهم في واشنطن ونصرة لإخوانهم في تل أبيب وغيرها تراهم يتعاونون ويتآمرون بشتىٰ السبل والوسائل والأساليب لأجل الصد عن سبيل الله وحرف الدعاة والمجاهدين والإضرار بهم وبدعوتهم وجهادهم، سواء بردهم عن دينهم بالكلية.

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾.

أو بصدهم عن دعوتهم وجهادهم وتخذيلهم عنها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أو بحرفهم عن منهجها القويم إلىٰ مهاوي الإفراط أو التفريط..

ولهم في ذلك طرق وأساليب شتىٰ..

فلا يتورعون عن استخدام أخس الوسائل في سبيل تحقيق ذلك، وتتنوع وسائلهم بين الترغيب والترهيب..

ابتداء من التآمر عليهم بالقتل أو السجن والتعذيب والتهديد والتخويف، وما رآه العالم من مشاهد في سجن أبي غريب لا شيء بالنسبة لما يجري علىٰ المجاهدين والدعاة في سجون طواغيت العرب..

وانتهاء بالتعاون الأمني والاستخباراتي الذي يتم بين الطواغيت وأنظمتهم المختلفة ضد الدعاة والمجاهدين لاعتقالهم وتسليمهم إلىٰ بلدانهم

الأصلية وإحباط جهادهم وردهم وصدهم أو حرفهم عن نهجه القويم، بما يصبّونه عليهم من وسائل الإجرام والتعذيب والتنكيل المختلفة . . والتي قد يتضرر بها بعض المجاهدين والدعاة بصور مختلفة . .

- سواء بالارتداد عند من جعل فتنة الناس كعذاب الله . . نسأل الله العافية . .

- أو بالتحول إلىٰ القعود والركون والتفريط واختيار مذاهب الإرجاء والركون إلىٰ الدنيا وتقديم حياة الدعة وإيثار السلامة بعد الانكسار تحت ضغط التعذيب والتنكيل والإهانة خصوصًا إن لم يكن قد تهيأ من قبل لبذل نفسه وعرضه وكرامته وإهانتها لأجل دين الله . .

- وقد يتحول إلىٰ الغلو أو الإفراط كردة فعل علىٰ إجرام أعداء الله وتنكيلهم في المسلمين، ويقابل تجاوزهم حدود الله في التعامل معهم في ساحات التعذيب وغيرها بتجاوزات متنوعة . .

- فربما انحرف البعض بسبب ذلك ولفقده التوازن والانضباط بحدود الشرع؛ إلىٰ مذاهب الغلو في التكفير بتكفير كل من يعمل في دولة الطاغوت أو كل من له علاقة به ولو كانت مداهنة أو مصانعة لا تصل إلىٰ الكفر، أو ربما تعدىٰ الحدود الشرعية في أعماله الثأرية بالمعاقبة بالعقوبات غير الشرعية بقتل من لا يستحق القتل من العصاة سواء بنسف وتفجير أماكن المعصية فوق أهلها أو بحرق المتبرجات أو قتل المشبوهات من النساء أو التساهل في القتال بتقصّد قتل النساء والصبيان ونحوهم ممن نهىٰ الشارع عن قتلهم . .

- أو يكون التضرر بذلك بترك البعض لبرامجهم الدعوية المفيدة والتحول علىٰ إثر ذلك الإجرام والقهر والاضطهاد الذي صبه الطواغيت

عليهم؛ إلىٰ ردود الأفعال الثأرية غير المدروسة وإلىٰ الأعمال الانتقامية كيفما كانت صورتها وشكلها. .

ويغفل هؤلاء الشباب لهول البلاء والأذىٰ الذي ذاقوه أن تلك الجرائم التي مارسها الطواغيت وأنصارهم في حقهم ما هي إلا جرائم متفرعة عن الجريمة الكبرىٰ التي ارتكبها ولا يزال يرتكبها أولئك الطواغيت في حق الدين والشريعة، وأن الثأر الحقيقي والناجع للدين والشريعة يحتاج كما يعلم أولو النهىٰ إلىٰ عمل دؤوب ومتواصل ضمن برنامج ناضج ومتكامل لا يهمل أو يفصم الدعوة عن الجهاد، وليس إلىٰ ردود أفعال آنية غير مدروسة. .

- ولقد رأيت من يترك العمل الدعوي ويفرغ ساحات بلاده من الدعاة ويحرّض علىٰ الهجرة بحجج من جنس ذلك، ولا أسخف منها، ينشرها بين الشباب، فقد زارني أحد الشباب بين يدي سفره منكرًا عليّ البقاء، متسائلًا كيف بإمكانه احتمال مداهمة المخابرات لبيته وعبثهم وتفتيشهم لخزانة الملابس ورؤيتهم لملابس زوجته الداخلية فيها. . !!

وتساءلت أنا: أولن يروها في شنطة ملابسها في المطار؟

فلا داعي للسفر إذن!! ثم علمت أن ذلك الشاب وغيره يستعملون هذه الحكاية لتهييج الشباب وحثهم علىٰ الهجرة من البلد منكرين عليهم المكوث فيها واحتمال ذلك وبلغني أن بعض من عوتب علىٰ ترك الدعوة والهجرة من البلد يعتذر بذلك أيضًا فتأمل التضرر بمثل هذه الأشياء وما ينجم عنه من اختيارات وردود أفعال غير مدروسة، ثم لا تعجب لتبعثر جهود الأمة وتخبط اختيارات الشباب، فهكذا يتم الاختيار!!

- ومثل ذلك ما يصدر عن الشباب من انفعالات واختيارات غير مضبوطة عندما تبلغهم أخبار قتل النساء والأطفال في فلسطين أو يسمعون

بأفاعيل الرافضة في العراق أو يشاهدون صور الإهانة والتعذيب في سجن أبي غريب وما يذكر عن اغتصاب العراقيات، فربما شطّ بعضهم في اختياراته القتالية كردة فعل لذلك فاختار ما يشتت دائرة الصراع أو يشوّه صورة الجهاد، ولا يراعي إمكانات المجاهدين ووجوب الحرص علىٰ وضعها في الأحظىٰ للإسلام والمسلمين وعدم المغامرة والمقامرة بها وبأرواح المجاهدين في اختيارات مرجوحة أو أعمال وردود أفعال عشوائية وغير مدروسة أو تستنزف إمكاناتهم في أعمال نكائية مبعثرة وغير مثمرة لا تراعىٰ فيها مصالح المسلمين ومصالح جهادهم وتمكينهم ولا يراعىٰ خطاب الناس علىٰ قدر عقولهم وتحديثهم بما يعرفونه من الدين فينفضّون لذلك من حول المجاهدين ويلتفون حول الطواغيت.

- أو يتساهل بالوسائل والآليات التي كان يتشدّد ويحتاط فيها من قبل، ويتحرر من الضوابط التي كان يشترطها قديما أو يتغافل عنها ويبرر تجاوزها . . وأقرب مثال عندي علىٰ هذا؛ العمليات التي يفجر بعض المجاهدين فيها أنفسهم بالعدو؛ فإن بعض من يراها إنما تجوز فقط للضرورة عندما لا يمكن دفع الصائل إلا بها تمامًا كمسألة الترس وضوابطها . . تراه تحت وطأة ما تقدم أو نحوه يتوسع فيها ويترخص في زج أغلىٰ إخوانه فيها لقتل حذاء من أحذية الحكم أو وزرائهم أو بعض الشرطة أو الجند الذين يمكن التوصل إلىٰ قتلهم بغير هذه الطريقة ولا ينطبق عليهم بحال شيء من الشروط والضوابط التي يدين الله بها . .

بل ربما توسع في ذلك ففعله في مساجد الرافضة أو المطاعم والأماكن العامة التي لا ضرورة من ورائها ولا تنكأ عدوًا . .

- والبعض يتضرر بما تقدم فلا تراه يراعي في جهاده الفوارق بين القتال في دار الكفر الأصلية التي جمهور أهلها كفار وبين القتال في دار

الكفر الحادثة التي جمهور أهلها ينتسبون للإسلام. .

ولا يرفعون رأسًا بمصلحة الجهاد ونقائه وأهمية اختيار الأنفع والأصلح والأحظىٰ للإسلام والمسلمين ولا يراعون المصالح والمفاسد في اختياراتهم. .

فالمسألة حقيقتها ردود أفعال ثأرية وحماسية غير منضبطة لا بشرع ولا بعقل أو نظر. .

❀ ❀ ❀

وأعوان الطواغيت في الكيد للدعاة والمجاهدين والسعي في الإضرار بهم ليسوا فقط جندهم وجلاديهم وعساكرهم ومخابراتهم ومباحثهم. .

- بل أيضا من أنصارهم وأعوانهم علماء السوء الذين يحسدون الدعاة والمجاهدين علىٰ ما آتاهم الله من فضله من عزة ورفعة رفعهم الله بها ببركة رفعهم لراية توحيده، وخفض أولئك الذين أخلدوا إلىٰ الأرض بتخلّيهم عنها وانحيازهم إلىٰ عسكر السلطان، وقد رأىٰ الناس كيف يُصَدّر أمثال هؤلاء في شاشات الفضائيات وتُسخّر لهم صفحات الجرائد السلطانية، وتُبذل لهم كافة الإمكانيات والامتيازات كي يشنوا غاراتهم علىٰ الدعاة والمجاهدين بشبه فاسدة ساقطة مستهلكة قد اجتلناها بفضل الله في كتاباتنا في سالف الأزمان، ويرمونهم بألقاب شنيعة يكرهها أهل الإسلام كالخوارج والفئة الضالة ونحوها من الأوصاف التي هم وأسيادهم أولىٰ والله بها كما فصّلنا في غير هذا الموضع. .

- ويمتطي هذا المركب أيضًا طائفة من جماعات التجهم والإرجاء من القاعدين والخوالف الذين انحازوا إلىٰ عدوة السلاطين والطغاة يدعون الناس إلىٰ الدخول في طاعتهم وموالاتهم بل ومبايعتهم والبراءة من دعاة

الحق والمجاهدين من أهل الطائفة المنصورة . . ويسعون في إضرارهم والتخذيل دونهم بإرهاب فكري وتهويل عقائدي إن فتشته وجدته من ميراث الجعد والجهم والمريسي وإخوانهم من أهل الزيغ والضلال . . ولذلك فرح بهم وأحبهم الطواغيت والملوك، وصدق النضر بن شميل يوم وصف الإرجاء بأنه دين يوافق الملوك يصيبون به من دنياهم وينقصون به من دينهم . . البداية والنهاية (١٠/ ٢٧٦).

بل أحبهم ووصفهم بأصحاب الإسلام المعتدل حتىٰ الأمريكان (ويقصدون المنبطح المنسحق تحت أقدامهم).

ولقد علمت في حبسي الأخير هذا أن أعداء الله وبإشراف من أوليائهم الأمريكان قد استعانوا ببعض أقطاب التجهم والإرجاء من الجزيرة وغيرها لإقناع الشباب بفكرهم الممسوخ وإنتاج طوائف وجماعات إسلامية ممسوخة تعمل تحت سمع وبصر الأمريكان والمخابرات العربية تستقطب الشباب إلىٰ صفوفها وتربيهم وتسخرهم لمحاربة الدعاة والمجاهدين والدفاع عن ولاة الأمور (الطواغيت) مقابل أموال طائلة وجوازات أمريكية ومساعدات واسعة وتأهيل استخباراتي وثقافي وديني ممسوخ، وينتقون لذلك ابتداء بعض الشباب من بلدان مختلفة من المتورطين ببعض التهم فيمنونهم بالخلاص من المحاكمات والسجون ويدخلونهم في تلك البرامج بين الترغيب والترهيب، والإغراء والتهديد . .

❊ ❊ ❊

- ومن أساليبهم أيضا في الإضرار بالدعاة والمجاهدين أنهم وفي مقابل إفساحهم المجال لعلماء السوء ودعاة الفتنة والتجهم والإرجاء فإنهم في مقابل ذلك يعملون علىٰ تغييب مشايخ أولئك الدعاة والمجاهدين

ومرجعياتهم العلمية ورؤوسهم الدعوية سواء بالقتل أو السجن والمطاردة كما هو مشاهد اليوم في كافة الأقطار، أو بمنعهم من استعمال وسائل الإعلام وحجبهم عنها ومنع كتاباتهم ومصادرتها في الوقت الذي تنشر فيه كتابات الأراذل من أهل التجهم والإرجاء وعلماء السوء بل وتطبع وتوزع بالمجان، ويعملون كما شاهدنا وشاهد الناس علىٰ إكراه المشايخ ورؤوس الدعاة والمجاهدين تحت القيد والأسر والتعذيب والضغط والتهديد والوعيد علىٰ إصدار بعض الفتاوىٰ والتصريحات المخذّلة والمناقضة للنهج السديد وإن عجزوا عن إصداراها صريحة؛ فلن يعجزوا عن التزوير والدبلجة والمسخ والترقيع..

- ويستعينون أيضا بالإعلاميين العملاء والصحفيين المرتدين والعلمانيين ونحوهم من كتاب الفتنة والقعود والخبال يسخّرون منابر صحافتهم وصفحات مجلاتهم لزخرفة باطل الطواغيت والطعن في الدعاة والمجاهدين ويصورونهم بأنهم فئة وشرذمة قليلون منبوذون وأن الأكثرية المصفقة والمطبلة مع الطاغوت وفي صفّه.. كما قال سلفهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ وكم رأينا هؤلاء الكتاب والصحفيين يُصدَّرون ويُبرّزون؛ ليعيبوا علىٰ الدعاة دعوتهم ويرموهم بالغلو والتكفير والخوارج ويطعنوا في المجاهدين وجهادهم ويستخِفُّون باختياراتهم وأعمالهم، ليضغطوا في هذا الاتجاه أو ذاك وليحرفوا المجاهدين عن نهجهم الذي يرضي الله ويسخط سادة أولئك الكتاب والصحفيين.. (وما ضر السحاب نبح الكلاب).

وربما تعمدوا تسليط الأضواء علىٰ بعض هفوات المجاهدين وأبرزوها وضخّموها ليصدّوا عن سبيلهم.. وربما روّجوا لبعض الجبهات أو لمّعوا

بعض الساحات المرجوحة والبعيدة ثمراتها عن أيدي أهل الإسلام، أو البعيدة عن عروش طواغيت أولئك الصحافيين ليصرفوا الشباب عمن يليهم من الكفار، أو يوجهوهم بذلك إلىٰ جبهات وميادين تتقاطع فيها المصلحة مع مصالح أسيادهم وأولياء نعمتهم من الطواغيت أو أسيادهم من اليهود والأمريكان..

مع أن في قوله تعالىٰ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ .. بيان صريح في أن أشد الأعداء للذين آمنوا اليهود وفي قوله سبحانه ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولم يقل «للمؤمنين» لأن التعبير بالإسم الموصول (الذين) يقتضي غالبا البحث عن السبب أي أن سبب العداوة هو الإيمان وليس شيئا آخر كالوطنية او نحوها.

وانا ممن استدل بهذه الآية كثيرا علىٰ عداوة الطواغيت والمشركين عموما للذين امنوا وأنهم كاليهود في العداوة علىٰ أقل تقدير؛ لكن المداخلة وعلماء السلاطين يقدمون الروافض والشيعة علىٰ اليهود في هذا ويحاولون تحريض الشباب علىٰ هذا العدو وصرفهم عن اليهود!

مع أن تقديم الله لليهود علىٰ غيرهم من الذين أشركوا بل وتسميتهم باسمهم دون سائر المشركين مع انهم يدخلون في عموم ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ يدل علىٰ خصوصية عداوتهم ويوميء بأن اليهود هم العدو الاول والدائم واللدود للمسلمين ثم بعدهم عموم المشركين الآخرين

فالنص علىٰ اسمهم مع أنهم داخلون في عموم ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ يوميء الىٰ خصوصية عداوتهم وتميزها علىٰ الاقل؛ فلو ذكر الله ﴿ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ وحدها لدخل اليهود فيهم دون أن يسميهم ﷻ فتسميتهم وتقديمهم لابد له من فائدة ودلالة بأنهم الأشد والأبرز عداوة للذين آمنوا

ومع ذلك يحاول الطواغيت المطبعون مع اليهود تخفيف عداوتهم؛ ويحاول علماء السلاطين وسلفية الجامية جعل الروافض وفرق اهل البدع كالاشاعرة -عند بعض المجانين- أشد عداوة وكفرا وأولىٰ بالجهاد من اليهود!

حتىٰ أخذته بعض الجماعات المتأثرة سلفيا وجذوريا بهؤلاء المشايخ وطبقته علىٰ ارض الواقع فقدمت قتال الروافض وعباد القبور ومن سموهم بالصحوات ونحوهم؛ علىٰ قتال اليهود فاهملوا بذلك قتال اليهود كليا ولو كانوا في مراحل معينة علىٰ حدودهم وبجوارهم!

وهؤلاء المشايخ السلفية السلطانية غير معذورين بذلك حتىٰ لو وجد في كلام السلف شيئ يؤيد فكرتهم فينبغي ان يراعىٰ انه ورد علىٰ صفة التغليظ في زمان كان اليهود فيه مستضعفين أو أهل ذمة ولا شوكة لهم ولا نكاية أو ضرر علىٰ أهل الإسلام كضرر الجهمية أو الروافض ونحوهم حين كانت لهم سيطرة أو صولة علىٰ عقول الخلفاء وقضاتها أو بعض أجزائها.

- ومن أساليبهم في الإضرار بالمجاهدين والدعاة ما يسمونه اليوم بتجفيف منابع التمويل، والتضييق علىٰ الدعاة والمجاهدين في أرزاقهم ومعايشهم ليحبطوا جهادهم ويحرفوهم عن خطه الأصيل، في الوقت الذي يغدقون فيه الأموال الطائلة علىٰ أحذيتهم وأذنابهم من علماء السوء والمتساقطين في حبائلهم من المفتونين من الدعاة..

وهذا الأسلوب الخبيث قد يحرف كثيرًا من الشباب عن دائرة الصراع ويورطهم في البحث عن مصادر تمويل بديلة ومشبوهة سواء بالركون إلىٰ بعض الأحزاب الضالة والطوائف المنحرفة أو بمحاولة الحصول علىٰ المال من خلال أعمال يغضون الطرف عن عدم شرعيتها ويتساهلون في مخالفاتها..

*** أما العاملون علىٰ الإضرار بالمجاهدين من المخالفين. .**

فمنهم جماعات الغلو والإفراط، الذين يعيبون علىٰ أهل الحق وسطيتهم، بل يكفرونهم لأجلها. وربما استحلّوا بذلك دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وجرّوهم وأشغلوهم بمعارك جانبية لا طائل تحتها . . والعاقل لا ينجر معهم إلىٰ ذلك ولا يتضرر بشغبهم. .

روىٰ ابن جرير وغيره أن رجلًا من الخوارج نادىٰ عليًا رضي الله عنه وهو في صلاة الفجر فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فأجابه علي وهو في الصلاة: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

- ومنهم المخالفون في المنهج والاختيار والاجتهاد؛ سواء أكانوا من القاعدين أم من المقاتلين.

فالقاعدون ينقمون علىٰ المجاهدين جهادهم ويعيبون عليهم نهجهم ويخذّلونهم عنه ببث الشبهات التي تفت من عضدهم، وتوهن صفهم، وتفرق جمعهم . . حتىٰ بلغ الأمر ببعض المشايخ، واأسفاه، أن تعاونوا مع الأنظمة في إقناع الشباب والضغط عليهم والإلحاح علىٰ استسلامهم والنزول علىٰ حكم الطواغيت الذي روّجت له الدولة الكافرة تحت مسمىٰ العفو عن الفئة الضالة. . !!

- ومنهم المقاتلون المصرّون علىٰ اختيارات مرجوحة خصوصًا أولئك الفصاميون الذين أشرت إليهم في (عقوق الدعوة) الذين ما يفتؤون يعيّرون الدعاة المخلصين بلزومهم برامجهم الدعوية التي هي جزء لا يتجزأ من مشروع الجهاد الجاد، ويستعملون معهم إرهابًا فكريا خاصًا من خلال رميهم بتهم القعود والتخلف ونحوها، ولا يراعون ظروف بلاد أولئك الدعاة

أو إمكاناتهم أو مراحل عملهم ودعوتهم، فربما أثروا علىٰ بعضهم وأضروا بهم من خلال ذلك الإرهاب والضغط المتواصل؛ فحرفوهم عن اختيارهم الأحظىٰ والأصلح لدين الله والأنفع من كثير من الأعمال القتالية المبعثرة التي يباهي بها أو يدعوا إليها بحماس أجوف أولئك الفصاميون، فيجرّونهم بذلك الضغط والحماس إلىٰ أعمال مرجوحة أو ردود أفعال ثأرية آنية غير مدروسة، فتنقلب كثير من الوسائل عندهم إلىٰ أهداف يشغلون الأتباع بل الأمة كلها بها، أو تصير الأهداف مبرِّرة للوسائل التي كانت قبل ذلك الحماس غير مبرَّرة ولا مقبولة، ويُغض الطرف عن اختيارات ويُتجاوز عن كثير من الممنوعات..

- وهذه آفة لم يتوقف التضرر بها علىٰ طائفة الشباب ذوي الأفق الضيق والاختيارات الحماسية أو السطحية بل تأثر بها وللأسف الشديد رؤوس ومشايخ ومرجعيات انساقوا خلف حماس الشباب الأجوف واختياراتهم السطحية أو الثأرية غير المدروسة..

وقد قيل لبعض الحكماء: (أي الناس أذل؟ فقال عالم يجري عليه حكم جاهل).

وهذه إحدىٰ الأثافي أن ينقلب الشيخ الموجِّه موجَّهًا ويصير تابعًا لا متبوعًا ومتأثرًا لا مؤثرًا ومطيعا لا مطاعًا، وتصبح المرجعيات تميل وتموج وتترنح تحت ضغط وحماس بل وأهواء الشباب الساذج..

رأيت هذا جليًا في مواقف وفتاوىٰ وتصريحات بعض مشايخ هذا التيار المبارك تجاه بعض الحركات القتالية الفلسطينية المتخبطة وعملياتها، وتأييدهم غير المتحفظ لها .. ورأيته في الاندفاع والانسياق والتوسع دون تحفظ والتأييد المطلق دون ضوابط للعمليات التي يسميها المخذلون انتحارية

ويسميها المتحمسون استشهادية، ونسميها نحن بالجهادية لكن بضوابط وشروط معلومة..

- ومن جنس ما قد يتضرر به بعض العاملين؛ تلك الرسائل الحماسية التي يبثها بعض رؤوس المجاهدين هنا وهناك يحرضون بها الشباب علىٰ اللحاق بخطهم القتالي ذي الطابع النكائي الثأري المجرد، ويعيبون فيها علىٰ الدعاة العاملين ثباتهم علىٰ برامجهم الدعوية وربما نعتوهم بالقعود بل والركون إلىٰ الدنيا، وحقيقة ذلك تقزيم للجهاد وتفريغ له من محتواه وبرامجه التي لا انفكاك له عنها إن كان يؤمل عليه تمكين للمسلمين في الأرض..

وقد قرأت مثل ذلك في بيانات بعضهم إثر بعض الأحداث في بلدانهم، كما قرأت وسمعت مثله بعد غزوات أيلول في واشنطن ونيويورك .. والتي رغم دفاعنا عن أبطالها وردنا علىٰ علماء السوء في طعنهم بها وتبرّيهم منها .. إلا أننا والحق يقال كنا نتألم وننظر بقلق بالغ لإطلاقات بعض مشايخ الجهاد وقادته في تصريحاتهم وبياناتهم وأشرطتهم التي صدرت إثر تلك الغزوات، والتي تابعهم عليها وقلدهم فيها بعد ذلك من نهج نهجهم في بلدان أخرىٰ من تعيير طلبة العلم ودعاة التوحيد وتنقّصهم بلزومهم لبرامجهم الدعوية..

وعندي أن هذا من ضعف الفقه والسطحية في التعامل مع الجهاد واختزاله في القتال النكائي المجرد، وعدم التعامل معه كمشروع متكامل يعمل علىٰ إعادة تمكين الأمة، ولو كانوا يتعاطون الجهاد علىٰ هذه الصورة الناضجة لراعوا ظروف المسلمين كلٌّ بحسب بلده، وما وصل إليه الدعاة من مراحل، وربما غلّبوا التركيز علىٰ بعض البلاد دون بعضها، أو رجّحوا بعض الجبهات دون أخرىٰ، أو بعض الأعمال والاختيارت دون بعضها،

تبعًا لما هو أحظىٰ وأنفع للإسلام والمسلمين، ولما دعوا الدعاة إلىٰ ترك دعوتهم ونقض غزلهم، ولاعتبروا جهود الدعاة والعلماء جزءا لا يتجزأ من المشروع الجهادي الناضج والمتكامل..

ولو كان الدعاة علىٰ وعي بذلك لما تضرروا أو تأثروا سلبًا بتلكم البيانات، أو غيرها من الظروف والتقلبات التي كثيرًا ما تتقلب أو تنقطع معها اختيارات وبرامج كثير من السطحيين الحماسيين..

أما أولو النهىٰ وبعيدو النظر فلا يضرهم من خالفهم .. (فالحرُّ حرٌّ وإن مسّه الضر)..

وعندما أثنيت في وقفة سابقة علىٰ أبطال غزوات نيويورك وواشنطن فإنما ركّزت علىٰ هذا الجانب المهم الذي تميّز به أولئك الأبطال أسأل الله تعالىٰ أن يجعل مثواهم الفردوس الأعلىٰ؛ فقد واصلوا عملهم الذي استغرق منهم سنوات عديدة ما بين التخطيط والتدريب والإرصاد والإعداد ولم يتضرّروا بتقلب الأحداث وتجددها من حولهم رغم سخونة كثير منها، فما انحرفوا عن نهجهم وغايتهم، ولا عطلوا برنامجهم أو نقضوا غزلهم .. كما فعل الكثيرون بعد أن بهتهم منظر البرجين بعد ذلك وهما ينهاران ...

وهو منظر كان بالنسبة لكثير من المضطهدين والدعاة والمجاهدين رائعًا ومروّعًا في الوقت نفسه، وآثاره علىٰ كثير من الدعاة والمجاهدين بعد ذلك كانت أيضا بعضها رائع وبعضها مروّع، أما الآثار الرائعة فلا تعنينا في هذه الوقفة.

- أما المروّعة، فمنها ما رأيناه من تضرر كثير من الدعاة وانكشاف أحوالهم كما قيل:

ستعلم إذا انجلىٰ الغبار   أفرس تحتك أم حمار

فإن كثيرًا ممن كان الشباب يحسن بهم الظن ممن كانوا يمسكون العصا من الوسط، ولا يكاد كثير من الناس يصنّفهم تصنيفًا واضحًا أو يعرف كنه حقيقتهم؛ تكشفوا وتكشفت أوراقهم..

فكما أن الطواغيت انحازوا جهارًا نهارًا إِلىٰ معسكر سيدهم بوش لما صاح بهم بعد تلك الغزوات: (إما معنا أو ضدنا..)

فكذلك أولئك المخلدون إلىٰ الأرض انحازوا إلىٰ معسكر السلطان أو إلىٰ معسكر الصد والتخذيل، وبرئوا من المجاهدين وانتكسوا علىٰ أعقابهم، وهو نوع من التضرر وخيم، نسأل الله العافية والسلامة..

- ونوع آخر من التضرر برز بعد تلك الأحداث وتضرر به بعض الدعاة بل رؤوسهم ومشايخهم ممن كان يلتف حولهم الشباب فيعلمونهم ويدرسون ويربّون ويعدون، وكانوا علىٰ خير عظيم يقدمونه للأمة ويعاينون ذلك ويذوقونه ويعرفونه؛ لم يتحملوا منظر البرجين المنهارين فانهارت معهما مشاريعهم الدعوية كلها .. وصار مثلهم كمثل القائل:

وكنت أرىٰ أن قد تناهىٰ بي الهوىٰ — إلىٰ غاية ما فوقها بي مطلبُ

فلما تلاقينا وعاينت حسنها — تيقنت أني إنما كنت ألعبُ

فانطلقوا لا يعرفون ماذا يعملون، ولا يدرون من هول الصدمة ما الذي يريدون؛ فتارة يستنفرون أتباعهم للحاق بأفغانستان بدعوىٰ نصرة المجاهدين هناك تحت قذائف الطائرات وصواريخ البارجات مع أنه ليس ثم مواجهة هناك ولا قتال وإنما هي حرب الجبناء عن بعد ومن خلف الأزرار، فنصرة أولئك الدعاة للمجاهدين في بلادهم التي تعج بالأعداء أنجع آنذاك وأوجع لأعداء الله لو كانوا جادين .. وتارة تراهم يفكرون باللحاق بالعراق لمجرد أن شاهدوا عملية في الفلوجة أو أخرىٰ في بغداد، وإذا أغلقت السبل في

وجوههم انفلتوا إلىٰ الجزائر، وإذا سمعوا بتفجير أو عملية في أوزبكستان وجهوا بوصلتهم إليها ونصبوا أشرعتهم عليها .. في تقلب عجيب وغريب بلبلوا فيه إخوانهم، وشتتوا فيه أمرهم وأفكارهم وقوضوا مشاريعهم الدعوية، ونقضوا غزلهم من بعد قوة أنكاثًا .. واختزلوا الجهاد في أعمال نكائية مبعثرة هنا وهناك، برّروها بدعوىٰ دفع الصائل مع أنه قد جال خلال الديار وصال علىٰ الأمة في كل الأقطار، ولا مزية للقطر الذي اختاروه أو وجهوا شبابهم إليه وفصموا اختياراتهم عن الدعوة وجهود الدعاة..

حتىٰ اشتكىٰ لي كثير من الشباب عبث رؤوسهم بهم، وتذبذبهم وتشتت توجهاتهم وتشتيت الشباب معهم، وراجعني بعضهم متأثمين لخلعهم وعزلهم وتغييرهم بعد أن جن جنونهم من تقلبهم وتذبذبهم العاطفي الآني غير المدروس، وجرجرة طائفة من الشباب معهم تارة إلىٰ هنا وتارة إلىٰ هناك، واعتقال البعض منهم في سوريا وآخرين في الأردن وبعضهم في العراق..

ولا أشك أن هذا من التضرّر بالأحداث وعدم تبني مشروع خاص أو اتباع برنامج واضح محدد المعالم أو كما يسمونها استراتيجية بيّنة في العمل الإسلامي، وإنما هو التقلب العاطفي المحض وردود الأفعال الحماسية الآنية .. ومثل هذه الطريقة في التعاطي مع الدعوة والجهاد مهلكة للجهود والأعمار ومحبطة للمشاريع والأعمال، ومضيعة للأتباع والشباب، وأهلها لا يؤتمنوا علىٰ الشباب ولا علىٰ أعمارهم وأرواحهم، ولا ينبغي بحال أن يصدروا أو يمكنوا من زمام الأمور..

❊ ❊ ❊

وبعد . . فإن ذاك الكيد والخبث والإجرام من الطواغيت وأنصارهم في الصد عن الدعاة والمجاهدين، مع ذاك التخذيل أو الإضرار الذي يمارسه غيرهم من المخالفين؛ يحتاج من الدعاة والمجاهدين أن يكونوا علىٰ قدر من العلم بالشرع والفهم لواقعهم والاعتصام بالله تعالىٰ والتحصن بدينه لكي يأمنوا ويدرأوا كيد أعداء الله ويسلموا من تخذيل المخذلين ويأمنوا من التضرر بالمخالفين. .

فيكونون حقًا من أهل الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم . . والعرب تقول:

الحرُّ إن حالت أو مالت قوسه فسهمه صائب. .

وإذا استوىٰ فسكين وإذا التوىٰ فمنجل. .

وهذا المقصد العظيم يتطلب منهم وسائل لا غنىٰ لهم عنها؛ هي العلاج الناجع والمخرج الناجح من هذه الفتنة:

• فمن أهمها العلم الذي ينال به اليقين ويتحصن ويعتصم به من الشبهات المضلة، فإن شقشقات علماء السوء وإخوان الجهم والمريسي والله لا تروج إلا علىٰ القلوب الخاوية من نور العلم، التي لم تستضيء بنور الوحي ولا يزال فيها مرتع لظلمات الجهل؛ فهي والله خاوية عند من فتّشها، ولقد تصدّينا بفضل الله لها واجتلناها ومحقناها في العديد من كتاباتنا، وبذلنا تلكم الكتابات لإخواننا وسهّلنا عليهم الأمر فهي بين أيديهم جهد سنوات ينالونه بلحظات أو ساعات، فما عليهم إلا النظر فيها، والمحروم من حرمه الله. .

لا تخش من بدعٍ لهم وحوادثٍ ... ما دمت في كنف الكتاب وحرزه
من كان حارسه الكتاب ودرعُهُ ... لم يخش من طعن العدو ووخزه

لا تخش من شبهاتهم واحمل إذا ما قابلتك بنصره وبعزه
والله ما هاب امرؤ شبهاتهم إلا لضعف القلب منه وعجزه

• ومن أهم تلك الوسائل أيضا التقوىٰ، فبها يتحصن الداعية والمجاهد من شهواتهم ومغرياتهم، وعماد التقوىٰ:

- الصبر علىٰ طاعة الله.

- والصبر عن معصيته، فالقلب إنما يحيا بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي وعدم التعرض للفتن والمنكرات وفي البخاري: (باب من الدين الفرار من الفتن).

- ويعين علىٰ ذلك اللحاق بالطائفة المنصورة وصبر النفس مع أهلها من الصالحين وأنصار الدين ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ .. الآية.

• وبهذا الصبر وما يثمره من تقوىٰ يتحصن المجاهد والداعية من كيد أعداء الله، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

• وباليقين الذي ينال بالعلم ويتحصن به من شبهات القوم، وبالصبر الذي يورث التقوىٰ التي يتحصن بها من شهواتهم ومغرياتهم تنال الإمامة في الدين؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

ولذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: (بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين).

• ومما يعين علىٰ العلم الحق، وربطه بالواقع أو فهم الواقع علىٰ ضوئه؛ الالتفاف حول المرجعيات العلمية لهذا التيار، من العلماء العاملين

والدعاة الربانيين الذين يقفون اليوم علىٰ أعظم ثغور الإسلام بتصديهم لطواغيت الكفر وثباتهم في وجوههم وتصديهم لشبهات عملائهم من علماء السوء وأذنابهم من جماعات التجهم والإرجاء، فواجب علىٰ شباب الأمة الاصطفاف خلف ذوي العدالة من العلماء الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله، والالتفاف حولهم وحول كتاباتهم والاستفادة من تجاربهم وخبراتهم وعدم الزهد بها، أو الاكتفاء بالتجارب الضحلة القاصرة أو الاغترار بالحماس الأجوف الذي صار سوطًا يسلطه بعض السطحيين علىٰ الشباب بل وعلىٰ كثير من المشايخ يجرونهم به إلىٰ أعمال متخبطة تشوّه الجهاد، أو اختيارات مبعثرة مرجوحة، أو ردود أفعال وتشنّجات غير مدروسة، ويعزلونهم بذلك عن مرجعياتهم من ذوي الخبرة والفقه والنظر بدعوىٰ أنهم ليسوا من أهل الثغور، وبزعم أن أهل الثغور أدرىٰ بفقه الجهاد، فيختزلون الجهاد والثغور في أعمال نكائية وردود أفعال ثأرية محدودة غير مدروسة، وكل من له عقل وفهم يعلم أن أولىٰ الناس بوصف أهل الثغور وأهل الطائفة المنصورة هم علماؤنا العاملون الثابتون القائمون بأمر هذا الدين علىٰ أعظم ثغور الإسلام في وجه الطواغيت وعملائهم من علماء السوء، وإذا لم يكن هؤلاء العلماء العاملون من أهل الثغور فليس في الدنيا كلها إذن أهل ثغور..

• ومن العلم والفهم الذي يجب أن يتزود به أصحاب هذه الطائفة القائمة بأمر الله ويعينهم علىٰ عدم التضرر بالأعداء والمخالفين؛ استبانة سبيل المجرمين، فقد فصّل الله تعالىٰ لنا الآيات البينات لأجل هذا المقصد العظيم.. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

فالمعرفة بمكائد الأعداء والتبصّر بأساليبهم ووسائلهم يعين علىٰ الحذر منها وعدم التضرر بها وبآثارها.. ولأجل ذلك أشرت في هذه العجالة إلىٰ

ألوان وأنواع شتىٰ من ذلك، فينبغي علىٰ الدعاة والمجاهدين أن يكونوا علىٰ مستوىٰ المسؤولية والأمانة العظيمة التي يحملونها في سلوكهم لهذه الطريق وفي كونهم من أهل الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، وأن يكونوا في الحذر والفطنة والاختيار والفهم والخطاب علىٰ مستوىٰ الصراع والحرب المستعرة عليهم والمكائد العظيمة التي يكيد بها الأعداء لهذا الدين، وأن لا يتعاملوا مع الجهاد بسطحية مقيتة وسذاجة قاتلة، فهذه المكائد الخبيثة لا يتصدىٰ لها الدراويش والسذج وبغاث الطيور، وإنما يتصدىٰ لها السباع والصقور. .

• ولأجل ذلك ولأجل أن الحرب علىٰ هذه الطائفة ودينها وجهادها اليوم عالمية، ووسائلها علىٰ مستوىٰ خبيث ومتنوع، ورأس مال الدعاة والمجاهدين المخلصين قليل عددًا وعدة ولا مجال للمقامرة أو المغامرة عند الصادقين الجادين الواعين لظروف الأمة وإمكاناتها وحجم الحرب المستعرة عليها؛ فيجب عليهم أن يتخيّروا لدينهم وجهادهم الأنفع من الاختيارات والأحظىٰ للأمة والأصلح لجهادها والأنكىٰ لأعدائها والأقطع لدابرهم وكيدهم وكفرهم، ولا تكون اختياراتهم مبنية علىٰ ردود الأفعال التي يجرهم إليها أعداؤهم توريطا لهم في أعمال مرجوحة غير مدروسة ولا مجدية، تشتت دائرة الصراع أو تشنع علىٰ الدعاة والمجاهدين وتنفّر عن سبيلهم وتؤلب الناس عليهم فيظهرون بمظهر أعداء الناس المستضعفين لا منقذيهم، ويصير أعداؤهم من الطواغيت هم المنقذون للناس الحماة لهم من إرهاب الدعاة والمجاهدين، وبذلك يعينون عدوهم علىٰ مكائده وتختلط الأوراق ويلبس الحق بالباطل . . ومن لم يتأمل هذه الاعتبارات في اختياراته ولم يرفع بها رأسًا ولم يراعها؛ لم يفقه قوله ﷺ في مرحلة من مراحل سير الطائفة المنصورة: (دعهم لا يتحدث الناس محمد يقتل أصحابه) وقوله:

(إذًا ترعد له آنف كثيرة) وقوله (لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام)

ونحو ذلك من الضوابط والإشارات والمعالم المهمة علىٰ الطريق. .

- وعلىٰ كل حال فقد تقرر أن ردود الأفعال ليست أفعالًا محسوبة موزونة مدروسة، بل هي انفعالات غالبًا ما يجرّ إليها العدو، فحقيقتها أنها أفعال يحدثها العدو في المنفعل الذي فقد توازنه وتشوشت عليه بوصلته، فصاحبها الحقيقي هو العدو، ومن صدرت عنه منفعل لا فاعل. .

• ومما يعين علىٰ التحصّن من مكائد الأعداء وينجّي من التضرر بها أن يتذكر الداعية والمجاهد دومًا وفي اعتىٰ الظروف وأشد القروح ويستحضر الصفقة والبيعة التي عقدها مع مولاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾. .

فلا ينقض هذه البيعة ولا يستقيل منها ولا يقبل فيها خيارًا أو يبتغي عنها حولًا أو يرضىٰ بها بدلًا، ومما يعينه علىٰ ذلك أن يتذكر كرم المشتري وشرف الثمن الذي يقبضه عوضًا عن نفسه وماله، وعظم الثواب الذي ينتظره علىٰ هذه البيعة، ومن ثم عظم الخسارة إن فرّط بها، فلا يخون أمانته التي تحملها، أو ينقض بيعته التي بايع عليها . . ويتذكر دومًا قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيكون ممن قال تعالىٰ عنهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

• ويعينه علىٰ حمل الأمانة والثبات علىٰ البيعة والوفاء بما عاهد الله عليه وعدم التضرر بالمخذلين؛ الدوام علىٰ ما وصف الله تعالىٰ به أهل هذه البيعة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن هذا مما يقوي اعتصامه بالله ويربط على قلبه ويثبته ويقويه..

• ويعينه على ذلك أيضًا تذكر ما عند الله من الثواب العظيم لأوليائه والعذاب المقيم لأعدائه، واستحضار ترغيبه سبحانه للمؤمنين ووعيده للخائنين..

فإن ترغيب الله وترهيبه ووعده ووعيده لا يدانيه ترغيب وترهيب أو وعد ووعيد، ولا يجعل فتنة الناس كعذاب الله إلا القوم الخاسرون..

فعذاب أعداء الله وسجونهم وأذاهم وإهانتهم وترهيبهم لا يساوي غمسة واحدة في جهنم ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ﴾ .. كما أن ترغيبهم وعطاءهم ووعودهم لا تساوي غمسة واحدة في أدنى درجات الجنة..

فإن أخس أو أدنى أهل الجنة منزلة كما في الصحيح رجل يعطى ما تمنى ومعه عشرة أضعاف الدنيا أو عشرة أمثالها، حتى إنه ليقول: ما أعطي أحد مثل ما أعطيت!

هذا أدناهم منزلة، فكيف بأعلاهم؟

فأين ترغيب أعداء الله ووعودهم لأذنابهم وأوليائهم ولمن يخون الله أو يبيع دينه؟ أيداني مهما بلغ شيئا من هذا؟

وفي الصحيح أيضًا أن أهون أهل النار وأدناهم عذابًا من توضع في أخمص قدميه جمرتان وفي رواية: ينتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا .. فكيف بأشدهم؟ فهل في عذاب أعداء الله وأذاهم مهما بلغ شيءٌ مثل هذا؟

وفي الحديث الصحيح: (لو أن رجلًا يُجَرُّ على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرمًا لحقّره عند لقاء الله).

أي أنه يستهين بعذاب العمر كله وشقائه ويستحقره أمام ما يرىٰ من عذاب الله للكفار يوم القيامة أو أمام ما يراه من عظيم أجر الله وثوابه لمن صبر علىٰ ذلك واحتسبه..

إن استحضار هذا وذاك وتذكره دومًا يثبّت الداعية والمجاهد علىٰ بيعته وعهده الذي عاهد الله عليه، ويزهّده بوعود أعداء الله وترغيبهم ويعينه علىٰ أذاهم ووعيدهم في أحلك الظروف وأقساها، فلا يتضرر بهذا أو ذاك..

وفي الحديث: (يؤتىٰ بأشقىٰ أهل الأرض يوم القيامة فيغمس في الجنة غمسة واحدة ثم يقال له: هل رأيت شقاءً قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتىٰ بأنعم أهل الأرض فيغمس في النار غمسة واحدة، ثم يقال له: هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقول: لا والله يا رب).

ولذلك كنت أقول لأعداء الله أثناء تحقيقاتهم وخلال ترغيبهم وترهيبهم لما كانوا يعرضون عليّ أحيانًا التعاون والعمل معهم: أن تتعاونوا أنتم معي أسهل وأقرب من أن أتعاون أو أعمل أنا معكم؛ فأنا أعتبركم أعداء وكفارًا، وأكفركم وأكفر من يظاهركم علىٰ المسلمين، فهل يعقل أن أعمل في وظيفة أكفر أهلها؟ وهل يعقل أن أتعاون مع أعدائي، ثم لو أني عملت معكم فإنكم لن تقدروا علىٰ أن تعطوني كالأجر الذي وعدني الله به إن وافيته ثابتًا محتسبًا، أما لو عملتم أنتم معي وصرتم أنصارًا لدين الله فإن أجركم إن أخلصتم جنة عرضها السموات والأرض، فما قيمة رواتبكم وعطايا الدولة لكم أمام جنة عرضها السموات والأرض، وأنتم إذا عملتم معي خنتم الدولة -علىٰ حد تعبيركم- وهذا هين ولا يعد شيئًا أمام خيانة الله ودينه، وأذىٰ الدولة لكم علىٰ خيانتكم لا شيء أمام عذاب الله لي لو خنت دينه وعملت معكم، كما أن خسارتكم لرواتب الدولة ورتبها لا شيء أمام خسارة جنة عرضها السموات والأرض، فذلك هو الخسران

المبين . . ولذلك فأن تعملوا أنتم معي أسهل وأقرب من أن أعمل أنا معكم . .

● أما التضرر بكثرة المخالفين والمخذلين والطاعنين في الدعاة والمجاهدين، أو كثرة المنحازين إلىٰ عدوة الطاغوت والمصفّقين له والمطبّلين؛ فالأصل في الداعية والمجاهد أن يسلك طريق الطائفة المنصورة ويستقيم علىٰ سبيل الهدىٰ ولا يحزن لقلة السالكين، ويتجنب سبل الضلالة ويعرض عن أهل التخذيل ولا يتضرر بكثرة الهالكين . . فهذه سنة الله في هذا الدين فلم يزل أنصاره هم القلة الغرباء دومًا، وفي الصحيح: يأتي النبي يوم القيامة ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ليس معه أحد، ومن استذكر من سبقه من الشهداء والصادقين من المجاهدين والعلماء والدعاة العاملين وغيرهم من أنصار هذا الدين، واستحضر قوافلهم الضاربة في أعماق التاريخ لم يشعر بالغربة ولم يتضرر لقلة الأنصار وكثرة المخالفين والمخذلين . .

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعدٍ ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا
وإما تخافنّ الكلال فقل لها: أمامك وِردُ الوصل فابغِ المناهلا
وخذ قبسًا من نورهم ثم سر به فنورهم يهديك ليس المشاعلا
وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا
فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويصبح ذو الأحزان فرحان جاذلا

● **أخيرًا** . . فالنجاة من هذه الفتن مع هذا كله لا تنال إلا بلزوم ما تركنا عليه رسولنا ﷺ وعدم التفريط بشيء منه أو الانحراف يمنة أو يسرة عن الطريق التي خطّها ورسمها لنا ﷺ . .

وفي الأثر عن سعد بن أبي وقاص لما دُعي إلىٰ الخروج في الفتنة قال: إن مثلي ومثلكم كمثل قوم كانوا في فلاة بيّنة طريقهم، فثارت ريح

عجاجة فالتبست عليهم الطريق، فقال قوم: الطريق ذات اليمين، فسلكوا فيها فتاهوا وضلوا، وقال قوم: الطريق ذات الشمال، فسلكوا فيها فتاهوا وضلوا. وقال آخرون: كنا علىٰ الجادة حين ثارت الريح؛ فلنثبت علىٰ ما كنا عليه حتىٰ تذهب العجاجة، فنيخ فأناخوا، فأصبحوا وقد ذهبت الريح وتبينت الطريق .. فهؤلاء هم الذين يثبتون علىٰ ما تركهم عليه رسول الله ﷺ ولا يبدلون أو يغيرون، فلا تضرهم الفتن ما دامت السموات والأرض، ولا يتضررون بالمخذلين ولا بالمخالفين..

قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

وقال النبي ﷺ: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا؛ كتاب الله).

فالثبات الثبات يا أصحاب الطائفة القائمة بدين الله، الثبات علىٰ ما ترككم عليه حبيبكم ﷺ لا تفرطوا بشيء منه ولا تتضرروا بمن خالفكم أو خذلكم، ولا تتلكئوا عن نصرة دينه لشيء من عذابات الطريق أو كيد الأعداء وأذىٰ القريب منهم أو البعيد، وحذار أن تستوعروا الطريق أو تبطئوا في المسير أو تتخلفوا عن الركب..

فتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سنّ نادم
وقل للذي قد غاب: يكفي عقوبة ... مغيبك عن ذا الشأن لو كنت واعيا
وأدلج، ولا تخش الظلام فإنه ... سيكفيك وجه الحِبِّ في الليل هاديا
وسقها بذكراه مطاياك إنه ... سيكفي المطايا يا طيب ذكراه حاديا
وأقدم فإما مُنْية أو مَنِيَّة ... تريحك من عيش به لست راضيا

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ

فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

* * *

ختامًا .. فإن نصرة هذا الدين بالقيام به وإظهاره علىٰ الدين كله من أعظم المقاصد التي بعث الله الرسل من أجلها .. كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

فهنيئًا للثابت من أهل هذه الطائفة علىٰ هذا الأمر العظيم، هنيئًا لمن وفّىٰ بهذه البيعة ولم يبدل تبديلا .. فما هي إلا أيام، وعند الصباح يحمد القوم السرىٰ..

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

الخاتمة

ليس من أراد الشر فأدركه كمن أراد الخير فأخطأه

ليعذرني إخواني علىٰ بعض شدتي في هذه الوقفات، فما هي والله إلا الحرقة علىٰ هذه الدعوة والغيرة علىٰ هذا الجهاد وأهله، والحرص علىٰ أن يكونوا بأبهىٰ صورة وأحسن حال .. وأن يتجنبوا اجترار هذه الأخطاء وتكرار تلكم التخبّطات.

فهي وقفات مستوحاة من تأملات لصورة كالحة وتجارب فاشلة عايشت أهلها سواء في فترات سجني المتكررة؛ أو في متابعاتي للساحات المختلفة وتواصلي مع أهلها؛ حرصت علىٰ أن أستخلص منها العبر والفوائد والتنبيهات لأوصلها إلىٰ الشباب المبتدئ علىٰ عتبات هذا الطريق، فالشدة فيها ليست هدفًا ومقصدًا بل هي وسيلة للردع والتنفير عن هذه الأغلاط الشنيعة والزلاّت المريعة، ومرارتها محمودة كمرارة الدواء الذي يتحمله المريض ليسترد به عافيته ويدفع عن نفسه البلاء.

وهي كتلك الشدّة التي يحتاج المرء أن يُجريها أحيانًا علىٰ يديه لينظفها مما علق بها من الأوساخ.

فعاقبتها إن شاء الله محمودة وفائدتها بإذن الله موجودة لا مفقودة، وليعلم قارئ هذه الكلمات أن عين من شدّدت عليهم في القول ها هنا نقدًا وَمُناصحة؛ كنتُ قد ناصرت أكثرهم في مواطن أخرىٰ كانت تستدعي النصرة لإخوةٍ ظُلِموا وتجنىٰ عليهم الطغاة بل وكثير من المنتسبين للدين ..

ولا تمنعني نصرتي لهم علىٰ من ظلمهم، من قول الحق في زلاّتهم ومناصحتهم في أخطائهم كي لا تتكرر أو يقع فيها غيرهم فلكل مقام مقال، ولكل حادث حديث. .

ولا أشك بعد هذا طرفة عين أن أدنىٰ من انتسب إلىٰ هذه الدعوة مهما كانت أخطاؤه وانحرافاته ومهما كان جهله وإسرافه؛ بأنه إن خلصت نيته وصلحت سريرته وكان ممن ينشد الخير لهذه الدعوة والنصرة لهذا الدين ويتحرّق علىٰ ما آل إِليه حاله وحال أهله؛ لا أشك طرفة عين بأنه خير وأعلىٰ وأنقىٰ مهما قَلَّت خبرته وكبرت عثرته ممن سعىٰ لحرب الدين وأهله وبذل عمره في نصرة أعدائه وشانئيه؛ فخبثت سريرته وفسدت نيّته.

ذلك بأن الله مولىٰ الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولىٰ لهم.

عاصم العتيبي

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة